# حقيقة الذرة (١)

جعفر الخياط

لا يخفى ان الذرة هي وحدة الكائنات الحية وغير الحية في هذا الكون الفسيح ، وان خصائص المواد جميعها تتوقف على ما تنطوي عليه الذرات من مزايا أو تبديه من نشاط وفاعلية .

على أن أبرز ما تعرف به الذرة جرمها الصغير وحجمها الدقيق . ولاجل أن يقف القارىء على مقدار هذه الدقة ودرجة تضاؤلها في الحجم يمكنه أن يتصور بصورة تقريبية ان حبة صغيرة من حبات ملح المائدة الاعتيادي تعتبر أكبر من الذرة الاعتيادية بمليون مرة على الاقل . لكن هذه الحبة قد تحتوي بطبيعة الحال على ما يزيد بكثير على المليون ذرة بالتعبير الكيميائي . فقد تحتوي على ما يقرب من مليون طبقة من الذرات تتكدس احداها فوق الاخرى ، وقد تحتوي كل طبقة من هذه الطبقات على مليون صف يتألف كل واحد منها مليون ذرة . وبذلك قد يصل مجموع الذرات الى مليون المليون في العدد .

ولقد أحصيت أنواع الذرات الموجودة في الطبيعة بالطرق الكيميائية فوجد أنها تصل المئة نوع في الوقت الحاضر . ولذلك يبلغ عدد العناصر الكيميائية التي أمكن التوصل الى معرفتها حتى اليوم مئة عنصر . والعنصر كما لا يخفى هو المادة التي تتألف من نوع واحد فقط من الذرات . وعلى هذا الاساس يعتبر الكلورين مثلا عنصرا من العناصر الكيميائية لاننا لايمكن ان نميز فيه كيمائيا سوى نوع واحد من الذرات . غير انه قد وجد بالطرق العلمية العويصة ان الكلورين هذا ينطوي على طائفتين من الذرات يختلفان في وزنها فقط . ويبلغ ذلك الاختلاف حوالي ٦٪ .

وتسمى الطوائف المختلفة للنوع الواحد من الذرة ، التي تتساوى في الخصائص الكيميائية وتختلف في الوزن ، النظائر Isotopes . ولذلك يقال ان الكلورين هو عبارة عن خليط يتألف من نوعين من النظائر ، ومن الممكن عزل هذين النوعين بطرق تستدعي الكثير من الاعداد والتحضير بحيث يجمع كل منهما على حدة .

---

(١) ملخصة بتصرف عن فصل في كتاب
Atomic Physics — by O.R. Frisch, 1961

وهناك عناصر تقتصر ذراتها على طائفة واحدة فقط ، ومن دون أن يمكن التوصل الى نظائر لها ، مثل الصوديوم والفوسفور والالومنيوم والذهب وغير ذلك • غير ان عناصر كثيرة أخرى غير هذه يكون لها أكثر من نوعين من النظائر • ويبرز من بين هذه الطائفة من العناصر عنصر الصفيح أو التنك ، الذي يعتبر خليطا من ذرات عشرة أشكال لا يختلف بعضها عن بعض الا بالوزن ، وتتساوى فيما بينها بالخصائص والمزايا الكيميائية •

أما بالنسبة للذرات العائدة لنفس النوع من النظائر ، فليس هناك أي اختلاف مطلقا فيما بينها من جميع الوجوه لان المعروف بصورة أكيدة ان ذرات النظير الواحد لاي عنصر من العناصر الكيميائية هي ذرات متشابهة تمام التشابه فيما بينها • ولا يقصد بذلك أنه لم يمكن أن يكتشف حتى الان أي فرق من الفروق فيما بينها ، وانما يقصد ان هناك دلائل قوية تشير الى أن مثل هذه الفروق والاختلافات لايمكن أن تظهر للوجود في المستقبل بأي حال من الاحوال •

هذا وقد لاحظ الباحثون خلال أبحاثهم الذرية أن هناك كذلك ذرات قلقة غير مستقرة في وضعها وتركيبها ، ولا يمكن العثور عليها في حالتها الطبيعية ، وانما يمكن تركيبها اصطناعيا بأجهزة ذرية خاصة مثل جهاز السايكلوترون Cyclotron • وهذه هي النظائر المشعة Radioactive Isotopes التي صرنا نسمع الشيء الكثير عنها في أيامنا هذه • ولا شك أننا لو اعتبرنا هذه النظائر أنواعا خاصة من الذرات قائمة بذاتها ، وأدخلناها في عداد العناصر الكيميائية المعروفة ، لأصبح عددها كلها يناهز الألف عنصر • غير أننا يجب أن لاننسى ان النظائر بحد ذاتها ليست كلها نظائر مشعة ، وان ما يقارب الثلث منها هي ذرات ثابتة في خصائصها وتركيبها ، وان هذا الثلث هو الذي تتكون منه كتل الاشياء معظمها في هذا العالم العجيب •

ولكن ما هي الكيفية التي تتألف بموجبها المادة من هذه الذرات ، وكيف تتكون منها ؟ ان خير ما يمكن البدء به للاجابة على هذا السؤال هو ظاهرة تسييل المواد الصلبة جدا بتعريضها الى مقادير كافية من الحرارة الشديدة • فالمعروف ان هناك شيئا غير يسير من العلاقة ما بين الحرارة وحركة الذرات غير المنتظمة • فاننا حينما نسخن الجسم بدلكه بجسم آخر، أو ضربه ضربات قوية متتالية بالمطرقة ، نقوم في الحقيقة بتحفيز ذرات ذلك الجسم على الحركة السريعة والتمادي في تزايدها • وحينما تصل تلك الحركة الى السرعة الشديدة المطلوبة يكون بوسع الذرات حينئذ التغلب على القوة الخارقة التي تتجاذب بموجبها الذرات فيما بينها ، وتبقى في مواقعها الاصلية ، فتنطلق من عقالها وينفك ارتباطها بمواقعها المعينة فيحصل التسييل • وحينما تزداد حركة الذرات في شدتها وعنفها فتتجاوز ذلك الحد تتحرر الذرات تحررا تاما ، ولا تعود ترتبط بشيء مطلقا ، وفي تلك الحالة نقول ان المادة تبدأ بالتبخر •

على ان هذا كله ينطبق بكل دقة على المواد التي تكون فيها الذرات قادرة على الحركة المستقلة القائمة بنفسها فقط ، أي المواد التي توجد بشكلها العنصري الخالص • لكن المواد الموجودة في الطبيعة معظمها تجنح ذراتها الى التجمع بمجموعات تكون ثابتة في شكلها وتكوينها ، وتسمى « الجزيئات » Molecules فان الماء مثلا يتكون من جزيئات يتالف كل كل منها من ذرة واحدة من الاوكسجين وذرتين من الهيدروجين • ويكون الجزيء في العادة أشبه بالاسرة الواحدة التي تحاول دوما الاحتفاظ بكيانها المتماسك في شتى الظروف ومختلف الاحوال والمناسبات ، وحتى حينما تبلغ الحركة الحرارية حدا من العنف والشدة يجعلها تترك حالتها السائلة وتنقلب الى حالة بخار متطاير بين طبقات الهواء • ولا يتفكك الجزيء وتتحلل ذراته الى شكلها العنصري من جديد الا بوجود درجات حرارية مرتفعة للغاية وقادرة على توليد حركة متناهية في الشدة والعنف بين الذرات •

ولا تتالف بعض الجزيئات الا من ذرتين فقط ، وقد تكون هاتان الذرتان متشابهتين ، مثل جزيء الاوكسجين الذي يتألف في حالات كثيرة من ذرتين من الاوكسجين • وهناك جزيئات أكثر تعقيدا من هذا الجزيء بطبيعة الحال ، مثل جزيء سكر القصب Sucrose الذي يتألف من اثنتي عشرة ذرة كاربون واحدى عشرة ذرة اوكسجين واثنتين وعشرين ذرة هيدروجين •

يضاف الى ذلك ان هناك جزيئات أكبر من جزيئات سكر القصب بكثير وأشد تعقيدا منها ، وهي جزيئات مركبات اللدائن Plastics المختلفة التي توسعت صناعتها في السنوات الاخيرة توسعا مدهشا فأصبحت صناعة هائلة قائمة بنفسها • ومن أشهر هذه المركبات مركب البولي أيثلين Polyethelene التي تكون جزيئاته طويلة متألفة من خط غير قصير من ذرات الكاربون التي تعلق بكل منها ذرتان من الهيدروجين •

وللكهربائية علاقة وثيقة بالذرة • فان التيار الكهربائي ما هو الا قوة كهربائية في حالة الحركة ، وهذه القوة اما ان تكون موجبة تتدفق في جهة من الجهات أو سالبة تتدفق في اتجاه معاكس ، أو أن تكون الاثنين معا • وقد وجد ان التيار السالب يتالف من جسيمات بالغة الخفة أو الوزن تدعى الالكترونات Electrons أو الكهارب ، وهي جسيمات متشابهة جد التشابه فيما بينها وتحمل شحنة سالبة من الكهربائية • على ان تعبير « تحمل » قد يكون تعبيرا مضللا ، لانه يعني ان الشحنة هي أشبه شيء بالحمل الذي تستطيع الالكترونات القاءه عن كاهلها أو التخلص منه عند الحاجة • ولذلك يمكننا أن نتقرب أكثر من الحقيقة والواقع حينما نعتبر الالكترون نفسه شحنة سالبة ، أو ذرة من الكهربائية السالبة الخالصة • ويؤيد هذا الرأي كون الالكترون على درجة متناهية من الخفة ، فهو أكثر خفة بألفي مرة من أخف ذرة موجودة في هذا الكون وهي ذرة الهيدروجين •

وتوجد الالكترونات في التفريغات Discharges الكهربائية لجميع الغازات • كما يمكن استخراجها من المواد الصلبة باستخدام الحرارة الكافية أو تسخير الاشعة الخفيفة مثل أشعة ايكس • ولا يخفى ان هذا القرن الذي نعيش فيه قد شهد نشوء الكثير من الصناعات المهمة التي تستند على استخدام الالكترونات وتوجيهها على النحو المطلوب ، مثل صناعة الراديو والرادار والتلفزيون والسيطرة الاوتوماتيكية وما أشبه •

هذا وتوجد الالكترونات في جميع أنواع المادة ، ولذلك يمكن أن يقال أنها توجد في جميع أنواع الذرات • فماذا يحدث في الذرة حينما يزاح منها الكترون واحد من هذه الالكترونات يا ترى ؟ لا شك ان ما يحدث هو ان الذرة تبقى وهي مشحونة بالشحنة الموجبة • وهذا ما يحدث بالضبط في التيار الموجب الموجود في أنبوبة التفريغ الكهربائي ، فان كل ذرة وكل جزيئة من ذرات وجزيئات الغاز الموجود فيها تكون محملة بشحنة موجبة تعادل الالكترون في الشحنة السالبة لكنها تتعاكس معه في الاتجاه •

وقد نجد في بعض الاحيان ذرات تحمل ضعفي تلك الشحنة أو ثلاثة أضعافها ، وهذا يدل بطبيعة الحال على ان هذه الذرات كانت قد فقدت الكترونين أو ثلاثة من ألكتروناتها • لكن هذا لا يعني ان شيئا من « تهشيم الذرة » Atom-Splitting قد حصل فيها ، وانما يعني ان مثل هذه الذرات لا تبقى بحالتها هذه الا بصورة موقتة وسرعان ما تهتدي الى ألكترونات أخرى غيرها تعوض بها ما كانت قد فقدته منها سابقا ، وعند ذاك تصبح ذرات اعتيادية مثل سائر الذرات •

ويتوقف عدد الالكترونات الموجودة في كل ذرة من الذرات على طبيعتها وخصائصها الكيميائية • اذ تحتوي ذرة الصوديوم مثلا على أحد عشر الكترونا ، وذرة الكلورين على سبعة عشر ألكترونا ، وذرة الذهب على تسعة وسبعين من الالكترونات • غير ان أكبر عدد من الالكترونات يوجد في ذرة اليورانيوم التي تحتوي على اثنين وتسعين منها • وقد أمكن كذلك أن تحضر بطريقة اصطناعية ذرات تنطوي في داخلها على مئة الكترون •

وماذا يبقى في الذرة اذا ما ازيحت منها الكتروناتها كلها ؟ ان ما يبقى منها في الحقيقة هو عبارة عن كتلة دقيقة جدا من المادة أصغر في حجمها من الذرة الاصلية ببضعة آلاف مرة ، لكن وزنها يبقى غير متغير تقريبا برغم ذلك كله لان الالكترونات المزاحة يكاد لا يكون لها وزن يذكر • ولذلك فان كثافة هذه النواة الذرية ، كما يطلق عليها ، تعتبر كثافة هائلة في الحقيقة • لان حبة الملح الاعتيادي لو أمكن أن تصنع من مثل هذه المادة الكثيفة لبلغ وزنها عدة مئات من الاطنان •

وتكاد الذرة أن تكون فضاء خاليا بالكلية ، لولا أن توجد في وسطها نواة متناهية في الصغر يحوم حولها عدد قليل من الالكترونات التي تكون حتى أصغر منها في الحجم والجرم • فانها لو أمكن تكبيرها أو تضخيمها الى

ألف مليون ضعف لأصبح حجمها بحجم كرة القدم المعروفة ، ومع هذا كله فلا يمكن أن ترى نواتها أو أي واحد من ألكتروناتها ، الا بالعدسة المكبرة • وهي ترى حينما تفحص بهذه الحالة وكأنها كسر متطايرة من الغبار الطافي في فضاء الذرة الخالي •

ومع هذا فان الذرة تسلك في حركاتها وتصرفاتها سلوك كرة المطاط وكيفية تحركها • فكيف يكون ذلك شيئا ممكنا يا ترى ؟ وكيف يتسنى لحيز من الفضاء الخالي الذي لا ينطوي الا على عدد من الغبيرات المتطايرة أن تفعل كما تفعل كرة المطاط ؟

ان هذا الفضاء في الحقيقة لايمكن أن يعتبر فضاء خاليا من جميع الوجوه ، لأنه يحتوي على « مجال كهربائي » Electric Field شديد الفاعلية والنشاط • ولا يعد المجال الكهربائي شيئا ماديا ، وانما هو عبارة عن حالة من التوتر Tension الكهربائي الممتد في الفضاء الذري – أي بين النواة الموجبة والالكترونات السالبة في هذه الحالة • وحينما تقترب احدى الذرات من ذرة أخرى يأخذ مجالاهما الكهربائيان بالتراكب فتتعقد الامور فيهما ، غير ان المرء يمكنه أن يدرك ماذا يحصل بينهما • اذ تتجاذب الذرتان فيما بينهما أولا ، لكنهما ما أن يزداد اقترابهما من بعضهما حتى ينشأ تنافر وصدود شديد بينهما فتتباعد احداهما عن الاخرى في الحال • وعلى هذا فان ذلك التفاعل المتبادل بين المجالين الكهربائيين في الذرتين المذكورتين هو الذي يجعل الذرات شبيهة بالكرات المطاطية في سلوكها •

واذا ما عدنا الى البحث عما في داخل الذرة الواحدة من أسرار غير هذه نجد ان مجالها الكهربائي يجنح الى جذب الالكترونات نحو النواة الموجودة في وسطها ، ويحول دون افلاتها منها • ولكن ما الذي يمنع هذه الالكترونات عن الانجذاب التام الى النواة الى حد الاصطدام بها ؟ ان ما يقال عادة في هذا الشأن هو ان الالكترونات تدور حول النواة كما تدور النجوم السيارة حول شمسها بنظام متوازن • غير ان هذا القول لا يعد تفسيرا كافيا لوحده •

فان الالكترونات لايمكن أن تستمر على الدوران حول النواة الى ما لا نهاية ، بموجب القوانين الفيزيائية المعروفة • حيث أنها لابد أن تنحرف عن مدارها في لفها نحو الداخل وتستمر في انحرافها حتى تصل الى حد تصطدم فيه بالنواة • ولو كان ذلك شيئا مطابقا للواقع لانهارت الذرات وتبددت كلها منذ أمد طويل ، حتى لو كان من الممكن لها أن يعود مجال دورانها الى التوسع من جديد بوسيلة من الوسائل فلابد من العثور عندئذ على ذرات تكون في شتى مراحل الانهيار والتبدد المذكورين • لكن الحقيقة هي على غير ذلك من الواقع ، اذ يمكن التدليل بعدة طرق على أن جميع الذرات التي تنتمي الى نوع واحد من أنواعها هي ذرات متساوية في الحجم تمام التساوي • ولو لم تكن على مثل هذه الدرجة من التساوي لما كان في امكانها مطلقا أن تترتب بانتظام وتتشكل بشكل المربعات المتماسكة ، كما

تفعل في البلورات مثلا .

أما نواة الذرة فهي على درجة من التضاؤل في الحجم ، والصغر في الجرم ، بحيث لو ضخمت أو كبرت مليون مليون مرة لبدت كأنها لة من خرز دقيقة يبلغ قطر كل منها حوالي ثمن البوصة في الطول . وبعض هذه الخرز تكون مشحونة بالكهربائية ، كما ان بعضها الآخر لا يكون مشحونا بها . وفيما عدا هذا فانها تكون كلها قريبة التشابه في الوزن والحجم معا . وتسمى الخرز المشحونة بالكهربائية الموجبة « البروتونات » Protons كما تسمى التي لا تحمل شحنة من الشحنات «النيوترونات» Neutrons وليس هناك ما يحمل شحنة سالبة من هذه الخرز .

هذا ولعدد البروتونات الموجودة في النواة تأثير كبير على صفات الذرة التي تحملها ، لانه يعين طبيعتها وخصائصها الكيميائية . وتكون شحنة البروتون الكهربائية في العادة متساوية تمام التساوي ومعاكسة لشحنة الالكترون ، ولذلك نجد ان النواة تجمع حولها عددا من الالكترونات يساوي عدد البروتونات الموجودة في باطنها تمام التساوي . فان النواة في ذرة الكاربون مثلا تحتوي على ستة بروتونات في داخلها ، وتحاط في العادة بستة من الالكترونات أيضا .

على ان عدد البروتونات في داخل النواة ليس له من جهة أخرى أي تأثير على طبيعة الذرة وخصائصها الكيميائية . ولذلك فان النيوترونات هي التي تعين بعددها وجود النظائر في العناصر الكيميائية . فالبروتونات الستة الموجودة في ذرة الكاربون مثلا يمكن ان يصحبها ستة أو سبعة من النيوترونات ، ولذلك يكون للكاربون نظيران يسمى أحدهما كاربون ١٢ ويسمى الآخر كاربون ١٣ .

وقد يتساءل المرء عن الاسباب التي تجعل نواة الكاربون هذه تحتوي على ستة أو سبعة نيوترونات على الدوام ، وعن أسباب عدم وجود نظائر في الطبيعة لهذا العنصر لايكون لها خمسة أو ثمانية نيوترونات مثلا . لاشك ان الجواب على هذا التساؤل هو ان مثل هذا النوع من النوى يكون قلقا وغير ثابت في محتواه عادة ان وجد . فبوسع النيوترون أن ينقلب من نفسه الى بروتون والعكس بالعكس ، اذا كانت النواة في عملها هذا تفقد شيئا من طاقتها .

وهذه الرغبة في اشعاع الطاقة من جانب النواة قد تبدو شيئا من قبيل السخاء الذي تستحق الثناء عليه ، غير انها في الحقيقة لا تختلف كثيرا عن رغبة رقاص الساعة في اطلاق الطاقة المطلوبة لابقاء الساعة دائبة في عملها ، أو رغبة الصورة المعلقة في اطارها على الجدار في الانفلات من الحلقة التي تتعلق بها وتحرير الطاقة على شكل صوت أو جلبة .

ولا غرو فان أي نظام مادي في هذا الكون يجنح الى اتخاذ الحالة التي يكون فيها بأقل ما يمكن من الطاقة ، وتتطلب هذه الحالة في نوى الذرات

وجود تناسب ملائم ما بين البروتونات والنيوترونات المتكونة منها • ومثل هذا التناسب في الذرات الخفيفة يكون بمقدار واحد الى واحد ، كما هي الحالة في كاربون ١٢ مثلا ، الذي توجد في نواتـــه ستة بروتونات وستة نيوترونات عادة • ومن الممكن أن يحشك في هذا العدد نيوترون زائد واحد فقط وليس أكثر ، ولذلك يعد كاربون ١٤ نظيرا غير ثابت التكوين • لان أحد نيوتروناته سرعان ما ينقلب الى بروتون فتتبدل خصائص الذرة ويصبح ذلك الكاربون نيتروجين ١٤ •

ويعتبر نتروجين ١٤ نظيرا ثابت التكوين غير متبدل بوجود سبعة بروتونات وسبعة نيوترونات في نواته • بينما يكون كاربون ١١ من جهة أخرى نظيرا غير مستقر ، بوجود خمسة نيوترونات فقط مع زيادة بروتون واحد فيه • ويلاحظ في هذا الشأن ان البروتونات تكاد تكون غير مقبولة ولا يحتمل وجود الزائد منها بوجه عام ، لانهـــا بمقتضى الكهربائية التي تحملها تتنابذ فيما بينها وتتنافر • ولذلك يقوم كاربون ١١ عنـــد تكونه بقلب أحد بروتوناته عادة الى نيوترون فيصبح نظيرا ثابتا من نظائر عنصر البورون ، وهو بورون ١١ •

هذا وقـد تم اكتشاف حوالي سبعمائة نوع مختلف من مثـل هـذه النويات الثابتة حتى الان • وتسمى هذه نظائر مشعة لان اشعاعا ينبعث منها عندما يتهدم بناؤها • وحينما ينقلب خلال الهـــدم أحد النيوترونات الموجودة فيها الى بروتون يتكون الكترون جديد في الوقت نفسه ليعـــادل الشحنة التي تتكون بظهور البروتون المولود حديثا فيهـــا ، كما ينتج عن الانقلاب المعاكس ، من البروتون الى النيوترون ، تكون الكترون ذي شحنة موجبة وهو الكترون قصير العمر ما يولد حتى يختفي ولا يوجد في المـــادة بشكلها الاعتيادي المستقر • ولذلك نجد في أي مثال نموذجي للنظائر المشعة ان عدة ملايين من النويات تنقلب من حالة الى أخرى في كل ثانية ، ويسمى رذاذ الالكترونات الذي ينبعث من ذلك الى جميع الجهات « اشعاع بيتـــا » Beta Radiation

يضاف الى ذلك ان البروتونات والنيوترونات يتحتم عليها في العادة أن تستقر في مواضعها الثابتة بعد الانقلاب والتحول ، فينبعث خلال ذلك مزيد من الطاقة على شكل أشعة مجهولة ( أيكس ) نفاذة تسمى في هـــذه الحالة « أشعة كاما » Gamma Rays

على ان معظم النوى الذي نجده في الطبيعة هو نوى ثابت التكوين ، غير ميال الى التنازل عن أي مقدار من الطاقة ، لانه قد وصل الى نهاية المطاف عبر القرون ولم يبق فيه الا أقل مقدار ممكن منها • ولابد لقياس مقدار هذا الثبات والاستقرار أن نستخدم ما يسمى بالطاقة الرابطة Binding Energy أي مقدار الطاقة التي يجب أن تخضع لها النواة لتستحيل بها الى بروتونات ونيوترونات منفردة طليقة •

ولو تتبعنا تسلسل النوى الذري بموجب ثقله أو وزنه في قائمة العناصر المعروفة ، مبتدئين بالنوى الخفيف مثل نوى الكاربون والاوكسجين ومنتهين بالثقيل منها مثل نوى الذهب واليورانيوم نجد ان الطاقة الرابطة المنحشرة فيه تزداد مقاديرها ازديادا متسارعا جدا في بادىء الامر ، وتكاد نسبة هذا التزايد تتناسب مع وزن النويات نفسها . لكننا حينما نتجاوز منتصف القائمة نجد ان الطاقة الرابطة هذه تكف عن التزايد بتلك السرعة. ويعزى السبب في الدرجة الاولى الى التنابذ أو التنافر المتبادل الذى يحصل بين پروتونات النواة المشحونة بالشحنات الموجبة ، اذ تزداد القوة الانتبادية كلما ازداد عدد البروتونات الموجودة في النواة . ولذلك نجد ان الترابط ما بين البروتونات والنيوترونات في نواة اليورانيوم يكون أقل كفاءة من الترابط الموجود بين پروتونات ونيوترنات النواة التي تعادل نصف نواة اليورانيوم في وزنها في العناصر الاخرى . ومن أجل هذا تكون نواة الذرة في اليورانيوم ميالة الى التفكك ولتحلل الى نويات أصغر في العادة . على ان هذا الميل لايتجاوز حده الى دائرة التبدل والانحلال الا اذا زيد مقدار الطاقة المتيسرة في النواة .

فان ازدياد الطاقة يحور شكل النواة في ذرة اليورانيوم بحيث تصبح بيضوية الشكل ، وعند ذاك تتنابذ لمات ( جمع لمة Cluster ) البروتونات المتجمعة في طرفي الشكل البيضوي تنابذا كافيا يؤدي الى تطاوله الى أكثر مما كان عليه من قبل حتى يتكون في وسطه محزم يزداد تحضره بالتدريج ، ثم تنقسم النواة الى قسمين في النهاية .

وكان اللورد رذرفورد أول من ابتدع طريقة لتهشيم الذرة . أو تجزئتها ، قبل أربعين سنة حينما شرع في قصف ذرات بعض المواد بنويات خفيفة الوزن سريعة الحركة مثل نويات الهيدروجين والهيليوم . ولا شك ان القصف لا يمكن أن يوجه توجيها مباشرا الى النوى ، لكن الاطلاقات الذرية حينما تستخدم بالملايين فان عددا قليلا منها لابد أن يصيب الهدف . وقد كان هذا أهم الوسائل التقنية المبتدعة لدراسة كنه النواة وتركيبها ، ثم ابتدعت بعد ذلك أجهزة ضخمة كبيرة لهذا الغرض مثل جهاز السايكلوترون الذي توفق في ابتداعه الدكتور لورانس في جامعة كاليفورنيا .

غير ان قصف النويات بجسيمات متكهربة لغرض الحصول على مقادير كبيرة من الطاقة لايعد شيئا مجديا ، لان معظم الاطلاقات تتبدد طاقتهـــا بفقدانها لسرعتها كما ان الاطلاقات التي تصيب الهدف منها لا تولد سـوى مقادير ضئيلة جدا من الطاقة المطلوبة .

على أننا نجد من جهة أخرى ان النيوترونات يمكنها أن تخترق سطح المادة بسهولة ويسر بحيث تنفذ الى النويات في قلب الذرات ، لانها لا تحمل أية شحنة من الكهرباء . وبهذا تعد النيوترونات اطلاقات مثالية لهـذا الغرض . فقد لوحظ ان نواة اليورانيوم تنقسم الى قسمين حينما تتعرض

لزخم متلاحق من القصف النيوتروني ، فتتحرر منها بعض النيوترونات التي تصبح منطلقا لحصول تفاعل متسلسل **Chain Reaction** تنشأ عنه مقادير هائلة من الطاقة الذرية المفيدة أو المدمرة .

ولا تعرف كيفية نشوء الطاقة الهائلة في داخل النواة . لكن المعروف في هذا الشأن أن البروتونات والنيوترونات تتجاذب فيما بينها بشدة تلفت النظر ، حيث ان النيوترون الواحد لايمكن اقتلاعه من مجال الجاذبية الموجود في النواة على صغر حجمه الا بقوة تعادل ما يناهز المئة ليبرة (باون) .

ويعرف كذلك أن هذه القوى لهـــا اتصال بوجود جسيمات صغيرة تتوسط في حجمها ما بين الالكترونات والنيوترونات ، وتسمى «الميزونات» Mesons

وقد تنتج هذه الجسيمات عن حصول مصادمات عنيفة ما بين الجسيمات النووية نفسها ، ولذلك أنشأ الفيزيائيون أجهزة ضخمة خاصة لدراستها تدعى الواحدة منها سينكروترون Synchrotron . وقد أدت هذه الدراسة الى انكشاف عالم جديد قائم بذاته بين يدي العلماء والباحثين المختصين ، عالم يزخر بالحركة السريعة الخاطفة والجسيمات قصيرة العمر التي لم تفهم علاقة بعضها ببعض حتى الان ، ولا علاقتها بعالمنا اليومي .

# مدخل الى معالم الفكر العربي المعاصر

أنور الجندي

من خلال دراسة واسعة مستفيضة للادب العربي المعاصر ، تكشف أن هناك مجالا واسعا خصبا مازال بكرا ، في حاجة للدراسة ، ذلك هو مجال « الفكر العربي » ، وهو مجال رحيب ، نابض بالحياة موصول بالحياة والمجتمع والدين والتراث والتاريخ واللغة ، بل لا نبالغ اذا قلنا أن الادب قطاع منه ، ومن هنا توسعت النظرة والدراسة ، ولا شك ان دراسة الادب العربي المعاصر كانت في جذورها دراسة للفكر العربي أساسا ، وبعد أن كانت المهمة التى انتدبت لها نفسى تقف عند دراسة الادب العربي المعاصر ، فقد توسعت لدراسة الفكر العربي والثقافة العربية في مرحلتين : الاولى مرحلة الاستعمار وقيام النفوذ الغربي ، والثانية مرحلة نهاية الاستعمار وقيام نفوذ التغريب والشعوبية بديلا عنه .

وكان ان فتحت لي دراسة ( الفكر (١) العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية ) التى تناولت مرحلة الاستعمار والنفوذ الغربي منذ فجر الاحتلال الى اوائل الحرب العالمية الثانية ( ١٨٧١ - ١٩٣٩ ) فتحت هذه الدراسة بابا واسعا للتعرف على أدواء فكرنا وقضاياه وازماته في مواجهة الفكر الغربي بشقيه ، وكيف واجه فكرنا الالتقاء بالنظريات والمذاهب الجديدة التى قدمت له في ظل النفوذ الاجنبي القائم اذ ذاك في قلب الوطن العربي والتى كانت تهدف في الاغلب الى عمل سياسي عميق الجذور هو القضاء على مقوماته الاصلية بما يمكن للاستعمار من بسط نفوذه ودعمه واستمراره ، ولما كانت مقومات الفكر العربي الاسلامي تعطى اساسا تلك الروح القادرة على المقاومة فقد قامت ازمة صراع بين القوى الفكرية الغازية واسس فكرنا الحي المتفتح القادر على الحركة والتلقى والاستجابة والاذابة في كيانه دون ان يتحول ، او يصبح تابعا ، فهو مستطيع دائما على التلقى والاخذ والاقتباس وفق حاجته ، لا بالرأى المفروض .

ومن هنا بدأت تظهر عشرات المسائل التى اختلفت فيها وجهة نظر الفكر الغربي عن فكرنا العربي الاسلامي على نحو اصبح من الضروري معه البحث عن جذور هذه القضايا وعرضها عرضا منصفا لا ينكر فضل الغرب

(١) صدرت هذه الدراسة عام ١٩٦١

في تطوره وحضارته ولا يقضي على المقومات الاساسية للفكر العربي ٠

وقد حاولت في هذه الدراسة تناول التطورات في المرحلة الدقيقة بين الاحتلال والجلاء عن العالم العربي ٠

لاشك ان يقظة العالم العربي الجديدة التي بدأت في ظل الثـــورة ويقظة القومية العربية وبروز فجر نهضة حقيقية للامة العربيـة والفـكر العربي قد أتاحت وضع أسس جديدة ايجابية بحيث يمكن الفصل بخط واضح معمق بين مرحلة ومرحلة في تاريخ الفكر العربي المعاصر ٠

وغاية ما يمكن ان يقال ان المرحلة التي تمثل سنوات ما بعد الحـرب العالمية الثانية واندلاع دعوة القومية العربية قد اتاحت فرصة واسـعة لدراسة المرحلة التى عاشها العالم العربي في مرحلتين مر بهما الفكر العربي الاسلامي في العصر الاخير :

المرحلة الاولى : الفترة من ١٥١٧ الى حوالي ١٨٢٠ تقريبا وهي ثلاثمائة عام تقريبا من حكم السلطة العثمانية للعالم العربي وقد كانت هذه الفترة مرحلة ضعف عام للفكر العربي الاسلامي ، مصدره ان العالم الاسلامي والامة العربية جزء منه كان قد جرى شوطا طويلا في خلال ألف عام كاملة منـذ بزوغ فجر الاسلام ، وشارك مشاركة فعالة في مقاومة الفكر الانســاني والحضارة البشرية وعمل على انماء الجذور التي قامت عليها الحضـارة الحديثة المسماة بالحضارة الغربية نسبة الى مكان نموها وتوسعها اساسا ، وكذلك كانت الحضارة الاسلامية العربية دورة مستأنفة للتاريخ بعد سقوط الحضارة اليونانية والرومانية ، وكذلك كانت الحضارة الغربيـة دورة مستأنفة بعد ضعف الحضارة الاسلامية غير ان الفكر العربي الاسلامي لم يسقط يوم تلاشت الحضارة الاسلامية العربية وعندما انطوت الدولةالكبرى المتمثلة في الامبراطورية العثمانية ولكنه ظل موجودا وان خبأ ضوءه وعلاه الصدأ ، وان لم يعد يتفاعل مع الحياة ، فقد ظل مستمر الحياة الى أن انبعثت منه الصيحة مرة اخرى بالدعوة الى اليقظة ، حتى تفتحت الآفاق مرة أخرى للنهضة ، وذلك قبل قدوم الحملة الفرنسية بقرن من الزمان حين بـدأت اليقظة في الفكر العربي الاسلامي ترسم طريقا جديدا ٠

٢ ــ ثم كانت هذه المرحلة الثانية التي يمكن ان تسمى مرحلة الاحتلال العسكرى والسياسى للعالم العربي ( ١٨٣٠ ــ ١٩٥٢ ) والتى برزت خلالها أصوات جريئة وقوية من دعاة الاصلاح والتجديد في مجـال اللغة والادب والدين والاجتماع والتاريخ ، هذه المرحلة يمكن ان يطلق عليها مرحلة فجر اليقظة . فقد قاوم فيها هؤلاء المصلحون قوى ضخمة من النفوذ الاجنبي والتبشير والتغريب والغزو السياسي والاجتماعي والفكرى في ظل مرحلة كان الفكر العربي خلالها يحاول ان يستعيد مكانته ويصحح مفاهيمه وينفض عن نفسه غبار القرون التي جمدته واصابته بالضعف ومن هنا فتحت أبواب التجديد والاجتهاد ، وبدأت تنكشف صورة هذا الفكر على حقيقته ، ويبدو

جوهره ليؤكد حياته وقدرته على الاستمرار والتفاعل مع النهضات والحضارة، وليثبت انه كان دائما قادرا على الايجابية والفاعلية ، وكان ولا يزال يحمل لواء التقدمية والعصرية متطاولا مع الازمان المتتالية والبيئات المختلفة .

ولكن الاستعمار كان يبغض هذه اليقظة التى تعمل أساسا على شجب نفوذه ومن هنا وجدت من النفوذ الاجنبي تحديا ضخما ، هو تحدى القادر المتملك لمختلف عناصر القدرة في السيطرة السياسية والعسكرية ووسائل الثقافة من صحافة ومدرسة وجامعة ، ومن هنا كانت مواجهة التحدى بتلك الروح التي عرفت بها هذه الامة حين تمر بها الاحداث الكبرى والازمات العاصفة .

* * *

واعتقد ان فترة الاحتلال وسيطرة النفوذ الاجنبي التي بدأت قبل منتصف القرن الماضي والتي أوشكت على الانتهاء خلال العقد الخامس من هذا القرن قد كان لها أثرها البعيد في التكوين العقلي والروحي للامة العربية والعالم الاسلامي عن طريق نفوذها في المدرسة والصحافة وبث الفلسفات المادية ، ودفع ثقافات الغرائز والجنس ، واتخاذ المفاهيم الغربية أساسا لفهم القيم الانسانية ، والاعتماد على مصادر الغرب في فهم انفسنا ومحاولة خلق جو متقبل لاعتناق نظريات الغرب في التربية والنفس والاجتماع والادب ، وفي هذا محاولة الفصل بين الدين والفكر والقومية والاسلام وقد ظل هذا الاثر واضحا الى وقت طويل .

لقد كان ابرز ما في مرحلة ما قبل الاستقلال بروز مدرسة ذات نفوذ تفصل بين معركة الحرية وبين القيم الاساسية للفكر العربي الاسلامي ،ومن هنا مضت حركة المقاومة منفصلة عن مقومات فكرنا ، كانت السياسة تغلب الوطنية ، وكانت الوطنية ضيقة اقليمية ، وكانت الحركات الاربع العربية والاسلامية والشرقية والاقليمية تتصارع بتوجيه النفوذ الاجنبي .

وكانت معاهد التعليم تحت سيطرة النفوذ الاجنبي تخرج المؤمنين بالغرب المعجبين به ، الساخرين بالفكر العربي الاسلامي وقيمه ، والذين تملاهم نزعات الشكوك والريب ، منصرفين عنه الى الفكر الغربي ومظاهر الحضارة باعتبارها المثل الاعلى .

وقد تعمقت في العالم العربي خلال فترة ما بين الحربين وما بعدها في ظل الاحتلال مدرسة « لا أخلاقية السياسة » البعيدة عن القيم الفكرية والروحية العربية الاسلامية والتي كانت تنظر الى الدين نظرة الغرب وتنظر الى الاسلام على أنه دين ، وتفصل بينه وبين نتاجه الفكرى والحضاري والثقافي المتفاعل مع الفكر الانساني والذى هو عصارة فكر الشرق كله في أديانه وثقافاته .

وفي ظل النفوذ الاجنبي قامت مدرسة التغريب ودعوته ، وبرزت دعوة الشعوبية ونمت ، وتعمقت مفاهيم الغرب في مختلف مجالات الصحافة

والتربية والتعليم والثقافة وحلت مفاهيم غربية للقيم العربية الاسلامية الانسانية •

وبذلك تعمقت الهوة التي تفصل بين الامة العربية ومفاهيمها واضطرب الخط المتصل وبذلك انحرفت الشخصية العربية عن مقوماتها ومفاهيمها واستطاع الاستعمار والنفوذ الغربي خلال مرحلة الاحتلال للعالم العربي ان يعمق خطته الرامية الى هدم :

(١) مقومات الامة (٢) شخصيتها (٣) فكرها ، هذه الخطة التي جرت بأعمال التبشير والتغريب والشعوبية وفي ظل خدمات الاستشراق في مراحل متعددة وفي مخطط دقيق ، وقد عمق النفوذ الاجنبي خطته على مراحل متعددة بوسائل تزييف الحقائق والتشكيك في المفاهيم ، واحلال مفاهيمه للقيم الانسانية بدلا من مفاهيم الفكر العربي •

ويمكن ان نلخص الشبهات والاتهامات التي وجهها التغريبووجهتها الشعوبية للفكر العربي الاسلامي ونوجزها حتى نكشف الطريق بين يدى الباحث :

(اولا) التجزئة بين العروبة والاسلام • على أساس المفهوم الغربي لكلمة الدين • والمعروف ان الغرب فصل القومية عن المسيحية ، لانالمسيحية دخلت على اوربا من الخارج فكانت اجنبية عن طبيعتها وتاريخها في حين ان الاسلام بالنسبة للعرب في غير مجال العربية : ثقافة وفكر وحضارة وتاريخ •

(ثانيا) فرضية قبول الثقافة والحضارة الغربيين معا « حلوها ومرها، خيرها وشرها ، ما يحمد منها وما يعاب » وهنا يبدو الخلط بين الثقافة والحضارة ، فالثقافة فكر والحضارة مادة ، والحضارة ملك للانسانية ولكن الثقافة تستمد جذورها من وجدان الامة وضميرها وروحها • والمعرفة غير الثقافة ، فالمعرفة كالحضارة ليس شرطا ان تكون ثقافة ، ولكن هي ملك انساني عام تأخذ الثقافات منها وتدع •

(ثالثا) الفلسفة العربية الاسلامية هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية وهذا غير الحق ، فقد كان للعرب طابعهم الواضح ، المستمد من روح القرآن والاسلام والتوحيد ، هذا الطابع الذى اخذ ورفض واضاف وعدل •

(رابعا) الانفصال عن الماضى كلية باعتباره مصدر التأخر ، وهذا القول خطأ على اطلاقه ، فان الغرب نفسه لم ينفصل في حضارته وثقافته القائمة عن مصادر التراث اليوناني والروماني • بالرغم من انفصاله عن هذا التراث ألفي عام وضياع اللغة اللاتينية • بينما ان الفكر العربي الاسلامي مازال متصلا منذ فجره ، وما زال مستمر الاثر والفاعلية •

(خامسا) « روحية الثقافة العربية » هذا خطأ محض ، فان الفكر

العربي الاسلامي يتسم بالمزيج المتفاعل بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والاخرة .

(سادسا) احتقار آسيا واتهامنا بأننا آسيويون ، على أساس ان ذلك مصدر تخلفنا عن اوربا ، والواقع يؤكد والتاريخ يثبت ان آسيا قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العريقة : كالاكادية والسومرية والبابلية والاشورية والهندية والصينية وقدمت للانسانية ديانات أرضية كالبوذية والبرهمية وديانات سماوية كاليهودية والنصرانية والاسلام .

(سابعا) المحاكمة الى فترة الضعف ، هذه الفترة التى انتهت بها دورة من دورات الحضارة وبدأت دورة جديدة لايمكن ان تمثل حقيقة القيم والمفاهيم الاساسية للفكر الاسلامي . بعد أن غلبت نزعات الجمود والتقليد .

(ثامنا) الرأى الغربي في كلمة « الدين » ، هذا الرأى ينطبق على مفهوم المسيحية الغربية وعلى تاريخها ومراحل التقائها واختلافها مع النهضة الغربية ، ولا يصلح هذا الرأي بتطبيقه على ( الاسلام ) أو الفكر العربي الاسلامي بصفة عامة . ان مفهوم المسيحية الغربية يختلف عن مفهوم المسيحية السمحة النابعة من الشرق . ثم ان مفهوم الاسلام يختلف عن مفهوم الدين ، باعتبار الاسلام دينا وفكرا ومجتمعا وحضارة ، وهو في تطوره وحركته وايجابيته وتقدميته وقدرته على النماء والاخذ والعطاء يختلف كثيرا عن غيره من الاديان .

(تاسعا) دعوات الفرعونية والاشورية والبابلية والفينيقية والبربرية وغيرها ، هذه الدعوات التى استغلت للتفرقة بين أجزاء الوطن الواحد ، واتخذت وسيلة لاحياء خلافات مذهبية قديمة قبل الاسلام ومحاولة تغليبها لخلق قوميات ضيقة ودعوات اقليمية مسرفة في التخلص من روح الفكر العربي الاسلامي الذى شمل المنطقة ووحدها بعد الاسلام ، وقد اثبت عديد من الباحثين بدلائل قوية ان الفرعونية والاشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ما هي الا موجات عربية متتالية تدفقت من قلب الجزيرة وانساحت في المنطقة كلها حيث لم يكن من الممكن ان تبنى حضارة شامخة في جو حار وعلى رمال ساخنة الى أطراف الجزيرة ووديان العراق وسهول مصر والشام الخصبة والى سواحل البحار والانهار .

(عاشرا) دور الحضارة الاسلامية العربية في الحضارة الانسانية .وقد تجاهل هذا الدور كثير من الباحثين وتجاهلوا اوليات فكرنا العربي الاسلامي في مختلف العلوم والفنون ، كالفلك والجبر والهندسة وارتياد البحار ونظرية الضوء والطب وغيرها .

(حادي عشر) العالم العربي ايقظته اوربا : وخطأ هذا هو أن العالم العربي استيقظ قبل الارساليات وقبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ،ويمكن القول بأن الحركة الوهابية ( ١٧٤٠م تقريبا ) تعد اولى علامات اليقظة

وتسبق نابليون بخمسين عاما • ولا ننسى الوثيقة التي حصل عليها العلماء من الحكام المماليك قبل الحملة الفرنسية والتي يمكن ان تعد بحق الوثيقة العربية لحقوق الانسان •

(ثاني عشر) اللغة العربية لغة ميتة كاللغة اللاتينية ، وخطأ هذا ان اللغة اللاتينية كانت لغة دولة ولم تكن لغة امة ، وكانت لغة ارستقراطية لا يمارسها الا النخبة الممتازة ، ولم تتغلغل في طبقات العوام ، اما اللغة العربية فقد كانت لغة الاسلام والقرآن ، عاشت معهما ونمت في ظلها ، وكانت تامة كاملة قبل الاسلام والقرآن ، وقد استطاعت بحيويتها وقوتها ان تصرع كل لغات العالم الاسلامي وتاخذ المكان الاول وستظل حية لانها كانت قادرة على التجاوب مع الحضارات والمدنيات دوما •

ولقد استطاع الفكر العربي في فترة الاحتلال ( ١٨٣٠ — ١٩٥٦ ) تقريبا ان يقاوم هذه النظريات والشبهات وأن يدحضها غير أن النفوذ الغربي المغلف وراء التغريب والشعوبية اجرى محاولات جديدة لبسط هذه الشبهات بأساليب جديدة •

* * *

هذا هو الموقف الذى واجه الفكر العربي في اوائل مرحلة الاستقلال وانهاء النفوذ الاجنبي والذى حاول ان يثير الشبهات حول يقظة العالم العربي الجديدة ، وان يوجه ظلال الشكوك حول الحرية والاشتراكية والوحدة ، هذه الشكوك التي تحاول ان تعوق العالم العربي وقد أوشك على التحرر من النفوذ الاجنبي العسكرى والسياسى حتى تفرض عليه ان يواجه معركة جديدة هي التخلص من التغريب والشعوبية وقد وضح الاتجاه نحو تأصيل النهضة وكشف تآمر التغريب عليها في كلمات مضيئة :

« نحن في حاجة الى الوحدة الفكرية حتى ندعم هذا التضامن العربي ، ان التحرر الفكرى ضرورى لها في هذا المجال ، وهناك واجب اساسى في اقامة أدب عربي مستقل خال من السيطرة الاجنبية أو التوجيه الاجنبي فلا نكون ذيلا لكتلة من الكتل •• فكرنا ينبع من ضميرنا ، مع وعى عميق بالتاريخ وأثره على الانسان المعاصر من ناحية ومن ناحية اخرى بقدرة الانسان بدوره على التأثير في التاريخ ومع فكر مفتوح لكل التجارب الانسانية يأخذ منها ويعطيها ، ولا يبعدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد مع ايمان لا يتزعزع بالله ورسله ورسالاته القدسية التى نعيشها بالحق والهدى »•

وعصارة هذه الفترة تتمثل في عناصر محددة :

أولا : نحن لسنا خصوما للحضارة الغربية أصلا ، فالحضارة الغربية مدنية انسانية عالمية شاركنا في بنائها وكان لنا دورنا في تكوينها ، وهى حق مشاع لكل الامم والشعوب ، وقد أخذنا منها ارقى ما وصلت اليه ، واستطعنا في ظل اليقظة التي عرفها العالم العربي كله منذ عام ١٩٥٢ ان نصل منها الى مرحلة كبرى في مجال الصناعة والتسليح وبناء الطائرات

والتكتيك العلمي وما يتصل بالذرة والفضاء بحيث لا يمكن ان نتهم اليوم بالقصور او التخلف ، وبحيث نكون قد عدونا الطوق الذي كان يضربه الاستعمار والنفوذ الغربي حول الامم حتى لاتصل من الحضارة الى جوانب القوة فيها ٠

ثانيا : لسنا خصوما للفكر الغربي أصلا الا حين يحاول هذا الفكر ان يسيطر علينا لحساب النفوذ الاجنبي ، أما فيما عدا ذلك فالفكر الغربي يحمل عصارات من الابداع والعبقرية في مجالات الفلسفة والفن والادب والتاريخ تتجه نحو ترقية الانسانية ولكنا نقف منه موقفين واضحين :

الاول : لنا أولية في لمجال النهضة والحضارة وكان فكرنا العربي الاسلامي له دور وأثر واضح أكيد لاسبيل الى انكاره او غمطه أو تجاوزه ٢) .

الثاني : ان الفكر الغربي عن طريق النفوذ الاستعماري المختفي وراء التغريب والشعوبية ، يحاول ان يفرض علينا بعض النظريات والافكار والمذاهب التي لاتتفق اساسا مع مقومات فكرنا العربي الاسلامي في مجال : الجنس والتربية وعلم النفس والمادية التاريخية وغيرها ، ونحن نرى ان هذه النظريات انما هي مراحل في تطور الفكر الغربي تتصل بحضارته وثقافته المستمدة من مصادر اليونان والرومان اساسا ، ونحن بفكر مفتوح لكل التجارب الانسانية ننظر في هذه النظريات بروح الاستقلال والرشد الفكري ، ونقف منها موقف القدرة على الاخذ والرد ، والقبول والرفض ، فقاعدتنا أساسا أن لنا مقومات وقيم أصيلة ترسم ثقافتنا وشخصيتنا وفي ضوئها نأخذ وندع ، ولن يتحقق أبدا أن نكون تابعين او مستوردين ، أو ان نذوب في فكر الغرب .

ولعل ابرز ما اعطتنا يقظتنا العربية هي هذه القدرة على مواجهة الفكر الغربي دون استسلام له ، لقد اعطتنا القدرة على اسقاط « عقدة الاجنبي » وذلك ببلوغنا مداه في الحضارة والمدنية والتقنية « التكنيك » ٠ ومن هنا اصبح في مقدورنا الا ننظر اليه نظرة المغلوب الى الغالب ، لقد توارت هذه النظرة ونشأ في عالمنا العربي اليوم تيار ضخم قوى : اننا أمة لها مقوماتها وفكرها وقيمها أساسا ، وان هذه المقومات قادرة على أن تقوم وتحيا ، وهذا هو سرمفهوم الثورة « التحرر الفكرى من كل سيطرة اجنبية او توجيه اجنبي » ولكنا في نفس الوقت نعيش « بفكر مفتوح لكل التجارب الانسانية » فلا نخشى ان نواجه كل افكار الامم وثقافاتنا فنحن ندرسها وننتفع بكل الخبرات والتجارب العالمية والبشرية والانسانية في مجالات الاقتصاد والاجتماع ، ما دمنا ثابتين على قاعدتنا ٠

( الثالث ) ان فكرنا العربي الاسلامي ليس أساسا فكرا جامدا ولا متخلفا ، ولا متوقفا عند الماضي ، ولا دافعا الى الارتداد ، أو الرفض لمنطق

---

(٢) اقرأ كتابنا ( صفحات من امجادنا ) ، وكتابنا ( أضواء على الفكر العربي الاسلامي ) ٠

الحياة والتطور ، بل هو متبلور حي قادر على الحركة ، مواجه للنهضات والثقافات ، قادر على الانتفاع بكل جديد يأخذ منها ويعطي ، لا يبعدهما عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد ، وفوق ذلك فهو مؤمن بأنه فكر تمتزج فيه الروحية والمادية والعقل والقلب ، والحياة والآخرة ، ايمانه بالله ورسله ورسالاته القدسية لا يتزعزع •

( الرابع ) أن وحدة فكرنا العربي الاسلامي هي مصدر الوحدة العربية أساسا ، واننا في ظل يقظتنا نحس بأن فكرنا العربي قد اخذ طريقه الحق، المتعمق ، الحي ، الذي كان قد عجز عنه في خلال فترة الاحتلال ، ولذلك فهو قادر اليوم على ان يواجه حملات التغريب والشعوبية التي يقودها النفوذ الاستعماري أساسا عن طريق منظمات وصحف مشبوهة تصدر في بعض انحاء العالم العربي ، وتهدف أساسا الى مقاومة الوحدة العربية واليقظة ، والنمو والبناء الذي تقوم به بلادنا من أجل دعم العالم الثالث ، ودعم الامة العربية في مجال الحضارة والعلم والقوة والصناعة والاقتصاد وبناء الاخاء الاسلامي والرابطة الانسانية ولذلك فنحن نرى أساسا ان حركة الشعوبية والتغريب هي بديل النفوذ الاجنبي والاستعمار ونحن نحاربها ونقاوم آراءها على هذا النحو •

( الخامس ) نحن في ظل يقظتنا العربية الواعية العصرية التقدمية ، سنبقى متحررين من كل المذاهب : مذاهب الجمود والتعصب أو مذاهب التحلل والاباحة والالحاد ، وفكرنا هنا هو فكر الامة الوسط ، يأخذ ويعطي على قاعدته الاساسية المستمدة من جوهر الامة العربية في مفاهيمها وتراثها وتاريخها وروحها وثقافتها ، فلن تنحرف مفاهيمنا ، مادامت مستمدة من ميثاقنا ومنهجنا ، فنحن في مرحلة ما بعد الاحتلال في العالم العربي تجعل من تجاربنا ومفاهيمنا ضوءا كاشفا وهاديا للطريق ، مرتبطا بقيمنا أساسا ، لانذهب مذهب الجمود والتعصب ، ولا التحلل والاباحة ، نرى في التغريب والشعوبية بديل النفوذ الاجنبي واداته ، فقد تكشف ان كل حملات التغريب والشعوبية انما تستهدف الوحدة العربية واللغة العربية والتاريخ العربي وتحاول الغض من قدر امة متجددة تنشىء الحياة وتبني في مجال الحضارة والعلم والصناعة ، ومقاومتنا لهذه الحركة التي تلجأ الى اذاعة بعض المذاهب الفكرية الغريبة الجانحة ، انما هو مقاومة اساسا لتيار مشبوه ، ولازلنا نذكر كيف قال اشكول في اسرائيل انهم يحاربون وجود لغة واحدة في الشرق الاوسط هي اللغة العربية أساس الوحدة الفكرية وجوهرها •

وبعد فان فكرنا العربي المعاصر هو امتداد معمق موسع تقدمي لفكرنا العربي الاسلامي على قاعدة الحركة والقدرة على الاخذ والعطاء دون ان ننحاز أو نستورد او نكون تابعين ونحن في طريق البناء ونحاول ان نصحح الاخطاء ونرسم فلسفة تقدمية لفكرنا العربي من خلال يقظتنا الجديدة البناءة •

( السادس ) القومية والديمقراطية والاشتراكية نظرات منبعثة أساسا من فكرنا العربي الاسلامي ، ولها جذور اصيلة في مقومات فكرنا ، ونحن اليوم نعاملها باعتبارها قيما انسانية اساسية للفكر الانساني كله ، وقد كانت واضحة الدلالة في فكرنا ، ومن هنا فنحن لانأخذ مفاهيم الفكر الغربي لها ولا نعتنق تفسيراته ، وانما نحن نستمد مقوماتها من واقعنا وفكرنا وتراثنا اصلا ، وليس لنا ان نشجبها والا كنا متخلفين عن تطور فكرنا اصلا قبل تطور الفكر الانساني الذى استمد مفاهيمه للقومية والديمقراطية والاشتراكية من فكرنا العربي الاسلامي اساسا ثم نماه ، وتطور به مع تطور الزمن والحضارات وجريان النهر البشري الذى لايتوقف عن الحركة والحيوية · ومن ناحية اخرى فان عمق فكرنا ووضوح مقوماته وشمولها يقضي على التعارض الذى يواجهه الفكر الغربي فيما بين هذه المذاهب ·

* * *

هذه بعض المعالم التي تكشف عنها دراسة هذه الفترة ، وهي كما قلت فترة لم تبعد بعد عن نظر الباحث المعاصر حتى تكون الاحكام فيها سديدة ومقررة · وليس عملنا الا القاء الضوء على الواقع ورسم صورة له · ولا شك ان الصورة تعطي فكرةواضحة، قوامها : ان الفكر العربي قد انتقل الى مرحلة جديدة · وان المرحلة السابقة قد اوشكت على ان تنتهي ، وان المرحلة الجديدة واضحة في انها أكثر اتصالا بروح العصر مع الاعتماد على الجذور واكثر تعميقا لهذه الجذور ، واكثر استنارة في فهمها والاخذ منها ،وتعميمها، وأنها تؤمن أساسا بأنها لاتتلقى من الفكر الغربي تلقى التابع او المستورد او غير القادر ، وانما يقودها ايمان بحقها في ان تأخذ الحضارة فقد ساهمت في بنائها اصلا وكان لها دورها ، وهي تفرق بين الحضارة والثقافة ، اما في مجال الفكر فهي تؤمن بأن لها فكرا له طابعه ومعالمه وشخصيته ، وأنها ليست مستعدة للتفريط فيه ، هذا الفكر نفسه وعلى قاعدته نستطيع ان نتقبل بحرية وطلاقة تجارب الفكر الانساني وندرسها ونأخذ منها وندع ، بما يتفق مع مقوماتنا وحاجتنا وظروف الزمان والمكان ·

ولا شك ان الفكر العربي المعاصر في عصر التحرر من الاستعمار والتجمع للوحدة قد بدأ يصحح مفاهيمه ، ويكشف روح التغريب والشعوبية ويشجبهما ، وهو يحاول ان يشق طريقه حثيثا ، بعيدا عن أخطار التعصب والجمود من ناحية والتحلل والالحاد من ناحية أخرى ملتزما بمقومات فكره الاساسية : امتزاج الروح والمادة والعقل والقلب ·

وهو بسبيل التقدم خطوة اخرى ، هذه هي خطوة العطاء وتقديم عصارة فكره للانسانية التي تتطلع الى ضياء جديد ، سيكون مصدره بحق هذا العالم الاوسط المتمثل في الشرق العربي الاسلامي وفكره العربي الاسلامي ، هذا الفكر الانساني الوسط ·

# اراضي الاستعمار والاصلاح الفلاحي (*) في المغرب

محمد أديب السلاوي

مشاكل التخلف ، والاقطاع ، وبقايا الاستعمار ، في الوطن العربي الكبير ، مشاكل جد متشابهة ، لان الاستعمار الذي سيطر على غرب العروبة ، هو نفس الاستعمار الذي جثم على قلب شرق العروبة ، وأساليب الاستعمار هي أساليب موحدة ، أساليب وإن اختلفت في المظهر ، فهي منسجمة في الجوهر كانت ترمي جميعها الى ابادة الوطن العربي ، واغراقه في التخلف والاقطاع والجهالة .

والمشكلة الفلاحية في الوطن العربي الكبير هي من أهم بقايا الاستعمار في هذا الوطن ، وعلاجها جزء من الكفاح ضد الامبريالية والاستعمار ، وجزء من محاربة التخلف في الوطن العربي الكبير ...

واذا كانت بعض أقطار العالم العربي بدأت تجد الحلول لمشكلة الفلاحة ، فان المغرب ما زال يجري وراء البحث عن الحل المناسب لها ...

* * *

يبلغ عدد سكان المغرب اليوم نحو ١٣ مليون نسمة بيد ان هذا العدد يزيد بمعدل ٤٠٠ الف نسمة كل سنة . وتبلغ مساحة اراضي المغرب الزراعية نحو ١٥ مليون هكتار منها :

٠٠٠ر٥٠٠ر٥ هكتار محروثة
٠٠٠ر٢٠٠ر٢ هكتار تترك كل سنة لاسترجاع قوتها الانتاجية
٠٠٠ر٠٠٠ر٦ هكتار(١) مخصصة للرعي

القمح هو المحصول الزراعي الرئيسي للمغرب الذي تشتمل على حقوله نحو ثلث المساحة الكلية للاراضي الزراعية ، وهو المادة التي يصدر فائضها الكبير الى البلدان الاوربية . وتمتد حقول الشعير والذرة والشوفان والدخن في مساحة قدرها ٠٠٠ر٠٠٠ر١ هكتار يصدر فائضها الى اوربا لجـودة

---

(*) المقصود باراضي الاستعمار اراضي المستعمرين الفرنسيين في المغرب والمقصود بالاصلاح الفلاحي : الاصلاح الزراعي . « الاقلام »

أصنافها وأنواعها ..
اما زراعة البقول فتحتل ١٤٠٠٠٠ر هكتار وأهمها العدس والبصلة والحمص والفول والحلبة ويصدر فائض هذه المواد الى اسبانيا والبرتغال وبريطانيا في حين ان زراعة الخضراوات مطـردة الازدهار وأهم أنواعهـا البطاطيس والطماطم والخرشوف . وتحتل زراعة أشجار الموالح والفاكهة ٦٢٠٠٠ر هكتار .

وترتفع بالمغرب أكثر من ٤ر٥٠٠ر٠٠٠ شجرة زيتون يستوعب الاستهلاك المحلي معظم انتاجها بيد ان انتـاج البرتقال المتزايد كل سنة يصـدر الى الخارج حيث اضحى ذا شهرة عالمية في السنوات الاخيرة ..
كما تحتل الغابات رقعـة كبيرة من البلاد تصل نحـو ٣ر٧٠٠ر٠٠٠ هكتار . أهم أشجارها الفرو والصنوبر على ان غابات الارز والسنديان كثيرة في جبال الاطلس المغربي(٢) . ومنتوج هذه الغابات يزيد سنويا حيث ارتفع في السنة الماضية الى ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ متر مكعب من الخشب و١٩٠٠٠ طن من الفلين(٣) .

اذا اضفنا هذه الثروة الى الثروة الحيوانية الاخرى الناتجة عن العمل الزراعي في المغرب وجدنا ذلك هو مصدر الحياة لعدد السكان المتزايد في المغرب بما يقرب من نصف مليون نفر في السنة .
وبهـذا نجد المغرب كسائر البلدان المتخلفة التي ما زالت تخضـع للاستعمار الاقتصادي يعتمد على الفلاحة أساسا حيث يفوق الانتاج الزراعي أي انتاج آخر كما ان سكان البادية يشكلون أكثر من ثمانين في المائة من مجموع سكان البلاد ...

## ١

ومن هنـا تتضح الاهمية الكبرى التي يوليهـا المواطنون للفلاحـة ولتطورها عن طريق اصلاح زراعي متكامل ، ذلك لان الزراعة وتربية المواشي هي أكثر فروع الانتاج الداخلي في المغرب منذ قرون عديدة .
وتبعا لهذه الاهمية خططت مصالح الحماية الفرنسية للمغرب منذ اعلان الحماية سنة ١٩١٢ سياسة التعمير الاجنبي لاستغلال الارض المغربية ، فعملت على جلاء ملايين المواطنين عن أراضيهم الزراعية الى المدن للعيش في بيوت ( القصدير ) حياة بائسة مصدرها الفقر والفاقة والمرض والجهل .

وقد استطاعت هذه السياسة الاستعمارية « الاستيطانية » تحقيـق أهدافها التوسعية في ظرف سنوات جد قليلة . فسلبت فيما لا يزيد على أربعين سنة ١ر٢٠٠ر٠٠٠ هكتار من أجود الاراضي الصالحة للزراعة من الفلاحين المغاربة ، وتمليكها بطرق غير مشروعة لمعمرين فرنسيين ..
وهذه العملية قد ساعدت بصفة مباشرة على تقوية البطالة في البادية ،

وهجرة الفلاحين الى المدن ، الشيء الذي أدى الى فقد التوازن الاقتصادي المطلوب ، والى تقوية الخلل في سلم الانتاج الفلاحي العام بالمغرب .

فعندما احتل الاستعمار الفرنسي المغرب انشأ نظاما يقوم على الاستغلال والعنف ، ومده كبار الاقطاعيين بمساعدتهم مقابل اشتراكهم في الحكم الاستعماري ، وتعزيز سيطرتهم . وعند الحاجة احدث الاستعمار زبناء جددا للتحالف معه ولاستمرار وجوده ولقيام بنيانه الليبرالي ، ذلك البنيان الذي قام على أساس الاستيطان والاستغلال والتحكم في مصائر الطبقة الصغرى والوسطى من الفلاحين المغاربة ..

ومن ثم تأصلت فلاحة المعمرين في المغرب الى ما بعد الاستقلال حيث بقيت نفقات القدر الاكبر من مداخيلهم الصافية خارج البلاد ، لا يستفيد منها الاقتصاد الوطني أي استفادة في حين ان القسم الآخر من الفلاحة الذي ينتعش به السواد الاعظم من الشعب بقي تحت رحمة مخلفات ترجع أصولها الى القرون الوسطى(٤) .

## ٢

وعندما حصل المغرب على استقلاله سنة ١٩٥٥ اضحت مسألة الاصلاح الزراعي تؤلف قضية من أبرز القضايا الاقتصادية في المغرب ، وقد كان وجود بقايا من العلاقات القائمة اسسها على الملكية الخاصة لزمرة من الملاكين ، وكذا الاراضي المحتلة من طرف المعمرين الفرنسيين ، والتوزيع غير العادل للزراعة هي التي عرقلت مستوى رفع الانتاج من جهة ، وهي التي دفعت الى البحث عن حلول منطقية لاصلاح زراعي منذ البداية من جهة ثانية .

فقضية الاصلاح الزراعي قد طرحت نفسها منذ بداية الاستقلال على مختلف الهيئات السياسية والحكومية في المغرب ، واحتلت المكانة الالى من تفكير المسؤولين المغاربة في الحكم والمعارضة معا .

وبنظرة سريعة على كيفية توزيع الاراضي في المغرب الذي يبلغ عدد سكانه ما ينيف على ١٣ مليون نسمة يتضح ان قضية الاصلاح الزراعي واسترجاع أراضي المعمرين والتفكير فيهما بالحلول المنطقية شيئا تفرضه الضرورة الاقتصادية لحياة هذا العدد الهائل من السكان الفقراء .

١ ــ أراضي الجماعات ٦ مليون هكتار .

٢ ــ أراضي الاجانب وأراضي المعمرين ٠٠٠ر٢٠٠ر١ هكتار .

٣ ــ الاراضي التي يملكها الخواص ٧ مليون هكتار .

٤ ــ أراضي الدولة نحو ٤٠٠ الف هكتار .

٥ ــ أراضي الاحباس نحو ١٠٠ الف هكتار(*) .

٦ ــ ما يزيد على ٧٠٠ ألف عائلة تملك مليون هكتار .

---

(*) المقصود باراضي الاحباس اراضي الوقف .

اما انتاج هذه الاراضي فيوزع حسب الانتاج على الشكل التالي :

١ ـ الاراضي المزروعة بالحبوب ٦ مليون هكتار ٠

٢ ـ الاراضي المنتجة للفواكه ٥٠٠ الف هكتار ٠

٣ ـ الاراضي المخصصة للمراعي والاستثمار ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ هكتار ٠

٤ ـ بالاضافة الى سبع مليون من اراضي الغابات التي تملكها الدولة والمنجة للخشب ٠

ومن هنا يتضح ان اقتصاد المغرب الذي أساسه الفلاحة ما زال قائما على أساس التبعية المطلقة للعالم الامبريالي ٠ وعلى أساس العلاقات الشبه اقطاعية ، كما يتضح ان توزيع الاراضي على هذه لا يمكن بحال ان يعطي نتيجة مرضية ٠ أو يساعد على بناء نظام ديموقراطي عادل لانه يقوم أساسا على اقطاعية متكاملة ٠٠

فالجماهير المغربية التي حرمها المستعمر الفرنسي بالامس من أرضها ، ورمى بها الى ( مدن القصدير ) والى الفاقة والجوع والمرض والجحيم ، والتي حرمها النظام الشبه اقطاعي الذي كان قائما قبل الحماية الفرنسية من العيش الكريم ، ما زالت مجبرة تحت خوف الجوع ، وتحت وطأة اللامبالاة على ان تلقي بنفسها في عبودية الرأسمالية والعمل لصالحها ٠٠٠

فالمالكون لوسائل الانتاج الزراعي في المغرب ، من برجوازيين مغاربة ، واقطاعيين أجانب لا يكفيهم استغلال قوة الفلاحين وخيرات الارض المغربية ٠ بل يتصرفون تصرف الاسياد في مصائرهم الى حد الانقراض ، الشيء الذي وضح طبيعة النظام الاجتماعي في المغرب توضيحا عاريا ذلك النظام الذي ينقسم الناس فيه الى أحرار واتباع ، حاكمين ومحكومين ، آلهة وعباد ٠

فالمرافق الفلاحية في المغرب ، هي الآن مرافق رأسمالية تكاد تكون جميعها من صنع الرأسمالية الفرنسية ، فبعد عشر سنوات من الاستقلال السياسي للمغرب ما زال ما يقرب من أربعة أخماس هذه المرافق في أيدي المعمرين الفرنسيين ٠٠

ففلاحة المعمرين تأصلت في المغرب كما اشرنا سالفا بفضل الدولة الاستعمارية التي ساندت عملية غصب الاراضي المغربية بكيفية مطلقة ، في حين ان باقي الاراضي الصالحة للفلاحة بقيت في أيدي القلة الاقطاعيـــة والرأسمالية من المغاربة الشيء الذي أدى الى وضع العدد الكبير من الفلاحين في حالة ارتباط دائم ازاء المعمرين الاجانب من جهة ، وازاء الاقطاعيين المغاربة من جهة ثانية ٠

وبالنظر الى النسبة المئوية لهذا التوزيع يتضح لنا الخطر الذي يهدد الطبقات الاجتماعية في البادية المغربية ٠٠

| | |
|---|---|
| ٠٥٪ | من المعمرين والاقطاعيين وكبار الملاكين العقاريين والطبقة العليا يملكون ما يزيد على ٦٠ في المائة من الاراضي ٠ |

| | |
|---|---|
| ٪٤٠ | الطبقة السفلى من المزارعين الاغنياء والمزارعون المتوسطون وصغار الملاكين الفقراء ويملكون أقل من ٣٥ في المائة من الاراضي • |
| ٪٥٥ | من الفلاحين المحرومين من الارض لا يملكون حتى حياتهم أو قوت عيشهم • |

حيث ان المزارعين المتوسطين والفقراء ، صغار الملاكين والمحرومين يشكلون ٩٠ في المائة من مجموع المزارعين الذين يتهددهم كل يوم خطر الاقطاع والرأسمالية الزراعية في المغرب •

وشيء أخطر من هذا هو ان طاقة العمل التي يمثلها القطاع الزراعي لا تستعمل الا بصورة ضعيفة ، فالفلاحون المغاربة يعملون أثناء مائة يوم في السنة فقط بأجور جد هزيلة ، أو بأرباح لا قيمة لها أمام الاعمال التي يؤدونها للمستثمر في حين يمكنهم القيـام بعمل منتج أثنـاء ٢٥٠ يوم في السنة(٥) الشيء الذي ساعد من جهته على الاسهام في تكاثر البطالة وعلى تشريد آلاف المواطنين من الفلاحين المغاربة •

فقد أدى استبداد الحكام قبل الاستقلال ، واستغلال أراضي المواطنين واقطاعها لخدمة المستعمر وأعوانه في فترة الحماية الفرنسية الى حرمان الجماهير من وسيلة العيش الاولى وهي الارض كما أدى الى احداث خلل في توازن الانتاج والاستهلاك الفلاحي بالمغرب ، هذا ما يمكن ان تنطق به الارقام الرسمية •

## ٣

فاذا أردنا ان نركز نظرتنـا على التطـور الزراعي في المغرب بعد الاستقلال سيتضح لنا ( بالاضافة الى تكاثر نسبة البطالة بمعدل ٣٠ في المائة على ما كانت عليـه أيام الحماية الفرنسية ) ، الانخفاض الهائل في المستوى الزراعي العام للبلاد ••

فان مقارنة المستوى الزراعي بعدد المنتجين الزراعيين يكشف عن مدى تأخر القطاع الزراعي فعدد المشتغلين بالانتاج الزراعي وهو أكثر من ثماني ملايين نسمة لا تملك من الارض المغربية حتى الثلث في حين ان الباقي يتمتع في أقل من ١٥ في المائة فقط من مجموع المزارعين والمعمرين وهذا معناه ان ما يقرب من تسعين في المائة من الفلاحين محرومون من امتلاك أي قطعة من الارض ومجبورون على العيش في العبودية الرأسمالية ، في الحـرمان من السيادة والكرامة ••

وقـد تكون الطرق العتيدة التي تطبق في أغلبية الاراضي المغربية كنظام الخماس وعقود الارتباط فالملاك ( والخبازة ) هي التي تساعد على

تأخر انتاج القطاع الفلاحي . وهي التي تحول دون انجاز أي تقدم اقتصادي أو تقني في الميدان الزراعي بالمغرب .

فان الاوضاع الاقطاعية التي يعيش في ارتباطها أكثر من ٥٠ في المائة من الفلاحين لا يملكون أي شبر من الاراضي وأكثر من ٩٠ في المائة من مجموع الفلاحين لا يملكون ما يكفي سد حاجاتهم العائلية(٦) الضرورية لا يمكن ان تساعد على التجهيز الذي هو حتمي بالنسبة للتقدم الفلاحي كما لا يمكن ان تساعد على التقدم المنشود ، ذلك لان جميع الملاكين ، الفلاحين الاقطاعيين منهم والنصف اقطاعيين ينقلبون الى استغلاليين راسماليين ، في حين ان طبقة الفلاحين المترفين ( البرجوازيين ) يحلون محل صغار الفلاحين الذين تدفعهم الضرورة الحياتية الى بيع أراضيهم للعيش الشيء الذي يزيد في تأخير وسائل الفلاحة وفي وسائل جمود سلم الانتاج وتقهقره من جهة، والشيء الذي يزيد من خطورة الاصلاح الزراعي في الوقت الراهن من جهة ثانية .

ليس هنالك من شك في ان العلاقات الاقطاعية قد تداعت اسسها منذ امد بعيد ، منذ قبل الحماية الفرنسية ، وقبل الاستقلال ، ولكنها تبلورت بصفة مكشوفة بعد سنة ١٩٥٦ ..

فقد أصبح الآن من الملاحظ ان الاراضي الفلاحية قليلة جدا بالنسبة لعدد السكان ، وهذه قضية خطيرة تضاف الى باقي القضايا ــ الاقطاعية والاجتماعية والاقتصادية ــ في الميدان الفلاحي ..

فهناك ١٥ مليون هكتار فلاحية تقريبا بالمغرب موزعة على هذا الشكل :

- ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ هكتار محروثة .
- ٢٫٢٠٠٫٠٠٠ هكتار تترك كل سنة لاسترجاع قوتها الانتاجية .
- ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ مخصصة للرعي .

بينما تدل احصاءات مماثلة ان مئات الآلاف من الهكتارات الصالحة للفلاحة(٧) متروكة دون ان يستفاد منها وان ملايين من الهكتارات الاخرى يمكن ان تنقلب الى أراضي زراعية أخرى ، بمجرد القيام باصلاحها ، وقد تساعد تلك الاراضي على تخفيف رفع مستوى عيش اسر الفلاحة التي تتلوى جوعا يوما بعد يوم في المغرب .

ويستفاد من تقسيم الاراضي المغربية على هذا الشكل اننا اذا قسمنا كل الاراضي المحروثة منها بالتعادل على عدد العائلات الفلاحية البالغة ١٫٦٥٠٫٠٠٠ عائلة لنال كل اسرة أقل من أربعة هكتارات . وهو عدد لا يمكن بحال ان يكفيها للعيش .. ولا للعمل ..

أضف الى ذلك ان توزيع الاراضي المحروثة أقل ما يقال عنه انه توزيع سيء اقطاعي . فاذا اعتمدنا على احصاء الدولة الرسمي الذي نشر سنة ١٩٦٢ .. وجدنا ان :

١ ـ ٢ر٧٤٪ في المائة من العائلات الفلاحية لا تملك أرضا اطلاقا ٠
٢ ـ ٩٥ر٠٪ أي أقل من واحد في المائة تملك ٢٠ هكتارا فأكثر ، أي انها تملك مساحات من الارض ما يملكه أكثر من ٧٤ في المائة من العائلات الزراعية ٠

وهكذا نجد ان الغالبية الساحقة من الفلاحين في المغرب لا يكاد يصيبهم من الحاصل الا الربع أو أقل منه ٠ وهذه النسبة الضئيلة التي تصيب هؤلاء لا تساوي بطبيعة الحال شيئا بالنظر لما يعانيه الجهاز الزراعي من تقهقر وتأخر ، ان الحصة الضئيلة التي ينالها الفلاح العادي والفلاح العامل من هذا التوزيع لا تسد حتى مصاريفه العائلية ٠ في حين ان جمود الانتاج العام وانخفاضه بالنسبة لكل فرد نتيجة لتزايد السكان يتجلى بصورة واضحة ٠ يوما عن يوم ، فالمغرب الذي كان يصدر الحبوب واللحوم والزيوت أصبح من المستوردين لهذه المواد ، وقد نتج عن هذه الوضعية السيئة ان هاجر العديد من العائلات الى المدن بحثا عن عمل ، الشيء الذي ساعد على تضخم جيش الفقراء في الحواضر ٠ لقد أصبحت الدار البيضاء وحدها وهي المدينة الصناعية الوحيدة بالمغرب تضم عشرات الآلاف من الاطفال المتشردين ، ومن الاباء المتسولين ومن المومسات اللواتي احترفن البغاء لكسب عيشهن وعيش أولادهن(٨) ٠

واننا لا نحتاج توضيح الاضرار التي تنال منها الامة بسبب تزايد عدد المومسات ، والفقراء والاطفال المتشردين ، فان الامراض الاجتماعية التي يتركها وضع كهذا خطيرة جدا ٠ ولا يمكن استئصالها الا عن طريق اصلاح زراعي ، وارجاع أهل البادية الى أراضيهم للعمل والتعليم فيها ٠

ان بقايا النظام الاقطاعي أو الشبه اقطاعي الذي أرسى جذوره المستعمر الفرنسي بالمغرب يقف الآن عائقا كبيرا في طريق تقدم القوى الزراعية المنتجة وتطورها ، كما يقف عائقا في طريق ضمان العيش والخبز لجماهير الفلاحين الذين وجدوا انفسهم مجبورين على العبودية والبطالة ، بل انها تقف كذلك كسد منيع في وجه تدفق رؤوس الاموال الى البوادي ، وتقضى على امكانية تغيير الادوات والمعدات المستعملة في الزراعة والتي يرجع اصل البعض منها الى قرون عديدة ، وفي هذه الاحوال التي تتمكن فيها هذه العوائق الكثيرة تتحول الروابط المالية بين المزارع والملاك من جهة وبين المنتج والدولة من جهة أخرى الى علاقات ربوية تمتص فيها الرأسمالية الاستعمارية دماء المنتجين ، والعمال في آن واحد في حين ان الخاسر يكون هو الشعب دائما ٠

ويتخذ هذا النوع من الاستعمار اهمية زائدة اذا اعتبرناه بالنسبة الى مجموع الانتاج الزراعي في المغرب ، وخاصة فيما يرجع الى المواد الاساسية الزراعية ـ القمح والنباتات الصناعية والحوامض ومختلف الفواكه وتربية المواشي وغير ذلك ، اما اذا اعتبرنا تفوقه المستمر في التجارة الخارجية للمواد الزراعية اذ يراقب أكثر من خمسين في المائة منها(٩) سنرى ان هذا

يعطيه المزيد من القوة ، والمزيد من امكانيات الضغط على السياسة الحكومية الفلاحية ..

## ٤

يظهر من هذه الصورة ان هنالك هوة عميقة تشل جماهير الفلاحين وتؤخر تطوره وتجديد الزراعة في المغرب ، فهناك معمرون ما زالوا يستغلون أكثر من مليون هكتار من أجود الاراضي الزراعية في المغرب ، وهنالك ملكيات زراعية كبرى تسيطر على الانتاج الفلاحي ، وهنالك حرمان ملموس للعمال الزراعيين من الارض ، وهنالك أيضا بطالة متزايدة في القطاع الفلاحي ، وهنالك أخيرا خلل في القوى الانتاجية والاستهلاكية للزراعة بالمغرب ، وهبوط في مستوى الانتاج .

وهكذا نرى ان مجموع الفلاحين الفقراء الذين يشكلون أكثر من تسعين في المائة مهيئون باستمرار للاستغلال الفاحش من طرف قوتي الاستعمار والاقطاع اذ لا قانون يحميهم من الفقر والجوع . في حين ان أغلبية الاراضي المغربية موزعة على قلة من الاقطاعيين والمعمرين الاجانب .

وقد بلغ هذا الاضمحلال مستوى خطيرا في عهد استقلال المغرب ، الذي كان من الضروري ان يضع حدا لحقبة طويلة من التقشف والحرمان ، والكفاح المتواصل من أجل الارض والعيش والكرامة عاشها الفلاح المغربي المسكين .



## ٥

تلك هي وضعية الزراعة في المغرب بكل ثقلها وابعادها .

فما هي الحلول المقترحة لها خاصة وهي تلعب دورا أساسيا في تطور البلاد الاقتصادي ومكلفة بتغذية المغرب، واشغال رجاله وتجهيزه من الناحية الصناعية ؟

ان وضعية الزراعة في المغرب وتفاقم خطورتها بعد الحصول على الاستقلال اجبر الحكومات المتعاقبة وكذا الاحزاب السياسية اليمينية منها واليسارية على الاهتمام بمشاكلها ..

لقد حاولت الحكومة المغربية ابتداء من سنة ١٩٥٧ علاج القضية الفلاحية في المغرب ، باستعمال طرق عصرية في ميدان الاستثمار والانتاج . فعملت على حرث ٥٠٠٫٠٠٠ هكتار من أراضي الفلاحين بواسطة جراراتها الخاصة فحدث بذلك ارتفاع ملموس في انتاج الاراضي التي شملتها هذه العملية بمعدل ٢/٣ قنطار للهكتار الواحد ، ولكن البرنامج الذي حددته الدولة لهذه العملية لم ينجز باكمله ذلك لان المساحات الخاضعة لعملية الحرث التي كانت تقدر ب ١٨٦٫٠٠٠ هكتار لسنة (١٩٥٩ - ١٩٥٨)

انخفضت(١١) الى ١٨٠٫٣٠٠ هكتـــار في سنة (١٩٦٠ – ١٩٥٩) وبذلك فشلت عملية الحرث ، وانتهى العمل بها .

وقد يكون المرجع الوحيد لفشل عملية الحرث هو عدم علاجها العميق للاوضاع الفلاحية في المغرب ذات الصيغة الاستعمارية حيث كان اهتمامها ينحصر في انماء الانتاج الموجود في حين كانت الضرورة تقتضي توزيع أراضي ( الاستعمار ) ، وقيام تعاونيات للانتاج ، واصلاح الاراضي المهملة بالطرق الفنية الحديثة لاستغلالها في التشجير ، والزرع ، والانماء الفلاحي .

وبعد فشل عملية الحرث نتيجة التوجيه السياسي السيء وعدم الاستقرار الحكومي ، جاء التصميم الخماسي الذي كان في الواقع تحليلا علميا مركزا لحالة الفلاحة في المغرب ، والذي اعطى بموضوعية الحل الحقيقي والواقعي لمشاكل الفلاحة ، وهو ضرورة القيام باصلاح زراعي ( اشتراكي ) .

وعلى أثر وضع هذا التصميم ، وجدت في سنتي (١٩٦٠ – ٦١) عدة مكاتب للفلاحة لتكون مفتاح الاصلاح الزراعي ، وهي : مكتب الري ، ومكتب التجديد القروي وصندوق السلف الفلاحي ، ومعهد الابحاث الفلاحية وسلسلة هذه المكاتب تكون حلقة مهمة في قضية الاصلاح الفلاحي الحقيقي الذي يتطلع اليه المغرب ، ولكن ، ومع الاسف ظلت نتائج ما وصلت اليه هذه المكاتب في ميادين الري ، وتكوين الاطر الصالحة للفلاحة ، واحداث نظريات جديدة في التجديد القـروي من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية كلها حبرا على ورق ، وسبب ذلك هو السيطرة المباشرة التي يتمتع بهـا الاجانب على الادارة المغربية بعد الاستقلال(١١) الشيء الذي صرف النظر عن هذا التصميم ، وجعله معطلا ، سلبيا ، فيما بعد ..

وبعد التصميم الخماسي . جاء التصميم الثلاثي ، وهو تصميم غير مبني على أساس لانه يغض الطرف عن المفترضات الاقتصادية والمالية لاصلاح زراعي نافع لقضية الفلاحة في المغرب .

فقد أعطى هذا التصميم – الاسبقية للفلاحة ، واذا كان مبدأ الاسبقية لا يمكن ان يجادل فيه ، فان الظروف الاقتصادية التي يوجد عليها المغرب تحتم ذلك ، ولكن هل ما جاء في التصميم الثلاثي كاف للاصلاح الزراعي في المغرب .

يمكن ان نستخلص من هذا التصميم خطوط الاصلاح التالية :

١ – استثمار الاراضي غير المستحصلة والمتوفرة على الماء لكي يســتخرج منها القدر الكافي من الانتاج .

٢ – متابعة التنقيبات عن المياه في المناطق شبه الصحراوية واســتصلاح التربة وتحديد وسائل الاستغلال في الاراضي الجافة .

٣ ـ وضع سياسة صالحة لتربية المواشي ٠

وقد اهمل هـذا التصميم بعض الخطوط الرئيسية لاصلاح فلاحي نافع بعض الشيء مثل :

١ ـ استرجاع أراضي المعمرين التي هي مظهر من مظاهر السيادة الوطنية ٠

٢ ـ تكوين وحدات نموذجية من أراضي الاستعمار وجميع الاراضي العامة لتطبيق الاصلاح الزراعي ٠

٣ ـ توزيع هـذه الوحـدات على الفلاحين والعمال الذين ليست لديهم أراضي ٠

٤ ـ انشاء تعاونيات فلاحية ٠

٥ ـ تعميم الاصلاح على جميع الاراضي الخاصة ٠

٦ ـ تحديد الملكية ٠

وهذا أقل ما يمكن ان يحويه اصلاح زراعي معتدل ٠

ومن هنا تتضح عدم صلاحية التصميم الثلاثي أو عدم قدرته على حل القضية الفلاحية المغربية ٠٠

ومن هنا يتضح أيضا ان قضية الفلاحة في المغرب ما تزال بعد عشر سنوات من الاستقلال بدون أي حل ايجابي ٠ كما أن أراضي الاستعمار وأحسن أراضي المغرب الفلاحية ما تزال في يد المعمرين الاجانب ، في حين ان ملايين المواطنين يموتون جوعا وبؤسا ، وحرمانا من الارض ٠

فوزارة الفلاحة المغربية تعاقب عليها من سـنة ١٩٥٥ الى سـنة ١٩٦٥ ثمانية من الوزراء تختلف وجهات نظرهم في القضية الفلاحية ، كما تختلف اتجاهاتهم المذهبية ، ومن المؤلم حقا ان نقول ان وزيرا واحدا من هؤلاء لم يستطع ان يخرج بالمغرب من الوضعية الفلاحية المزرية التي تركه عليها المستعمر بعد الاستقلال ٠٠

ويمكن القـول ان اختلاف اتجاهـات الوزراء المتعاقبين على وزارة الفلاحة ، واختلاف نظرتهم الى المشكلة الفلاحية في المغرب تمخض عنه ان صارت السياسة الفلاحية للمغرب مخالفة تماما لمطامح الشعب المغربي ٠٠

فالمغرب لم يحقق بعد عشر سنوات من الاستقلال أي تقدم في الانتاج ، في حين ان عدد سكان المغرب يزيد بمعدل ٤٠٠٫٠٠٠ نسمة في السنة أي ما يقرب من ٤ ملايين شخص في عشر سنوات ، وهذا يعني التأخر المستمر للانتاج الفلاحي الى الوراء ٠٠

ولنأخذ نظرة كاملة عن عملية تأخر الانتاج الفلاحي وجموده في المغرب في التسع سنوات الاخيرة يمكننا الاصطلاح على هذا الجدول المفصل من سنة ١٩٥٥ الى ١٩٦٤ ٠٠

| الانتاج | لسنة ١٩٥٥ | لسنة ١٩٥٦ | لسنة ١٩٥٧ | لسنة ١٩٥٨ | لسنة ١٩٥٩ |
|---|---|---|---|---|---|
| الفحم الصلب | ٥٩٥٣ | ٧٠٢٠ | ٥٠٥٨ | ٩٦٧٦ | ٧١٧٩ |
| الفحم الطري | ٣٦٨٥ | ٣٥١٥ | ١٦٢٧ | ٣١٥٨ | ٢٣٦٢ |
| الشعير | ١٣٦٨٣ | ١٦٣٣٤ | ٦٥١٥ | ١٥٩١٢ | ١١١٤٦ |
| الذرة | ٢٩٢٩ | ٢٨٠١ | ٢١٥٧ | ٣١٨٣ | ٣٩٩٧ |
| مجموع الحبوب | ٢٧١٤٩ | ٣٠٤٦١ | ١٦٣٠٨ | ٤٤٨١ | ٤١٩٢ |

| لسنة ١٩٦٠ | لسنة ١٩٦١ | لسنة ١٩٦٢ | لسنة ١٩٦٣ | لسنة ١٩٦٤ | الميزان |
|---|---|---|---|---|---|
| ٨٧٨ | ٤٤٥٧ | ٩٢٤٠ | ٨٣٠٥ | ٨٨٩٤ | آلاف القناطر |
| ٢٣٦٦ | ١٦١٨ | ٣٢٢٧ | ٣٠٥٠ | ٣٠٦٤ | آلاف القناطر |
| ١٢٦٩٥ | ٤٧٥٦ | ١١٨٥٠ | ١٤٦٣٠ | ١١٦٨٤ | آلاف القناطر |
| ٣٣٤١ | ١٠٦٦ | ٣٤٧٣ | ٣٩٦٧ | ٣١٩٧ | آلاف القناطر |
| ٤٢٠٣ | ٣٥٣٠ | ٣٦٢١ | ٤٢٧٩ | ٣٨٧٧ | آلاف القناطر |



وهذا ، ما زاد في حماس الاحزاب والهيئات الوطنية للمطالبة بالاصلاح الزراعي في السنتين الاخيرتين للقضاء على الاستعمار الزراعي وتحديد مبدأ العدالة الاجتماعية في المغرب الذي بدأ تدهور حالته الاقتصادية بهذا الانفجار الشعبي يوما بعد يوم •

## ٦

فما هي المشروعات التي تقدمت لحد الآن من لدن الاحزاب والهيئات الوطنية السياسية والنقابية للاصلاح الزراعي في المغرب ؟ •••

وما هي نقط التلاقي في هذه المشروعات •• ؟ ثم ما هو موقف الدولة منها •• ؟

نبدأ بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية الذي يعتبر الهيئة المتطرفة في أقصى اليسار بالمغرب والذي يقف منذ عدة سنوات في قيادة المعارضة بهذا القطر •

**يعتمد مشروعه على :**

١ ــ استرجاع أراضي الاستعمار والمعمرين •

٢ ــ تأمين كل الاراضي الفلاحية •

٤ ـ اقامة تعاونيات فلاحية لحماية مستوى الانتاج يتعرف عليها الفلاحون انفسهم ، والغاء جميع العقود الفلاحية ٠

٥ ـ الاحتفاظ بأراضي الجماعات للمراعي ٠

اما رأي حزب الاستقلال ، هو اعتد حزب وطني يقف بين اليسار المتطرف وبين اليمين المعتدل فيرى في مشروعه للاصلاح الزراعي :

١ ـ استرجاع أراضي الاستعمار والمعمرين ٠

٢ ـ تحديد الملكية ٠

٣ ـ توزيع الاراضي المسترجعة على صغار الفلاحين والشغالين في حين ان الدولة تعوض لكل مواطن تنتزع منه أرضه في تحديد الملكية أو غيرها ٠

٤ ـ قيام تعاونيات للانتاج تحت رعاية الدولة وتوجيهها ٠

اما الاتحاد المغربي للفلاحة وهو هيأة نقابية فيرى :

١ ـ استرجاع كل الاراضي لفائدة الدولة ٠

٢ ـ تحديد الملكية الفردية طبقا للنواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية ٠

٣ ـ توزيع الاراضي المسترجعة على صغار الفلاحين المحرومين من الارض ٠

٤ ـ قيام هيأة فلاحية للاشراف على التوزيع والاصلاح الفلاحي ، وانماء الانتاج الزراعي تحت الرعاية المشتركة للدولة والهيئات النقابية والسياسية للبلاد ٠



وأخيرا رأي الشبيبة الديمقراطية(١٢) التي ترى في اسس الاصلاح الزراعي :

١ ـ استرجاع كل الاراضي أيا كان مصدرها ٠

٢ ـ تحديد الملكية على أساس الواقع الاجتماعي للمغرب ٠

٣ ـ ضم جميع الاراضي المسترجعة للدولة ٠

٩ ـ انشاء تعاونيات لانماء الانتاج ٠

٥ ـ بعث التفكير الفلاحي ٠

ان نقط الالتقاء في هذه المشروعات كبيرة :

١ ـ استرجاع الاراضي ، التي هي مظهر من مظاهر السيادة الوطنية والتي بها سيكتمل كيان الاستقلال الاقتصادي للبلاد ٠

٢ ـ تحديد الملكية التي باستطاعتها تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية وضمان العيش لمئات الآلاف من العاطلين ، بل وأيضا لاجماع علماء الاقتصاد على ان التنمية الاجتماعية والاقتصادية في الدول المتخلفة على الخصوص تستلزم هذا التحديد للملكية ٠

٣ ـ قيام تعاونيات لانماء الانتاج وهذه نقطة حساسة في الانماء الاقتصادي ، فاذا اضفناها الى تحديد الملكية وجدنا ان كل هذه الاقتراحات أو المشروعات قد استفادت من الخطوات التي قطعتها الدول النامية في الاصلاح الزراعي •

فعلماء الاقتصاد(١٣) يؤكدون بان جميع الدول التي سارت في طريق الاصلاح الزراعي جعلت من تحديد الملكية وكذلك قيام تعاونيات للانتاج وسيلة فعالة لمقاومة التخلف فهما يشجعان العمل للفلاحين ويقضيان في نفس الوقت على البطالة ومتى تحددت الملكية على اساس طبيعة المجتمع حالته الاقتصادية ارتفع الانتاج وارتفع معه الدخل الفردي وتحسن مستوى المعيشة وتطور الانتاج الصناعي •

اما اذا أردنا أن نعرف آراء الطبقات الاجتماعية في المغرب باعتبار ان مجتمع المغرب ( هو مجتمع طبقي ) في الاصلاح الزراعي فسنجد ان طبقة الاقطاع والرأسمالية والمعمرين التي تحتكر الانتاج والتسويق لصالحها غير موافقة بالطبع على أي اصلاح زراعي يمس مصالحها المادية أو يقلل من نشاطها الاقطاعي في مجال الفلاحة المغربية في حين ان طبقة الملاكين العقارين الكبار بدأوا يشعرون تحت ضغط النضال الشعبي المستمر بضرورة التضحية ببعض مصالحهم وذلك باعادة النظر في الاراضي الجماعية ويبذلون أقصى جهودهم في تأجيل النظر في استرجاع أراضي المعمرين لكي يتمكنوا في ظل حماية القانون الحالي ) من شرائها وامتلاكها لتوسيع قاعدتهم الاقتصادية ونفوذهم الاجتماعي ، والبرجوازية الوطنية تشاطرهم هذا الرأي حين تحبذ استرجاع أراضي المعمرين ، ووضعها تحت تصرف مقاولين مغاربة ، ونظرة البورجوازية هذه تعمل لمبدأ التطور الرأسمالي للبلاد ، ولمبدأ حماية نفسها من خطر الاشتراكية الاقتصادية •



اما الطبقة الوسطى ، وطبقة المزارعين والعمال ( الخماسة والخبازة والمياومين ، والعاملين ) لا ينظرون في الاصلاح الزراعي الا التوزيع العادل للاراضي المغربية جميعها ، وقيام تعاونيات للانتاج ، وهذا نجده واضحا مجسما في مطالبهم المستمرة وفي تقارير هيآتهم النقابية التي ترفع الى المسؤولين في كل مناسبة ••

وقد كان ايمان الطبقتين الوسطى والسفلى من الفلاحين التي تشكل أكثر من ٨٥ في المائة من مجموع السكان بمبدأ التوزيع العادل للاصلاح الزراعي هو الدافع الاساسي الذي حرك الاحزاب الوطنية الى التسابق في مجلس النواب سنة ١٩٦٤ لتقديم مشاريع واسعة وعميقة لاصلاح جذري للقضية الفلاحية بالمغرب •

## ٧

وهكذا فنقطة البدء بالنسبة للمعارضة في مجلس النواب والمستشارين بالمغرب كانت هي وضع اساس النظام الراسمالي في قفص الاتهام ، فحينما اقفلت أول دورة برلمانية بمرسوم الانتهاء من مناقشة الميزانية مباشرة طالب فريق حزب الاستقلال بتعضيد فريق الاتحاد الوطني للقوات الشعبيـة في البرلمان بمقتضى الفصل ٤٠ من الدستور بعقد دورة استثنائية لمناقشة أول مشروع قانـون لاسترجاع اراضي المعمرين التي هي اللبنـة الاولى لاصلاح زراعي في مستوى الديمقراطية التي يبتغيها الشعب المغربي .

وقد عقدت هذه الدورة ، ولكن الاغلبية اليمينية ( الرجعيـة ) في البرلمان اخرجت بالمناقشة الى عدم مشروعية عقد الدورة وبتدخل من رئيس الدولة تمكن البرلمان من متابعة مناقشته لقانون استرجاع الاراضي .

فما هو أبرز مشروع تقدم في هذه الدورة ؟

بدون أي اعتبار سياسي ، فان المشروع الذي تقدم به الاتحاد الوطني للقوات الشعبية أحسن وأوفى مشروع تقدم للبرلمان المغربي والجماهير المغربية . لما يتضمنه من دراسة عميقة للقضية الفلاحية ، ومـن حلول جذرية للاصلاح الزراعي .

واذا كانت نظرتي لمشروع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية هي هذه بتجرد عن أي ميل سياسي ، فان طبقة المثقفين في المغرب قد أولت هـذا المشروع اهتماما كبيرا ، وقدمت للجماهير الفلاحية شروحا طويلة وعميقة لفصوله ، ومعانيه ، في حين ان مشروع حزب الاستقلال ، وكذا المشاريع الاخرى المنبثقة عن الهيئات النقابية والسياسية لا يمكن لاحد ان ينقص من أهميتها الا انها جاءت ملتصقة بالصراع الحزبي الذي يضيع فيه المغرب منذ عشر سنوات .

اما مشروع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية(١٤) فنلخصه في النقـط التالية :

الملكية :

١ ـ ان تحال الى الدولة المغربية جميع أراضي الاستعمار الرسمية منها والخاصة مهما كـان موقعهـا الجغرافي بـدون اي تعويض ويشمل استرجاع الاراضي هذه جميع الممتلكات المغصوبة من اهلها .

٢ ـ ان تكون ملكية الاراضي المحروثة او القابلة للحرث للمواطنين المغاربة وحدهم ، وان تحال الى الدولة جميع الاراضي المحروثة او القابلة الى الحرث التي يملكها الاشخاص الطبيعيون والاعتباريون ، أو الذيـن لا يتمتعون بالجنسية المغربية .

٣ ـ وان نحدد ملكية الاراضي الزراعية والقابلة للزراعة باربعين

هكتار في الاراضي التي تعتمد على الري ، ومائتي هكتار في الارض التي لا تعتمد على الري ، ولا يمكن لاي شخص ان تتجاوز ملكيته للارض هـذا الحد ..

٤ ـ تحال الى الدولة ملكية جميع المساحات من الارض التي تتجاوز الحدود المنصوص عليها وكذلك المواشي والالات والاجهزة الفلاحية .

**ب ـ فائض القيمة**

١ ـ كل مالك لمساحة من الارض قابلة للزراعة تتجاوز خمس عشرة هكتارا مدين للدولة بمبلغ يساوي جزءا من القيمة الاضافية المحصل عليها.

٢ ـ في استطاعة كل مالك أن يتحرر من هذا الدين بتنازله عن جزء من الارض القابلة للري للدولة ..

**ج ـ الاراضي المسترجعة**

١ ـ توزع الاراضي مجانا على الفلاحين مع تخويلهم حق الملكية الكاملة في سنة حصولهم عليها باعتبار ان يكونوا مغاربة وراشدين وان تكون مهنتهم هي الفلاحة ، وان لا يكونوا مالكين لارض فلاحية او ذات قابلية للفلاحة تعادل او تتجاوز مساحتها هكتارين من الاراضي المسقية او ما يعادلها في الاراضي البور.

٢ ـ وتخول الاسبقية في هذا التوزيع لمن يزاول فعليا مهنة الفلاحة في الاراضي المسترجعة او كمستأجر او شريك او شريك بالمزارعة ثم لمن يشتغل فيها كعامل فلاحي ، وفي حالة تساوي الوضعيات الشخصية تخول الاسبقية في كل صنف لذوي العائلات الكبيرة ..

**د ـ أراضي الاحباس والجيش واملاك الدولة واراضي الجماعات :**

١ ـ ان اراضي الاحباس والجيش واملاك الدولة « المخزنية » وذات القابلية الفلاحية توزع مجانا او بالتمليك الكامل حسب الشروط المقررة .

٢ ـ ان ملكية الاراضي الجماعية وفي ضمنها الاراضي المسترجعة تحول الى الاعضاء الراشدين في الجماعة بشرط ان لا يكونوا مالكين لارض تتجاوز مساحتها المقادير المحددة في هذا المشروع ..

٣ ـ وان الاراضي الصالحة للمرعى تظل خاضعة لنظامها الحالي وتستمر فائدتها لجموع اعضاء الجماعة بدون تمييز ..

٤ ـ وهذه الاراضي الموزعة لا يجوز تفويتها بين الاحياء الا بموافقة الهيئة العليا للاصلاح الزراعي(١٥) .

٥ ـ يسمح للمستفيدين من هذا التوزيع ان يؤسسوا شركات تعاونية للانماء الفلاحي .

### هـ ـ الانجازات الفلاحية

١ ـ ان الاراضي الفلاحية لا يمكن ان تستغل الا من طرف مالكها وان لم يكن فمن طرف العمال الزراعيين .

٢ ـ ان الايجارات مسموح بها ، ولا يمكن لمبلغ الايجار ان يتعدى الحد الاقصى الذي ستحدده لجان الاصلاح الزراعي الاقليمية التي تكون تابعه للهيئة العليا للاصلاح الزراعي ..

٣ ـ يشكل في كل اقليم مجلس اقليمي للسهر على تطبيق قانون الاصلاح الزراعي ..

ذلك هو الملخص الوافي لمشروع الاصلاح الزراعي الذى تقدم به فريق الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الى مجلس النواب المغربي .

بقي ان نسأل ما هو موقف الدولة من هذا المشروع ، ومن غيره ؟

اما الاغلبية البرلمانية « المزيفة » التي هي اغلبية وضعتها السلطة الحاكمة وضعا في البرلمان فكانت تقف باستمرار في حالة رفض لكل مشروع تقدمت به المعارضة . وبطبيعة الحال فان مناقشات البرلمان الكثيرة لموضوع القضية الفلاحية لم تخرج بنتيجة ، وفي الوقت الذي وقفت فيه الجماهير الشعبية مطالبة البرلمان البت في مشروع الاصلاح الزراعي ، أوقف البرلمان وأعلنت حالة الاستثناء .. ومن ثم فالحكومة لم تلتفت الى هذه القضية بدعوى عدم مشروعية المشاريع المقترحة ، بيد ان آخر تطورات القضية الفلاحية على المستوى الحكومي الرسمي تؤكد ان البنك الدولي قد قدم قرضا الى المغرب يبلغ ٧٥ مليونا من الدولارات(٢٦) كمساهمة في برنامج القروض الفلاحية ..

وتقول المصادر الحكومية الرسمية ان برنامج القروض هذا يرمي الى ادخال التطور الضروري على الاساليب الفلاحية وذلك بتزويدها بالالات العصرية التي أصبحت تشكل العمود الفقري للاصلاح الزراعي .

ومن وجهة نظر الحكومة هذه ، نفهم ان الاصلاح الزراعي في نظرها لا يعني الا تطوير وسائل الانتاج دون التفكير في استرجاع اراضي الاستعمار ، ودون التفكير في التوزيع العادل . واستئصال الداء الزراعي الذي يعاني منه الفلاح في المغرب طوال السنوات الستين الاخيرة .

ان هذا القرض الضخم في الحقيقة سيمنح امكانيات جديدة لصندوق السلف الفلاحي للقيام بمهمته على الرغم من ان القرض سيعفى الدولة من التزاماتها نحو هذا الصندوق الذى انشىء للاستثمار والانتاج ..

وكان من الضروري ان يكون هذا القرض الضخم لفائدة اصلاح فلاحي جذري ، خاصة وانه هو القرض الذي تفاوض من اجله المغرب ازيد من أربع سنوات لغاية واحدة هي تحقيق الاصلاح الزراعي .

ومن هنا يتبين لنا ان الحكومة لم تفكر لحد الآن في القضية الفلاحية

ككل ، وانما تفكر فيها كجزء .. في حين ان المشكل الفلاحي يجب ان ينظر اليه ككل ، كقضية فارضة نفسها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب تهدد كل وقت وحين ، بالاستفحال والاستعصاء ..

ويجب ان ينظر اليها وفق تصميم يدرس كل المشاكل الفلاحية ويجسمها . ويحدد الاهداف التي يرمي اليها الاصلاح الفلاحي ويقرر طرق تحقيق هذه الاهداف .

وهذا التصميم هو الذي لا تتوفر عليه في الوقت الراهن الحكومة المغربية . لماذا ؟ هذا هو السؤال ؟

## ٨

والسؤال العريض الذي يفرض نفسه بعد اعلان حالة الاستثناء ، وتعطيل البرلمان ، والعودة بالمغرب الى الحكم الفردي . هو لماذا لم تستفد الدولة من المشاريع المقترحة من طرف الهيئات السياسية والنقابية الوطنية في الاصلاح الزراعي ؟

لماذا لم تخط الدولة خطوة الى الامام لتعزيز نفوذها وتقضي على القلق السياسي الذي يسيطر على هذا القطر منذ اعلان حالة الاستثناء ؟ .

مما لا شك فيه ان جميع مقترحات المعارضة المغربية في الاصلاح الزراعي قد أثارت اهتماما بالغا في جميع الاوساط ولدى الرأي العام الوطني ..

لقد جاءت الاقتراحات كلها وفي مقدمتها مشروع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية . كأنشاة فعالة واعية الى المشكل الفلاحي . ولتضع المسألة الفلاحية في اطارها الحقيقي فكل المقترحات وضعت ثروة البلاد بين يدي اصحابها الفلاحين . والقضاء على النفوذ الاجنبي والاستغلال الاقطاعي لينمحي الظلم الاجتماعي من آفاق البادية المغربية الرازحة تحت عبء الاقطاع والاحتكار منذ عشرات السنين ؟.

فاسترجاع اراضي المعمرين . والاستعمار لا يحتاج الا الى الايمان الراسخ . والوعي الكامل بان أراضي المعمرين وأراضي الخونة وأراضي الاقطاعية هي أراضي الشعب المغصوبة وأن أراضي الاحباس وأراضي الجيش . وأراضي الجماعات هي اراضي الشعب الموقوفة .

ومن الايمان بالقضية يصبح توزيع هذه الكمية الكبرى من الاراضي على المحرومين والمتعطشين الى الارض شيئا مشروعا ومنطقيا . ويشكل نقطة الانطلاق في الاصلاح الزراعي ، والحكومة المغربية عندما ترفض كل هذه الاقتراحات وعندما تواجهها بالتحدي . فانما تكون قد رفضت مطالب الشعب وحقوقه في العيش والكرامة والحياة .. وتكون قد حكمت على المغرب بالغرق في الرأسمالية العفنة .. والموت بين احضان الاقطاع الخبيث

سؤال آخر ..؟

ماذا سيستفيد المغرب من الاصلاح الزراعي ..

نترك كل الاجوبة الفلسفية ، ونترك معها التحليق في آفاق المغرب الفقير الغني . الكبير الصغير . ونتجه الى حقيقة نعانيها وهي البطالة . والبؤس . والحرمان . والفقر .

الاصلاح الزراعي هو الوحيد الذي سهر على تخطية اناس لا يعرفون الخيانة . وهو الذي في استطاعته ان ينقذ بلد المغرب من مليونين من البطالة في البادية لا ترى الخبز الا في الخيال .. وان ينقذ المغرب من جيل من الصعاليك جيل لا يسمع بالسعادة ولا يراها . وهو الذي باستطاعته ان ينقذ المغرب من عشرات الآلاف من النساء المحرومات من الخبز والكرامة واللواتي يدفعهن الجوع لاحتراف اللصوصية وبيع الجنس ، ويدفعهن لبيع أنفسهن للاقطاع والرأسمالية والحقارة . من أجل البطن .. ومن أجل الخبز .

والاصلاح الزراعي هو الوحيد الذي باستطاعته أن يحدث نوعا من التوازن بين طبقاتنا المتباعدة المتنافرة وبالتالي هو الذي باستطاعته أبادة حرب الطبقات وحرب المجتمع .

والاصلاح الزراعي هو الكفيل برفع مستوى الانتاج الفلاحي الى الآفاق التي تتسع لها الثلاثة عشرة مليونا من المواطنين المغاربة الذين يبحثون دوما عن الخبز والسيادة .. وعن طريق رفع مستوى الانتاج الزراعي ستزدهر بطبيعة الحال المجالات الصناعية والتصنيعية التي يواكبها المغرب بعد الاستقلال ..

سؤال أخير ..

اذا لم يطبق الاصلاح الزراعي الثوري الذي شاركت في تخطيطه كل القوات والاتجاهات والطبقات الشعبية ترى كيف سيكون انفجار الجماهير المغربية .. وكيف سيكون رد فعلها ؟..

هذا ما لا أستطيع الجواب عنه في الوقت الحاضر .

---

(١) الهكتار يعادل فدانين ونصف والفدان (٤٢٠٠م٢)

(٢) راجع الجغرافية الاقتصادية العربية ط. ـ مصر .

(٣) راجع جريدة الانباء المغربية ٩ يوليو ١٩٦٥ ص ٣ .

(٤) المبادىء عدد ٢ اكتوبر ١٩٦٠ ص ٢٤ .

(٥) تحرير الانماء الاقتصادي ـ المبادىء العدد الثاني اكتوبر ١٩٦٠ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) الايمان عدد يوليو ١٩٦٥ ص ١٣٨ .

(٨) في احصاء شبه رسمي ان الدار البيضاء تضم ١٨٠٠ مومس والرباط ٧٦٠ وفاس ٦٠٠ ، وكلهن من البدويات المهاجرات في المدن .

(٩) نضال الفلاحين للاستاذ عبدالسلام بورقيبة ص ١٤ مطبعة جريدة المكافح لسنة ١٩٦٠ .

(١٠) المصدر السابق ص ٢١ ٠

(١١) جريدة العلم ١٨ نوفمبر ١٩٦٥ ص ٤ ٠

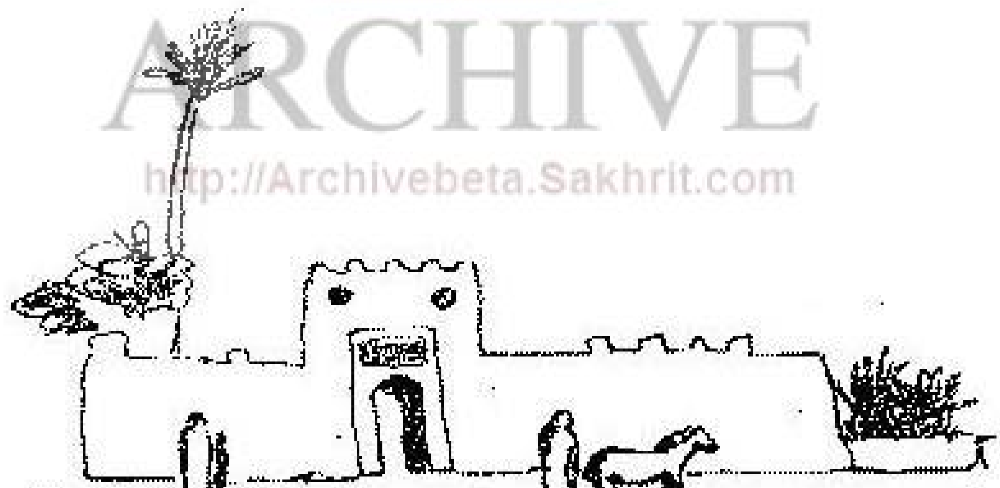
(١٢) هيأة منبثقة عن حزب الشورى والاستقلال ، ( حزب محافظ ) قليل النشاط في عهد الاستقلال بمؤتمرها المنعقد بالدار البيضاء من ٢٥ الى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٤ ٠

(١٣) مجلة الايمان العدد التاسع السنة الثانية ص ١٣٩ ٠

(١٤) تقدم فريق الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في مجلس النواب بهذا المشروع يوم ١٤ سبتمبر ١٩٦٤ ، وقد قدمه بناء على الظهير الملكي رقم ١-٦-٦٤٢ بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٦٠ الذي أقر تصميم التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبصفة خاصة الاحكام المتعلقة بالاصلاح الزراعي من هذا الظهير ٠

(١٥) اقترح هذا المشروع تأسيس هيئة عليا للاصلاح الزراعي ، تكون منبثقة عن رجال الفلاحة ومتمتعة بالشخصية الاعتبارية ، وبالاستقلال المالي ، ومتكونة من الوزراء ، واعضاء البرلمان ، ورجال الفلاحة المختصين ، للسهر على تنفيذ قانون الاصلاح الفلاحي ، وقد اقترح هذا المشروع تأسيس صندوق التضامن الزراعي ٠

(١٦) جريدة الانباء الحكومية ٦ نوفمبر ١٩٦٥ عدد ٧٧٩ ص ٦ ٠



# سراب

**حارث الراوي**

لم أجن من أدبي وفني    الا سرابا ليس يغنني
اني زرعت وما حصدت    من المروج سوى التمني
حسنا ولكن هل الام    اذا أنا طلقت فني !
وطويت أوراقي التي    أودعتها ماسح جفني
ومنحتها من ذوب أعـ    ـصابي وعاطفتي وذهني
وأرحت كل الحاسدين    من الذي يشقي ويضني

★ ★ ★

اني عشقت وما فعلت    سوى الوفاء بغير من
أهوت تقبل راحتي    فانعشت لي حسن ظني
قد عاهدتني أن تكون    سعادتي ، قد عاهدتني
أبكي فتبكي ان بكيت    لحزنها صنو لحزني
حتى اذا دار الزمان    تنكرت لي وازدرتني !

★ ★ ★

ومشيت في درب الصدا    قة ممعنا في حب خدني
أكرمت من صاحبت ، ما    أكرمته ليقال عني
أعطي لخلي الطيبات    ولا أكف ، وان عدتني !
فاذا بكى ، سامرته    ومنحته قلبا يغني
واذا شكى ، زودته    بالمنعشات من التمني
حتى اذا دار الزمان    وصحت : يا خلي ، أعني
لم ألف خلا يستجيب    لصيحتي ، وقرعت سني

★ ★ ★

تقسو الحياة بناسها    لولا الانام مضى التجني
ولرب ضار من ضوا    ري الغاب روضه التأني
والشر طبع في الانا    م ، وليس يفنى حين يفني
يا صفقة القلب النقي    منحت روحي أي غبن !

# عائلة برونتي ومرتفعات ويذرنك

عبد القادر حسن امين

يذكر القاص الانكليزي المعروف سومرست موم سبب تاليفه لكتاب « عشر روايات ومؤلفيها » بانه لما كان في زيارة للولايات المتحدة اقترح عليه أحدهم ان يضع كتابا في « احسن عشر روايات » فاستجاب للاقتراح وانجز هذا الكتاب ، وهو لايسلم تسليما قاطعا على أن ما اختاره هو القمة التي لاتعلوها قمة ، فباستطاعته ان يختار عشرا أخر ، لاتقل روعة عن سابقاتها، مدعمة بأسباب وجيهة مقنعة ، وهو يقول أيضا لو اتيح لمائة شخص مثقف يتذوقون فن الرواية وكلفوا باختيار احسن ما يرون ، لتضخمت قائمة الروايات الممتازة الى مئات .

ثم يردف قائلا : ومع هذا فان ما وقع عليه اختيارى سيكون في قائمة الاشخاص المائة .

ويضرب القاص الانكليزى مثلا حسنا لاسلوب نقد الرواية في هذا الكتاب ، اذ انه لايقف عند تحليل الشخصيات وتدقيق صغاتها ، انما يغوص في أعماق المؤلفين ، وينقب في حياتهم ، ويستخرج منها تفاصيل غريبة تعينه على درس الرواية وتمحيصها ، كما وجد الخطر والخطل معا في ان يتخذ من فنه الروائي مقاييس يزن بها فن الآخرين ، فتحاشى ذلك ، ثم وقف حذرا من الاخذ برأى ناقد لم يكن هو نفسه روائيا مدركا لفن القصص .

* * *

ولكن يؤخذ على القاص الكبير في بحثه هذا هنات ، قد لا تعجب القارىء العربي ، فهو يستغرق في تفاصيل تافهة ، كما قد يستطرد في موضوعات تبعده عن جوهر البحث ، وقد يناقض نفسه بنفسه ، ففي ( مرتفعات ويذرنك ) يحاول ان يذكر ما يحمل على الاعتقاد بانها ليست نتاجا خالصا لايملي برونتي ، ولكنه لايلبث ان يؤكد أن الشك لاينطرق الى قلبه في نسبة الكتاب خالصا للمؤلفه البارعة ..

وبحثه هذا ـ في جملة الكتاب ـ أشبه بجامع الخرز الملونة ، فكلما التقط خرزة رماها الى سفط امامه ، وحتى تجمع لديه عدد كبير منها ،قد تستطيع ان تقول عنها انها غير متجانسة ولكنك لاتستطيع ابدا ان تقول

انها غير جميلة ..

ولهذا عمدت الى النقل عن هذا الكتاب بتصرف كبير ، لعلي اتجنب التكرار الكثير واتحاشى العودة ـ كلما استطعت ـ الى موضوع سبق الخوض فيـه .

ولا يدهش القارىء ان وجد سومرست موم يتحدث عن عائلة برونتي ( خاصة الاب والاخت شارلوت ) اكثر من تحدثه عن المؤلفة وروايتهـا ، فالرجل اديب كبير يعجبه ان يكتب كما يتحدث ، ولا تهمه وحدة الموضوع في شيء .

ولا مناص من استعراض موجز للشخصيات الرئيسية وابراز الحوادث الهامة في هذه الرواية :ـ

مرتفعات ويذرنك مقاطعة زرعية يقع فيها بيت « ايرنشو » والمسمى باسم المقاطعة ، تجاورها مقاطعة اخرى تسمى « ترشكروس جرانك » يسكنها ابن صاحب الضيعة أدكار لينتون .

ولما مات ايرنشو اعقب ولدا اسمه هندلي ، وبنتا تدعى كاترين ، وغلاما عطف عليه والتقطه من الطريق يدعى (هيثكليف) .

ربط الحب بين هيثكليف وكاترين ابنة ايرنشو ، صاحب المقاطعة ، ولكن فقر هيثكليف ومجهولية أصله ، وروح كاترين المتمردة ، وازدراء هندلي ـ شقيق كاترين ـ له وانتهازه الفرص الكثيرة لاحتقاره وايلامه : كان حائلا بينهما ، مع العلم ان كاترين ، في قرارة نفسها كانت تحبه ، وقد اخذت بمظهر القوة والخشونة الباديتين عليه ، ولكنها تتعالى وتكابر ، ولم تستطع ان تخفف من غلوائها لتعترف بمكنون قلبها .

يشتد غضب هيثكليف وحقده عندما يتم زواج ادكار لينتون بكاترين . ولم يكن الزواج موفقا لان كاترين تسخر من ضعف زوجها ونعومته خاصة اذا قيس بهيثكليف .

يختفي هيثكليف زمنا ، يعود بعدها الى المرتفعات ، وقد اصـاب شيئا من المعرفة وكثيرا من المال . وتتاح له الفرصة لاستغلال هنـدلي استغلالا فظيعا ، اذ ينهمك هذا في الشراب والمقامرة ، مستدينا من هيثكليف حتى تنتقل مرتفعات ويذرنك برمتها الى ملكية هيثكليف ، وتغدو العائلة كلها تحت رحمته ، وفي جملتها هيرتيون ابن هندلي ، ويصبح المتصـرف المطلق في مقاطعة ويذرنك وخاصة بعد موت هندلي .

لاينفك هيثكليف يزور كاترين في بيت زوجها في الجرانك ، مما ادى الى وقوع خلاف بين الزوجين .. وحدث ان احبت شقيقة ادكار لينتـون ( ايزابيلا ) هيثكليف ، دون ان يبادلها هو الحب ، وقد عمد الى الزواج منها ـ بعد اختطافها ـ اهانة لاخيها واذلالا لها ، فسامها بعد ذلك العذاب ، مما اضطرها الى الهرب . وفي ملجأها وضعت طفلا ذكرا ( ابن هيثكليف ) .

تموت كاترين بعد ولادتها بنتا ، وتتوالى الحوادث ويشب الولـد

والبنت عن الطوق ويتزوجان بتأثير هيثكليف ، ولكن الولد يموت لضعفه وهزاله ٠

تقصف عوامل الخيبة والحزن في نفس هيثكليف حتى يعتصم في غرفته ويحكم عليه مغاليقها ثم يقضي نحبه جوعا وأسى ٠

وتشاء الاقدار أن تضع الامور في نصابها ثانية ، فيتم زواج ابنة كاترين من ابن خالها هيرتون « ابن هندلي » وتعود ملكية المقاطعتين الى اصحابها الشرعيين ، بعد ان ملكها هيثكليف زمنا ٠

* * *

هيو برونتي فلاح شاب ، اقترن باليانور ماكلوري سنة ١٧٧٦ ٠وفي عيد القديس باتريك ولد ابنه البكر ، وتبركا بالقديس حامي ايولندا خلع على ابنه اسمه ٠

ولم تكن ارض الوالد لتدر عليه ما يقيم أود عائلته الكبيرة فكان مضطرا الى ان يشتغل في معمل للجص ٠

ويرجح أن باتريك كان ينهض باعمال صغيرة في حقل أبيه ، حتى بلغ من العمر مقدارا استطاع معه ان يكسب بعض الاجر في معمل للنسيج اليدوي ٠

ولكنه كان من الطموح والنباهة بحيث لم يرض لنفسه ان تقف عند هذا الحد ، فجهد في اكتساب بعض المعلومات ، مما أهله ان يعين معلما في مدرسة القرية مسقط رأسه ، ثم ما لبث ان انتقل الى التدريس في مدرسة الأبرشية في قرية اخرى ، وسلخ من العمر ثماني سنوات ٠

ثم اتيحت له فرصة ذهبية للدخول في كلية القديس جون ، وكان آنذاك قد بلغ الخامسة والعشرين ، وقد اكتملت رجولته وبدا جذابا ،فارع القامة ، قوي البنية ، وقد ركبه الغرور والعجب بمظهره الجميل هذا ٠

وبفضل زمالة حصل عليها ، واشتراك في معرضين ــ ومن التدريس الخاص ــ استطاع ان يثابر على الدراسة حتى ظفر بشهادة ب،ع، وهو في التاسعة والعشرين ٠

شغل وظيفة دينية في ويذر سفيلد في ايسكس ٠ أحب فتاة في الثامنة عشرة من عمرها وبادلته حبا بحب ، ولكنها لم تكن غنية ، مما حمل باتريك على ان يغير رأيه ، اذ رأى في التريث مكسبا جديدا وهو الرجل الجميل الاهيف ، ولكن عمله هذا أحدث رد فعل سيء في المقاطعة كلها ، فلم يجد مناصا من الانتقال الى ويلنكتون في شروب شاير ، ومنها ــ بعد عدة اشهر ــ الى يورك شاير حتى التقى امرأة في سن الثلاثين تدعى ماريا برانويل ــ تتمتع بايراد سنوي مقداره خمسون جنيها ، تنتمي الى عائلة محترمة من الطبقة الوسطى ٠ فلم يضيع باتريك الفرصة ، فطلب الزواج منها ــ وهو يخطو الى الخامسة والثلاثين ، فأجيب الى طلبه ، وتمت مراسيم

الزواج سنة ١٨١٢ ·

انجبت له طفلتين : هما ماريا واليزابيث ، ثم اردفت ذلك بأربعة آخرين : هم : شارلوت وأميلي وآن وذكرا هو باتريك برانويل ·

* * *

نشر برونتي قبل زواجه ، وعلى حسابه الخاص ديوان شعر سماه « قصائد الكوخ » ـ ثم أصدر آخر بعنوان « المغني المتجول » وكتب رواية « الكوخ في الغاب » وكان برونتي في آثاره هذا سيء الحظ ، اذ حكم كل من قرأها : أنها لا مزية فيها·

استقر المطاف بصاحبنا في يورك شاير ـ يمارس وظيفته الدينية المعتادة حتى ساعة وفاته ، ويبدو أن مطامحه قد أشبعت او قد صدمت واستسلم لهذه الصدمة ··

والغريب ان الرجل لم يخطر بباله مرة ان يعرج الى ايرلندا ليرى ابويه وشقيقاته واشقاءه · ومع هذا لم ينس والدته فكان يرسل اليها عشرين جنيها كل سنة طوال حياته ·

أخفق السيد برونتي في الزواج ثانية بعد وفاة زوجته الاولى · فلم يجد بدا من الاستعانة باحدى قريباته لتعنى باطفاله الستة · وكانت تدعى اليزابيث برانويل ··

وضم الجميع بيت صغير مبني من الصخر على حافة تل حادة حيث تنبسط القرية · يتقدم البيت شريط صغير متخذ حديقة ، وتحيط بجوانبه الثلاثة مقبرة الكنيسة · وقد اعتبر من كتب عن آل برونتي هذا المنظر موحشا يشيع العتمة في نفوس ساكنيه · ومن يدري ؟ فلعل رجل الدين يعتبره صرحا شامخا ومشهدا مسليا ·

ضم البيت مكتبة خاصة بالسيد الوالد ، ومطبخا ، ومخزنا للمؤونة في الطابق الارضي واما الطابق الاخر فقد اشتمل على اربع غرف للنوم وبعض المرافق ·· ولم تفرش ارضية الغرف بالسجاد ، باستثناء قاعة الجلوس وحجرة المكتبة ، ولفزع السيد من الحريق تركت الشبابيك من غير سدول ·· وقد كان البيت في الشتاء باردا ورطبا مما حمل مس برانويل ان تحتذي قبقابا حذر الاصابة بالبرد ·

اتفق المؤلفون على أن الحياة في هذه القرية وفي هذا البيت متجهمة عابسة ـ كما سبق ذكره ـ ولكن فات هؤلاء أنه حتى في ايام الشتاء الباردة جدا ، قد تصطبغ السماء بزرقة اخاذة ، وتتالق في جوانبها خيوط الشمس اللماعة ، وتغرق القرية في أشعة فضية وهاجة ، وتشمخ الاشجار العارية وقد اكتست ثياب الطبيعة البيضاء ، وتلتمع الاسيجة النباتية على جانبي الطريق بما تساقط عليها من ذرات الجليد ·

لقد أبدعت ، اميلي ـ سواء في أشعارها أم في روايتها : مرتفعات

ويذرنك ــ في وصف الربيع البهيج ، وأشادت بغنى الصيف بالجمال الساحر ·

* * *

ان متطلبات الواجبات الدينية التي يمارسها السيد برونتي تحتم عليه الامتزاج بالناس ، ولكنه برغم ذلك فهو ميال للعزلة ، وقلما لاعب اطفاله، كانت الشرفة ، فى الطابق الاول مستقرهم ، حيث كانوا يدرسون ويقرأون بصوت منخفض لئلا يعكروا مزاج أبيهم ، والا تعرضوا للعقاب ، بان يفرض عليهم صمتا مطبقا ، لايستطيعون ان يخرجوا عنه · دأب على تعليمهم بعض الدروس صباحا ، وتتولى مس برانويل تدريبهم على الخياطة واعمال البيت مساء · وقال كل من اختلط بالسيد برونتي وعائلته : انه رجل أناني ، متسلط ، نزق ، لايرغب في صحبة أطفاله ، لذا كان يتناول طعامه في مكتبته دائما ، وقد عرف بالقسوة ، فقد أهدى احد الاصدقاء لاطفاله احذية زاهية الالوان لتقيهم الرطوبة والبرد ، ولكنه ما لبث ان ألقى بها طعاما الى نار الموقد وقد فعل ما يشبه هذا مع زوجته : فقد قبلت هدية ، بدلة من حرير ، خيطت بلون وطريقة لا تعجبان الزوج فلم تلبسها نزولا عند رغبته ، غير أنها احتفظت بها في الدولاب وبشاء سوء الحظ ان تنسى ، يوما ما ، المفتاح في القفل ولما تذكرته عادت مسرعة فهالها ان تجد البدلة العزيزة قد قطعت خرقا تناثرت على الارض · وعمد الى احراق بساط موضوع امام المدفأة ومكث في الغرفة رغم الدخان المتصاعد ، ليطمئن الى انه أصبح عديم الفائدة ، وأعمل مرة المنشار في مساند الكراسي حتى أحالها الى مقاعد لا يمكن ان توفر الراحة لمن يجلس عليها ·

ويدعونا الانصاف أن نذكر أن السيد برونتي قد نفى هذه القصص، ومهما يكن من أمر صحتها او المبالغة في روايتها ، فقد اتفق الجميع على أنه ذو طبع حاد ، عبوس الوجه ، لايمكن ان يراجع في مسألة أصدر بها حكمه ·

ولعل له عذرا وأنت تلوم ، وقد يكون العذر في خيبة الامل المتكررة في أن يحقق لنفسه مركزا رفيعا ، فهذا هو شأن من ينشأ في بيئة فقيرة يكافح بضراوة ، ليشق طريقه متسلحا بسلاح المعرفة ليرفع نفسه فوق طبقته ، ولكن القابليات المحدودة تخذله · لقد عرفنا السيد برونتي معجبا بهيئته وجمال مظهره ، وعرفنا ان جهوده الادبية لم يكتب لها النجاح ، فلا جرم ان يصاب بشيء من الانهيار ، وأن تتعرض اعصابه لضغط غير محتمل ، بعد ان رأى خاتمة الكفاح وظيفة خورى متواضعة في ادغال يوركشاير ·

* * *

يلوح لي ان الشقيقات الموهوبات لم يشعرن بالحرج لما هن فيه ،واذا كن قد تظرن بعدم اكتراث الى اصل ابيهم المتواضع فهن ايضا ، يعتبرن انفسهم غير سيئات الحظ ، انهن لسن احسن ولا اسوأ من مئات الفتيات الانكليزيات اللواتي ولدن لآباء خوارنه ، بما كانت تتسم به حياتهن من عزلة ، واستطاعاتهن من محدودية .

وان كانت العائلة قد فرضت على نفسها العزلة فان ذلك جرى بمحض اختيارها ، والا فباستطاعتها ان تجد من تختلط به وتأنس بقربه ،فهناك الجسة والزملاء من رجال الدين الذين يسكنون على مسيرة دقائق قليلات كما أن فئات اخرى من المجتمع الصغير عمادها نفر من الذوات واصحاب مطاحن ومصانع على مقياس صغير ، يرحبون بتبادل الزيارات مع آل برونتي ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بدافع ذاتي غير مفروض ، ولا يمكن ان يرد الانكماش هذا الى فقر العائلة فأن دخلها في العام الواحد يرتفع الى ثلاثمائة جنيه ، وفي حساب ايامنا هذا يعادل اثنى عشر الف جنيه ، وينظر الكثير من رجال الدين الى المبلغ نظرة احترام ، اذ يحشر صاحبه في عداد الاغنياء، وتعتبر زوجة القس نفسها سعيدة ، لو حظيت بخادم واحدة في حين أن بيت السيد برونتي يضم اثنتين ، واذا ازداد ضغط العمل في البيت استدعيت بعض فتيات القرية للمساعدة .

* * *

في سنة ١٨٢٤ ألحق السيد برونتي بناته الاربع الكبيرات مدرسة افتتحت خصيصا لبنات رجال الدين الفقراء . ولكنها كانت مثال السوء فهي غير صحيحة والطعام فيها رديء والادارة ضعيفة ، وقد تسبب ذلك في وفاة اثنتين منهن ، وقد ساءت صحة شارلوت واميلي كثيرا ، فتركتا المدرسة على عجل ، فأخذت العمة على عاتقها تعليمهما .

كان السيد برونتي معجبا بابنه ، لذا صرف جل عنايته الى تعليمه ، وكاد جميع الاسرة يتفقون على أنه عبقري العائلة الفذ ، ولم يقل اعجاب الاخوات بشقيقهن عن اعجاب والدهن وقد توقعن له مستقبلا حافلا بجليل الاعمال .

اشتغلت شارلوت معلمة ، طوال ثلاث سنوات ، ثم اضطرت تحت ظروف خاصة ، الى الاشتغال كمربية أطفال ، ولم تجد في نفسها ميلا الى هذه المهنة ، ولم يعرف عنها وعن أخواتها حب الاطفال ، فكان لابد أن تهجر هذا العمل بعد فترة قصيرة ، فهي لاتستطيع ان تتعاون مع اسرة الطفل ، أو أن تلبي كل ما تعتقد الاسرة أنه من حقها ان تطلبه ، وقد كتبت الى احدى صديقاتها قائلة : لا يستطيع أن يصف مشقة العمل كمربية ، غير اولئك اللواتي يمارسن هذا العمل ، فليس في تفكيري ولا في طبعي ما يتلاءم مع هذا اللون من اكتساب العيش .

كان من أجمل أحلام شارلوت ان تمتلك مدرسة تديرها بنفسها وتساعدها في التدريس اخواتها .. ثم بدا لها ان تستكمل بعض المؤهلات الضرورية فهي تقرأ الفرنسية ، ولكنها لاتستطيع ان تتكلمها كما انها تجهل الالمانية جهلا تاما ، فشدت الرحال الى القارة تصحبها اختها اميلي ، وانخرطت في مدرسة في مدينة بروكسل . مكثتا هناك عشرة اشهر ، وعادتا مضطرتين بسبب مرض مس برانويل ، التي ما لبثت ان قضت نحبها موصية بايرادها السنوي الى الاخوات ، مما احيا في نفوسهن الامل ، لاخراج الحلم القديم الى النور ، وكتب لمشروع المدرسة هذا ان يتأخر سنة اخرى لأن شارلوت قبلت عرضا لتدريس الانكليزية في بروكسل ولما عادت أعلنت عن عزمها وكتبت الى معارفها ترجو الاعلان عن مشروعها العتيد ، ووجدت الاخوات من العقوق ان يبتعدن عن أبيهن ، بعد أن بلغ من العمر عتيا وضعف بصره فقررن انشاء المدرسة في بيت ابيهن ، ولميكن فيه غير اربع غرف شغلت مسبقا بافراد الاسرة الكبيرة .. لهذا لم يجرأ احد من الآباء على ارسال اطفاله اليهن فخنق المشروع في مهده .

* * *

مارست الاخوات الكتابة منذ صغرهن ، وأولى بواكيرهن ديوان شعر نشر سنة ١٨٤٦ ، خرج الى النور بتواقيع مستعارة وعلى حسابهن الخاص .. لقد كلفهن خمسين جنيها ، ولم يبع منه غير نسختين .

ثم استقلت كل واحدة منهن بكتاب . كتبت شارلوت تحت اسم ( كارر بيل ) رواية « أطلقت عليها عنوان « الاستاذ » وكتبت اميلي تحت اسم اليس بيل « مرتفعات ويذرنك » وكان اسم « آن » المستعار آكتون بيل وقد انجزت آكنز كري ...

لم تحظ هذه الكتب الثلاثة بقبول لدى الناشرين ، فقد رفضت جميعها ، غير ان شركة سمث ايلدر ، أعادت رواية ( الاستاذ ) الى شارلوت مع نصيحة فحواها : أن رواية أطول قليلا ربما تنال مزيدا من العناية .

أحيت هذه الرسالة ميت الامل في نفسها فعكفت على الكتابة بجد لا نظير له ، حتى أتمت رواية ( جين اير ) في شهر واحد . ورضيت الشركة ان تنشرها ، وصادف أن ناشرا آخر يقال له ( نيوبي ) قبل نشر روايتي اميلي وآن ولكن بشروط مجحفة .

وبرغم ان عرض ( جين اير ) لم يكن على جانب من الجودة ، الا ان اقبال القراء عليها كان ممتازا وقد سجلت رقما جيدا في عدد المبيع منها ، وهذا ما حمل « نيوبي » الى ان يوحي الى القراء بان مرتفعات ويذرنك واكنز كرى اللتين نشرهما في ثلاثة اجزاء بانهما من نتاج مؤلفة ( جين اير ) . ومع هذا لم يترك هذان الكتابان انطباعا حسنا لدى القراء ، وعلق عليهما بعض النقاد بأنهما عمل مبتسر لم يكتب له النضج .

ألحت الاخوات كثيرا على أبيهن ان يقرأ جين اير · ولما اتمه اعترف أن شارلوت قد نجحت في كتابة رواية فريدة في نوعها ·

* * *

لقد تحدث المؤلفون كثيرا عن السيد برونتي الاب ، وعن شارلوت ، ولكنهم لم يكتبوا الا القليل عن آن واميلي ومرتفعات ويذرنك ·

كانت آن تتمتع بشيء قليل من الجمال وبكثير من وداعة الخلق ، ولكنها كانت ذات موهبة صغيرة ·· اما اميلي فمختلفة عنها كثيرا فهي غريبة الاطوار ، منطوية على نفسها ، كتوم ، حادة الطبع ، لا تحب الاختلاط بالناس ، وباستطاعة القارئ ان يدرك اى نوع من النساء كانت مما يستشفه من أشعارها وروايتها ومن لمحات عرفت عنها ونوادر تناثرت هنا وهناك · ان من يرافقها لايجد الارتياح الى جانبها ، وحتى في لحظات السرور القليلة التي تمر بها · كان لآن وشارلوت كثير من الاصدقاء ولكن اميلي حرمت الصديق الواحد · فقد ركب في طباعها تناقض عجيب لقد كانت فظة مستبدة ، غضوبا ، متجهمة ، غير متسامحة ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تقية دؤوبا على العمل ، تنجز واجبها باتقان كبير ولا تتبرم به ، ثم انها ناعمة وصبور مع من تحب ·

وصفت — وهي في الخامسة عشرة — بانها طويلة ، ذات ذراعين ممتدتين لدنة الجسم بقوام ممشوق ، تلوح كأنها ملكة في أبهى حللها ، غير أنها — وفي وضعها الطبيعي صعبة الحركات ، عديمة الهندام ، تقطع المسافات البعيدة في الارض الوعرة وهي تصفر لكلابها ، لم تكن قبيحة ولكنها ذات ملامح شاذة · كان شعرها جميلا فاحم السواد · زادت عنايتها به في أيامها الاخيرة اذ كانت تغرز فيه مشطا في مؤخرة الرأس · لها عينان جميلتان ، الا أنها كمعظم افراد العائلة كانت تلبس النظارات الطبية ·

ذهبت برفقة اختها شارلوت الى بروكسل ، فكرهت المدينة ، وقد حاول أصدقاؤهما ان يظهروا شيئا من اللطف والمجاملة معهما بدعوتهما لقضاء ايام الآحاد والعطل في بيوتهم ، ولكنهما كانتا من الخجل بحيث لم تستطيعا تلبية اية دعوة ، وقد خلف ذلك في نفسيهما ألما وحنقا ممضين حتى وجد هؤلاء الاصدقاء أن من العطف والشفقة بهما الا يتقدم احد اليهما بذلك ·

لم يكن لاميلي الصبر والاجتماع لسماع أحاديث المجاملة القصيرة التي تبدأ عادة باشياء تافهة ، وهي لاتخلو — على كل حال — من تعبير عن شعور بالمودة التي تجيش في نفس المتحدث نحو المتحدث اليه ، غير ان اميلي لاتحسن الخوض في هذا اللون ، وجهلها هذا يثير أعصابها ، ان خجلها الشديد ينطوي على التهيب والغطرسة ، لقد اعتادت — في المدرسة — خلال فرص الراحة ان تتمشى مع اختها ملتصقة بها ، ورامية بثقلها

عليها ، صامتة اغلب الاوقات ، وعندما يلقي اليها بسؤال او بتحية كانت الاجابة تصدر عن شارلوت ، ونادرا ما فاهت اميلي بكلمة الى اى انسان ، وكانتا تكبران جميع الطالبات ببضع سنين ، وقد كرهتا ضجيجهن ، ومرحهن ، وطبيعة الغفلة فيهن :

لقد وجد مدير المدرسة اميلي ذكية ، ولكنها كانت على درجة من العناد بحيث لاتصغي لأي رأى يتعارض مع رغباتها وآرائها ، لقد رآهما أنانية حازمة جبارة مع اختها شارلوت ، ثم أوجز رأيه فيها : بانها لوكانت رجلا لعرفت بقوتها الخارقة وصلابتها الحديدية امام اية عقبة او ايسة معارضة •

وعند عودتها الاخيرة من المدرسة في بروكسل لزمت البيت ولم تبرحه ابدا وطفقت بين جدرانه تعيش هواجس الوحدة وآلامها •

كانت تستيقظ مبكرة تسبق الطير وتلقي بثقلها على عمل البيت ، فتنجز الجانب الاكبر والاصعب منه ، قبل ان تنهض الخادم العجوز ، كانت تكوي الملابس وتطبخ معظم الطعام وتجيد صنع الخبز واعتادت وهي تعجن الطحين ان تسترق النظر بين حين وآخر الى كتاب مفتوح امامها ، كما كانت تحتفظ بورقة وقلم الى جانبها لتدون فيها اية فكرة تطوف في ذهنها ساعة العمل ، وعند اشتداد ضغط العمل في البيت كانت تستعين ببعض الفتيات الشابات فتبدو معهن لطيفة جدا • تفتح لهن قلبها ، وتظهر مزيد مودتها وحنانها وانسها بهن ومرحها معهن ، وتستحوذ عليها سعادة اشبه بسعادة شاب يلتقي من يحب ـ في حين انها اذا جاء غلام الجزار او غلام الخباز الى المطبخ أسرعت متوارية عن نظرهما ، كأنها طير فزع يفر من قبضة صياد ولا تعود حتى يطرق سمعها صوت احذيتهما الثقيلة تضرب بلاط الممشى •

لقد وصفها أهل القرية بانها أشبه بالولد منها الى البنت ، كما لم يعرفوا عنها أنها جاملت خوارنة أبيها ، باستثناء خورى واحد يدعى « وليم ويتمان » يتميز بجمال الشكل ، وفصاحة اللسان وسرعة البديهة ، وفي ملامحه وتصرفاته وذوقه أنوثة غير خافية • وهذا مما حدا بافراد العائلة الى تسميته بالمس سيليا اميليا ، ولعل ذلك كان السبب في استلطاف اميلي ومصاحبتها له كثيرا ، وقد نهجت الاديبة الانكليزية مي ستكلير في كتابها « آل برونتي الثلاث » كلما تحدثت عن اميلي بأن تطلق عليها صفة ( المسترجلة ) وهذا يتفق تماما مع رأى ابيها عنها فقد قال : انها صورة طبق الاصل مني ، وانها تحمل بين جوانحها روح رجل •

ولقد قيل عنها ايضا : انها لم تحترم اى بشر ، وانما انصرف حبها بجملته الى الحيوانات ، ومن يدرى فلعلها كانت مصابة بنوع من الشذوذ الجنسي ، وقلة الاشارة الى ذلك مردها الى ان هذا العلم لم يكن قد نضج آنذاك •

مرتفعات ويذرنك رواية فريدة في نوعها وهي تنم ـ كشأن القصص ـ عن عهودها والافكار السائدة ، والنظرات الاخلاقية التي تؤمن بها المؤلفة، وعن الاحقاد المشروعة وغير المشروعة . انها رواية قد لاتشبه مثيلاتها من الروايات التي رأت النور ذلك العصر ، وباستطاعتك ان تصفها : بأنهـا سيئة جدا ، وفي الوقت نفسه لاتخطيء بان تقول : انها رائعة حقـا وهي قبيحة ، ولكنها تنطوي على صفحات من الجمال الأخاذ ، وهي فظيعـة تبعث الالم في النفس ، ولكن لا نكران أنها كتاب عاطفة جبارة .

ظن البعض أنه من المستحيل لابنة رجل ديني ، يحيا حيـاة مملة منعزلة ، لايعرف الا القليل من الناس ، ويجهل كل شيء عما يدور حوله في العالم ـ ان تخرج مثل هذا الكتاب . وهذا الرأى مرفوض وسـخيف ايضا ، اذ ان المرتفعات رواية رومانتيكية جدا ، والرومانتيكية تتحـاشى الملاحظة السطحية للواقع ، انها تتكشف في تحليل مطلق للخيال ، مـع انهماك في اللذة تارة ، وفي الالم تارة اخرى ، يتخلل ذلك فزع وعنـف وعاطفة وسرية ، وهذا يمثل مياه الفوارات التي انطلقت من عاطفة اميلي المكبوتة ، ونبعت من واقعها الصحيح .

كما رأى آخرون أن حوادث الرواية تفصح عن طبيعة ألصق بطبيعة شقيقها « برانويل » ولهذا ذهبوا الى القول ان الكتاب او جزءا منه انشأه برانويل ، وانه قد صرح بذلك لبعض اصفيائه ، ثم علق فريق آخر مشيرين الى ان الخطوط الاساسية كانت من تصميم برانويل .

كتب الشاعر درايدن في صحيفة الكاردين التي تصدر في مقاطعـة هاليفاكس يلقي بعض الضوء على هذه الناحية قال :

كان من عادتنا ان نجتمع نحن الثلاثة : برانويل والشاعر ليلاند وانا في مكان خلي نتناشد الاشعار ، ونتبادل الملاحظات ، ولما جاء دور برانويل خلع قبعته ليخرج من باطنها المسودات وكان ذلك مكانه المفضل ـ فأذا به يجد مسودات رواية ـ كان قد وضعها خطأ ، فأبدى أسفه واعتذاره ، وهم أن يعيد الاوراق الى مكانها من القبعة ، فالححت عليه انا وليلاند على ان يسمعنا ما كتب لنلم باسلوب معالجته للرواية ، وبعد تردد استجـاب لرغبتنا ، ثم اردف درايدن : لقد استحوذ على انتباهنا ساعة كاملة ، وكان كلما انتهى من قراءة ورقة أعادها الى مكانها ، ثم تقدم الينا راجيا ان نكتم اسماء أشخاص الرواية ، لان البعض منهم مازال على قيد الحياة ، ولم يذكر عنوانا للرواية لانه لم يوفق بعد في اختيار الاسم المناسب ، وقد كان يخشى الا يجد ناشرا لنتاجه هذا .

ثم أكد دريدن : ان ما سمعناه من برانويل في جملة الاوراق التـي حملها معه ، تتماثل مع ما هو مسطور في مرتفعات ويذرنك .

غير ان شقيقتها شارلوت أكدت بشكل قاطع : أن الرواية مجهـود خالص لاميلي .

ان السرد لم يكن جيدا ، ولم تكن الاخوات يحسن الكتابة ، شأن مربيات الاطفال - وقد امتهنت ذلك لفترة من الزمن - فقد اصطنعن أسلوبا مبالغا فيه أقرب ما يكون الى حديث المربية مع الاطفال ، لقد روت السيدة ( دين ) معظم القصة ، وقد كانت تشغل منصب القهرمانة المشرفة على شؤون بيت المرتفعات كلها • لقد جعلتها أميلي تنطق بما لا يستطيع بشر مثلها ان ينطق ، فمن كان في منزلتها وفي مثل وظيفتها ، لايحتمل ان يرد على خاطره بمثل ما ورد على خاطر السيدة دين ، لقد تطرقت الى اشياء لايحتمل أنها تعرف عنها شيئا • وكأني بأميلي قد أدركت هذه الثغرة فأشارت الى ان دين كانت تبتهل الفرص في أوقات فراغها فتقرأ بعض الكتب ، لتبرر ما ورد على لسانها من افكار سامية ولغة ادبية عذبة • ولا يمكن لاميلي ان تحيد عن هذا المنهج ففي نفسها صراع يدفعها الى أن ترتقي الى مقام السيدة الكاملة المهذبة • ولعل هذه الغلالة الشفافة من الخلق العالي هي البرقع الذي يخفي تحته عنف العاطفة وضراوة الاسلوب •

ان بناء الرواية تقيل بحاجة الى شيء من التلطيف والتهذيب ، ولا يمكننا ان ننتظر من اميلي غير ذلك ، لان المرتفعات روايتها الاولى والاخيرة، وبالاضافة الى ذلك فانها معقدة تنبسط على فترة من الزمن تشمل جيلين من الناس وتتناول طوائف مختلفة من الحوادث والاشخاص معرضة للتطور والتبدل ، مع واجب المؤلفة وحرصها التام على ان يحتفظ الاسلوب بالمتعة والحوادث بالمشوقات في تعادل واتساق من اول صفحة الى آخر صفحة • ولم يكن النجاح حليف أميلي في هذا ، فبعد موت كاترين ايرنشو - من بطلات الجيل الاول - تعرضت القصة للوهن اذ حلت محلها كاترين الصغرى ، فأخفقت المؤلفة في ان تسبغ عليها الاستقلال العاطفي • الذي اتصفت به الاولى ، ولا أمدتها بذلك الضعف الاحمق الذي عرف به والدها •• لقدكانت عنيدة عابثة غبية وانسانا ذات خلق مريض • ومن الصعب ان تحمل القارىء على الرثاء لآلامها • وقد احيطت الخطوات التي قادتها الى حب هارتيون بالغموض ، كما أحاط الضباب شخصية هارتيون، فكل ما نعرفه عنه أنه جميل الطلعة ، كئيب ومنكمش على نفسه •

ان مؤلفا لقصة كهذه يجب ان يضع في اعتباره دفع الملل عن القارىء بان يمكنه من استقصاء الحوادث في المدى الطويل بلمحة مدركة ، شأن العين الفاحصة عندما تطلع الى منظر مترامي الاطراف وتنوي ان تلم به نظرة واحدة ، والراجح ان اميلي لم تعر اهمية كبيرة بوحدة الانطباع التي يجب ان تساير القارىء ، وهو يتابع تطور القصة ، غير انها كانت حريصة على تشابكها وترابطها ، حتى أنها ضحت بطابع الحوار ، فجمد الحديث عند السيدة دين وحدها ، واستأثرت به ، ما عدا صفحات قليلة تولى الرواية فيها السيد ( لوكهوود ) ، الذي كان من واجبه ان يصيخ السمع ولا غير ، ولا ريب ان متحدثا مسيطرا ومستغرقا في سرد الحوادث

بحماسة وقوة ذاكرة لايتيح الفرصة للابطال الاخرين ان يتناوبوا القول ، لقد فعلت أميلي ذلك اعتقادا منها أن هذا الامر يخدم سياق القصة ويزيد من قوة الخيط الرابط لوقائعها الجمة • وكان من الممكن ان تعتمد أسلوبا آخر أكثر جمالا وأرسخ حيوية لو ملكت التجربة الكافية في فن الرواية ، وقد نجد لها العذر لان طبيعة الخجل والاعتلال والصمت والتطرف عوامل آسرة لاتترك المجال للكاتب ان يختار فهي التي تملي عليه وتوجهه حيث شاءت وشاءت اختباراته ومعرفته كما يتضح ذلك بجلاء في مدام بوفاري وغيرها من القصص الناجحة •

ان القارىء ليتوقع من أميلي ان تنير العتمة المحيطة بغياب هيثكليف ، في فترة حصل فيها على ثروة كبيرة وعلى شيء من الثقافة ، انها لم تفعل ذلك، وهذا يومىء ببساطة الى عجزها عن التفسير والتعليل ، والا فكيف يقنع القارىء بوجود هذه الثروة الهابطة من السماء •

اما اعتماد السرد على ضمير المتكلم ( الذي هو السيدة دين ) فقد بعد بالقصة عن قلب القارىء بسبب من احساس الراوية المتأرجح •

لقد توارت المؤلفة خلف السيد لوكهوود ، الذي انطلق يحكي حوادث القصة اعتمادا على معلومات السيدة دين فكأنها لبست قناعين عوضا عن قناع واحد ( في بعض جوانب القصة ) ، وميلها الى التخفي والكتمان واضح يبدو جليا فيما فعله الوالد برونتي مع أولاده مرة ، اذ شاء ان يعرف كيف ركبت طباعهم ، فطلب اليهم ان ( يتنكروا ) ، وطفق يلقي عليهم أسئلة مختلفة ، فكان سؤاله لشارلوت عن أحب كتاب الى نفسها فأجابت : التوراة • وكان سؤاله لاميلي عما يجب ان يسلك في معاملة أخيها المتاكس فكان جوابها : التعقل والتريث ، فان لم يصغ الى صوت العقل فعليك بالسوط • انها لا تستطيع ان تفصح عن نفسها بصراحة اذا لم تتوار خلف ستارة فهذان القناعان اللذان وضعتهما على وجهها في قصتها العاطفية العنيفة سبيلها الافضل في الكشف عن غرائزها المثيرة ، لقد تطلعت بعمق الى بئر العزلة القاسية في قلبها فوجدت أسرارا فوق أسرار تضغط عليها بعنف ، وكان لزاما عليها أن تفتح قدر البخار ليتنفس الضغط ويتراخى الشـد •

لقد كان الوالد برونتي يتحدث الى أطفاله بقصص غريبة ، فكانت عاملا في شحذ مخيلتها ولما صار في مقدورها ان تقرأ انكبت على قصص ( هوفمان ) واستغرقت في قراءتها فكانت ترى غالبا الى جانب المدفأة وقد طوقت عنق كلبها ( الحارس ) بذراعها ، وتناست كل ما حولها •• ان طبيعتها القاسية أرسلت رياحها العاتية خلال تظم الاشعار والتهام قصص الرعب ، والا لانفجرت وتناثرت ركام شخصيتها • ان كاترين ايرنشو ، وهيثكليف بعنفهما وضراوتهما صورة طبق الاصل من اميلي ، ولعل من

الغرابة ان يتقمص مؤلف بطلين رئيسيين من ابطال قصته ، لا بل من الطبيعي ان نعترف أن في أعماق نفوسنا يختبيء أكثر من شخص وما يميز كاتبا من آخر هو قدرته على ان يبرز هذه الشخوص المتنافرة مركبا في طبيعتها صفاته الشخصية وقد يكون مرد اخفاق الكتاب الى عجزهم عن صياغة أبطال ، لا يكونون جزءا من كيانهم ، كما هو الحال مع اميلي في ( كاترين الصغيرة ) .

لقد وضعت كلي ثقلها في هيثكليف ، فقد اسبغت عليه مزاجها الغاضب الكاسح وعاطفتها الجنسية الخائبة ، واحساسها نحو حب غير موفق ، وغيرتها وحقدها وازدرائها للجنس البشري ، وقسوتها عليه ، ولذتها في ان ترى من تحب يتعذب ، ولا يمكن أن تنسى قصتها مع كلبها ، ذلك الكلب الذي أحبته أكثر من أي شيء آخر ، لقد ظلت تضربه على وجهه حتى أدمت عينيه ، وكانت تتعمد ان تقص على اختها قصص الحيوانات الغريبة مع علمها بشديد خوفها وفزعها من ذلك ، فكانت تنفرد بها وتحكي لها ذلك ، فتجد لذة ومتعة في منظر الرعب المرتسم على وجهها . ومثل هذه اللذة كانت تجدها في ( كاترين ايرنشو ) وهي تركل هيثكليف عندما كان صغيرا ، أو ترطم رأسه بالحجر وكانت تجد الراحة والتفريج عن كربتها حينما ينصب الذل والهوان على رأس كاترين الصغيرة ، أو حيثما تفعل هي ذلك نحو أشخاص من صنفها ، ولا غرو فقد عانت مثل هذا في بدء حياتها ممن يحيطون بها .

ان ازدواجية كاترين تكشف بوضوح عن التناقض في حياة المؤلفة نفسها . فكاترين الصغيرة حاربت هيثكليف واحتقرته ووصفته بالوحش ، ولكنها أحبته بروحها وجسدها ، ومع أسرافها في سطوتها عليه فقد سحرت بعنفه وقسوته وطبيعته الجامحة ، شأنها شأن المريض « بالسادية » ولم تنكر كونهما قريبين من بعض ، وهذا هو عين الصواب ، لان كليهما ( كاترين وهيثكليف ) أميلي برونتي نفسها : تأمل ما تقول كاترين : نيلي .. انا هيثكليف ، انه دوما في ذاكرتي لا يبرحها ، لا لانني اجد السرور في ذلك بل لانه كياني الماثل ..

★ ★ ★

مرتفعات ويذرنك أغرب قصة حب خطتها براعة كاتب ، ولا يقل غرابة عن ذلك : الفصل الذي يظل فيه المحبان تسربلهما العفة والطهارة ، لقد احبت كاترين هيثكليف بعمق كما بادلها هو حبا بحب وعلى نفس الدرجة ، في حين أن شعورها نحو ادكار لينتون مزيج من العطف والشفقة وأحيانا مزيج من الغيظ أو التسامح ، والانسان ليعجب متسائلا لماذا يبتعد محبان صادقان عن بعضهما البعض ، ولا يصح أن يكون الفقر ( فقر

هيثكليف ) عاتقا .

قد يكمن السبب في نظرة أميلي الى الحب على انه فسق وزنى وخطيئة لا تغتفر ، وهي تنظر نظرة ازدراء الى العلاقة التي تنشأ بين الرجل وزوجته .

* * *

ان تكوين قصة مسألة من الغرابة بمكان ، ومن المحتمل في قصة الكاتب الاولى أن يضمنها الشيء الكثير من آماله وتمنياته ، ومن النادر جدا ان تهبط القصة على الكاتب كما يهبط النجم من السماء الزرقاء ، فهي على الاغلب تجربة عاطفية ذاتية ، وقد تكون مقتبسة من تجارب الآخرين ، ولكن الكاتب يجب أن ينفعل بها لتغدو جزءا من كيانه ، ثم تعمل المخيلة على خلقها شيئا فشيئا وفي كثير من المعاناة والمخاض ، وقد تفعل اللمحة الواحدة والاشارة الصغيرة فعل الشرارة التي تضيء كهف الخيال لدى القاص ، ومن يدري أية هواجس غزلية كانت تحوم في مخيلة اميلي في ليالي الأرق الثقيلة ، أو عندما تنطرح بين الازهار في الحقول أيام الصيف الطويلة .

* * *

يستطيع الكثيرون أن يدركوا التشابه بين روجستر بطل قصة شارلوت وبين هيثكليف : فكلا البطلين أسمر اللون ، عنيف ، ذو تكوين صلب قوي ، قاسي القلب ، سريع التأثر منكمش على نفسه ، وهما لا يختلفان الا في المقدار الذي تختلف فيه الشقيقتان ، وقد ابتدعتا هاتين الشخصيتين تعميما لعاطفتيهما الساحقة ، غير أن روجستر لدى امرأة سوية الغرائز في حين أن ( أميلي ) أضفت على بطلها ، قوة عضلاتها ، وعنفها ومزاجها الوحشي ، وأرجح أن الانموذج الاساسي لهذين البطلين هو الوالد باتريك برونتي .



* * *

ان الانسان يجب أن يقرأ شعر أميلي ليتصور أية تجربة عاطفية أخذت بيدها لتبحث عن الانعتاق من اسار ألم ممض عندما كتبت مرتفعات ويذرنك .

***

نظمت أميلي مقدارا كبيرا من الشعر وهو يتأرجح في مستواه بين الجميل الرفيع والمؤثر المحرك وبين التافه البسيط وهو الاغلب الأعم ، وقد استمدت موسيقى شعرها وأوزانها من التسابيح والصلوات التي كانت تستمع اليها أيام الآحاد والاعياد ، ولهذا عجزت عن ان تكشف عن عاطفتها المشبوبة ، وقد نظمت قبل وفاتها (سنة ١٨٤٥) بثلاث سنوات قصيدة

أطلقت عليها اسم ( السجين ) ظهرت فيها بعض آثار المتصوفة ، وان كنا لا نعلم هل اطلعت على تلك الآثار ام لا ، ولكننا نجد فيها تجربة صوفية واصطلات المتصوفين ، فلقد وصفت لنا شعور الالم عند الانفصام من الوحدة مع عالم الازل اللا متناهي قالت :

ايها الرعب الكابح ••• ان الالم ممض •
عندما تصيخ الاذن اسمع •• تنطلق العين في الرؤيا •
وعندما يختلج عرق الحياة •• يعود الذهن الى التفكير ،
وتتحسس الروح الجسد ، وعندها يتلمس الجسد اصفاده •

ولا ريب ان هذه الابيات تعكس احساسا عميقا بتجربة عميقة ، وانا لا اعلم لماذا اعتقد البعض أن قرض اميلي للشعر ما هو الا رياضة ادبية ، ولعلهم يشيرون بذلك الى وقوعها في الحب واخفاقها فيه ، وما أعقب ذلك من ألم حاد •

لقد كتبت هذه الاشعار حينما كانت تعمل في مدرسة للبنات ، في مقاطعة هاليفاكس ، ولم يتجاوز عمرها التاسعة عشرة ، ولم تكن لها الفرص الكافية لمقابلة الرجال ، مع علمنا بمبلغ نفرتها منهم — ومن المحتمل ، استنادا الى معرفتنا بفطرتها وطبيعة غرائزها ، أنها أحبت فتاة أو أكثر ، وقد كان ذلك حبها الوحيد في حياتها •

* * *

ان التعاسة حملتها على ان تغرس البذرة في أرض معطاء ، غذاؤها الاحساس ، بالعذاب والحرمان ، فكانت تلك الشجرة الباسقة ( مرتفعات ويذرنك ) ونستطيع القول ان أي كتاب آخر لا يمكن ان يداني المرتفعات من حيث بروز الالم والاستغراق في الهيام ، وضراوة الحب وقسوته • ان هذه الرواية لا تخلو من أخطاء كبيرة ،ولكن خطورتها لا تتعدى خطورة سيقان الاشجار المتساقطة ، والصخور المتناثرة ، وركام الجليد امام التيار المنحدر من أعلى القمم الى الوادي ، وقد يعرقل اندفاعه ولكن لا يمنعه أبدا •

ان لوحة من لوحات الفنان ( ألكريكو ) أقرب شبها بالمرتفعات ، حيث تنبسط امامك بطحاء فسيحة قاحلة تحف بها العتمة والجلال ، وتظللها سحب كثيفة ، تلمع في ثناياها ألسنة البرق الطويلة ، وتقصف الرعد المزمجر • وتلوح في جوانب البطحاء أشباح هزيلة ترتفع في أشكال ملتوية ، تؤخذ بعاطفة غير أرضية ، وقد حبست أنفاسها ، وتضفي ألسنة البرق المتلاحقة على المنظر كله رعب الاسرار والخوف من المجهول •

---

عرب معظمها بتصرف كبير عن كتاب :
Ten Novels And Their Authors by : W. Somerset Maugham.

# شاعر من الجزائر

فوزي عبد القادر الميلادي

عندما التقى الادباء العرب في المؤتمر الثاني للكتاب الاسيويين والافريقيين الذي عقد في الجزائر ١٩٦٢ استرعى انتباههم أن اعضاء الوفد الجزائري – وكانت معركة التحرير لا تزال على أشدها – لايجيدون الحديث أو الكتابة باللغة العربية بل ان بعضهم كان وهو يتحدث الفرنسية بطلاقة لا يفتأ يردد أن هذه هي احدى مآسي الاستعمار الفرنسي في الجزائر دانه قد حيل بينهم وبين تعلم لغة بلادهم كجزء من مخطط الدولة الباغية لتذويب عروبة الجزائر واسلامها .

من أجل ذلك كان اهتمام الاوساط الادبية في البلاد العربية كافة كبيرا بصدور كتاب « اللهب المقدس » وهو ديوان من الشعر العربي للشاعر الجزائري مفدى زكريا .

والشاعر مفدي زكريا لقبه الادبي « ابن تومرت » ولقبه النضالي « شاعر الثورة الجزائرية » وقد ولد في الجزائر في شهر ابريل ١٩١٣ وتلقى علومه في مدارس الجزائر ثم معهد الزيتونة بتونس وقد شارك في معارك تحرير الجزائر ودخل السجن خمس مرات متوالية الى أن فر منه في فبراير ١٩٥٩ .

وقد أهدى الشاعر ديوانه الى الدقيقة الواحدة من فاتح نوفمبر ( تشرين الثاني ) ١٩٥٤ الى أول اصبع جزائرية حركها الازل وحفظ بها القدر الرابض على زناد البعث لتنطلق القذيفة المسحورة الاولى فتسعر اللهب المقدس في دروب بلاده الحالمة وأحراشها السكرى ورمالها العطشى وجبالها الغضبى .

قسم الشاعر ديوانه الى خمسة فصول من أعماق بربروس ، تسابيح الخلود ، نار ونور ، تسبيحات شاعر ، من وحي الشرق .

الفصل الاول « من أعماق بربروس » هو أكثر فصول الديوان عناية بالثورة الجزائرية وأحداثها ويكاد يكون هو المعنى بعنوان « اللهب المقدس »

وبربروس هذا هو السجن الكبير الذي اعده المستعمرون للوطنيين من أبناء البلاد تنفذ فيه أحكام السجن والاعدام وتجري تحت سقفه أبشع صور التعذيب وقد أحسنت الحكومة الوطنية اذ أحالته بعد الاستقلال الى متحف تاريخي يروي مرحلة من مراحل كفاح الشعب الجزائري ·

من أعماق بربروس انطلق الشاعر في الهزيع الاخير من ليل ١٨ يوليو سنة ٩٥٥ وهو مكبل بالقيود ينشد قصيدة « الذبيح الصاعد » اثناء تنفيذ حكم الاعدام في أول شهيد دشن المقصلة المرحوم « أحمد زيان » بدأ الشاعر بتصوير الشهيد وهو يرتقي درجات المقصلة :

قام يختال كالمسيح وئيدا ... يتهادى نشوان يتلو النشيدا
باسم الثغــر كالملائك أو كالطفــل ... يستقبل الصباح الجــديدا
شامخا أنفه جلالا وتيهــا ... رافعا رأسه يناجي الخلودا
رافــلا في خلاخــل زغردت ... تملأ من لحنهــا الفضــاء البعيــدا !

ويعني الشاعر بتسجيل الكلمات الاخيرة للبطل الشهيد التي يوجه الحديث فيها الى جلاديه والى الموت ويعبر فيها عن عقيدته التي لا تتزعزع في أن استشهاده حياة لبلاده ·

« اشنقوني فلست اخشى حبــالا ... واصلبوني فلست أخشى حــديدا »
« وامتثــل سافرا محياك جــلا ... دي ولا تلتثم فلست حقــودا »
« واقض يا موت في ما أنت قاض ... أنا راض ان عاش شعبي سعيدا »
« أنا ان مت فالجزائر تحيــا ... حرة مستقلة لن تبيــدا »

ويعني الشاعر بابراز الحق والعدل في معركة التحرير فيتساءل :

أمن العدل صاحب الدار يعــرى ... وغريب يحتل قصرا مشيدا
ويجوع ابنها فيعــدم قــوتا ... وينال الدخيل عيشا رغيــدا

وفي نهاية القصيدة يعود الشاعر الى ذكر الشهيد (زيان) فيخاطبه ورفاقه مؤكدا لهم ان استشهادهم قد جعل المجاهدين أقوى عزما واكثر اصرارا على بلوغ الغاية وانهم يعاهدونهم على الجهاد حتى النصر ويختم قصيدته هكذا :

يا « زيانا » ويا رفاق « زيانــا » ... عشتم كالوجود دهــرا مديدا
كل من في البلاد أضحى « زيانا » ... وتمنى بأن يموت « شــهيدا »
انتم يا رفاق قــربان شعب ... كنتم البعث فيــه والتجــديدا
فاقبلوها ابتهالة صنع الرشاش ... أوزانها فصارت قصــيدا
واستريحوا الى جوار كريــم ... واطمئنوا فاننا لن نحيــدا

وكنت أود ان اعرض القصيدة كاملة لولا انها تقع في ٦٨ بيتا وهي تعد في مجموعها من أجود قصائد الديوان ولعل مرد ذلك في المرتبة الاولى الى أن المؤلف أجاد اختيار اللقطات الانسانية التي جعلها محورا لقصيدته · ان

اللحظة التي يقف فيها الانسان على مشارف الابدية يودع الحياة لحظة رهيبة لا شك ويزيد من رهبتها وجلالها في هذه اللقطة قسوة الظلم الذي يتعرض معه صاحب الحق لابشع انواع العقوبات التي ينزلها الانسان بأخيه الانسان عقوبة الموت .

ويزيد من رهبتها وجلالها أيضا الغاية التي جاد من اجلها الشهيد بروحه ومظاهر الايمان والعظمة النفسية التي لازمته حتى آخر لحظة من لحظات حياته .

ذلك بالاضافة الى وجود الشاعر وحيدا في زنزانة في ذات السجن على مقربة من مكان المأساة وفي حالة نفسية مهيأة للانفعال بالحدث .

كل ذلك أثرى القصيدة وأمدها بكثير من مقومات النجاح .
الصدق الفني ، قوة الانفعال ، البراعة في التصوير والعرض ..

وانه ولئن كان الشاعر قد تشعبت به السبل وهو يتحدث عن ثورة الجزائر ثم عاد في النهاية الى موضوع القصيدة الاصلي وهو الحديث عن الشهيد زيان الا أن ذلك لم يسلب القصيدة وحدتها الفنية لان أبيات القصيدة تشدها الى بعضها البعض وحدة عاطفية ووجدانية ، ذلك بالاضافة الى أن أجزاء القصيدة تعد في نهاية الامر بمثابة فروع لموضوع واحد هو تضحية الشعب الجزائري وكفاحه في سبيل حريته واستقلاله وكان الحديث عن استشهاد احمد زيانا بمثابة المدخل الى الحديث عن كفاح الشعب بأسره .

لكن والحق يقال القصيدة لا تسير على مستوى فني واحد ذلك أن الشاعر بعد أن أجاد تصوير موقف الشهيد وعواطفه وانفعالاته انزلق الى الاسلوب الانشائي . بل وعندما استنفد طاقته الفنية في تصوير اللوحات الاولى في القصيدة لم يجد حرجا في أن يستلهم من قصيدة شهيرة لحافظ ابراهيم بعض المعاني وحتى بعض الالفاظ .

أمن العدل صاحب الدار يعرى وغريب يحتل قصرا مشيدا!

هذا البيت لا يعدو أن يكون ترديدا للمعاني التي ترددت في قصيدة حافظ ( مصر تتحدث عن نفسها ) وعلى الاخص هذا البيت :

أمن العدل انهم يردون الماء صفوا وأن يكدر وردى

وان كان بيت حافظ يتميز بالرمز الذي أتاح له الشمول في المعنى فحافظ رمز في البيت الى صفو الحياة وتكديرها بصفو النبع وتكديره ... وصفو الحياة يشمل كافة الوان المتعة والسعادة والتكدير يشمل كافة ألوان الحرمان والشقاء في حين أن مفدى زكريا قصر المعنى في البيت على المقارنة بين العرى والعيش في القصر المشيد ...

والقصيدة التالية في الديوان « زنزانة العذاب رقم ٧٣ » لها يدورها قصة فقد زج بالشاعر في زنزانة مظلمة بسجن بربروس اثر ان اسلمته

زبانية العذاب للسجانين يوم ٢٨ إبريل ( نيسان ١٩٥٥ ) فهاجت في أعماقه المواجد وانطلق ينشد في ظلام الزنزانة :

يا سجن بابك أم شدت به الحلق   سيان عندي مفتوح ومنغلـــق
أم خازن النار يكويني فاصطفـــق   أم السياط بها الجلاد يلهبنـــي
ألقى الى القعر أم أسقى فانشـرق   والحوض حوض وان شتى منابعه
نطقا ورب ضعاف دون ذا نطقـــوا   سري عظيم فلا التعذيب يسمح لي

والبيت الاول من الممكن ان يرمز الى معنى كبير لا أدري هل استهدفه الشاعر أم لم يهدف اليه ذلك أن الجزائر كلها في ذلك الوقت سنة ١٩٥٥ كانت في قبضة الاستعمار بمثابة السجن الكبير فيستوى عند الوطنى الابى أن يغلق عليه باب السجن الصغير أم يخرج منه الى السجن الكبير .

والابيات التي جاءت بعد ذلك تصور جوانب متعددة من التعـذيب الوحشي الذي كان يتعرض له الاحرار في السجون ومع ذلك فلم يصبهـم وهن ولا ضعف ولم يستطع الجلادون أن ينتزعوا منه أسرار المعـركة .. ويعود الى مخاطبة السجن ثانية :

من يحذق البحر لا يحذق به الغرق   ياسجن .. ما أنت لاخشاك تعرفني
وذقت كأسك لا حقـد ولا حنـق   اني بلوتك في ضيق وفي سـعة
على صياصيك لا هم ولا قلق   أنام ملء عيوني غبطـة ورضى

وهذه الابيات تدل بوضوح على مدى وفاء الشاعر وتمسكه بتقاليـد الشعر العربي القديم فهو في البيت الاول استعمل ضربا من ضروب البلاغة هو الاطناب شمل الشطر الثاني بأكمله (من يحذق البحر لايحذق به الغرق ) .

وفي البيت الثاني استعمل ضربا من ضروب البـديع هو الطباق ( ضيق وسعة ) .

أما البيت الثالث فقد بلغ وفاؤه فيه القمة لابي الطيب المتنبي وهو القائل :

أنام ملء جفوني عن شـواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصـم

وينتقل بعد ذلك الشاعر الى مناجاة حبيبته سلوى وهو يمهد لهـذه المناجاة بهذين البيتين :

قد نام عنها رقيبي ليس يسترق   ورب نجوى كدنيا الحب دافئة
فالسجن عن ذكر سلوى كله عبق   عادت بها الروح من سلوى معطرة

والمعنى الذي تضمنه البيت الاول يعد غاية في الطرافة والابداع ... ان حارسه يستطيع ان يسترق السمع وهو يحول بينه بكيانه المادي وبين لقاء من يحب لكنه لا يستطيع رغم الحديد والنار أن يمنع روحه من أن تحلق حيث تعيش محبوبته وعواطفه وافكاره من أن يتجه اليها ... ففي أعماق كل

انسان قوي كامنة لا تستطيع أن تحدها الاسوار أو تكبلها القيود ...

ومن حديثه الى سلوى هذه الابيات :

| | |
|---|---|
| يا فتنة الروح هلا تذكرين فتى | ما ضره السجن الا أنه وحسق |
| هل تذكرين اذا ما الحفل حالفنا | اليك اهتفت يا سلوى فتتفق ! |
| أم تذكرين ولحن الموج يطربنا | اذ تفرش الرمل في الشاطئ وتعتنق |
| الموج ينقل في أصدائه قبلا | يندى لها الصخر حتى كاد ينفلق ! |
| تسابق الشمس نغزوها بزورقنا | فيسخر الموج منا كيف نلتحق |
| وتغرب الشمس تطوى في ملاءتها | سرين أشفق أن يغشيهما الشفق |

هذه الصورة للمحبين على الشاطئ قرب الموج ألا تذكرنا بصورة أخرى بأسلوب شاعر عربي معاصر في قصيدة غنائية لا زالت ترددها الاذاعات حتى الآن .

« يا فتنة الروح » اليست صنو « يا منية النفس » في قصيدة همسة حائرة ، « أم تذكرين ولحن الموج يطربنا » الا تعيد الى مسامعنا قول عزيز اباظة في تلك القصيدة ، هل تذكرين بشط النيل مجلسنا » واخيرا ... « وتغرب الشمس تطوى في ملاءتها » أليست قريبة من قول عزيز « وخلفنا الليل يطوي في غلائله » .

ويختم الشاعر قصيدته مؤكدا عزمه على مواصلة الجهاد ليكون لهم بمثابة العود الذي يحترق .

حسبي وحسب أناسي ان تفديتهم عودا يعطرهم ذكرى وأحترق !!

وقد خصص الشاعر الفصل الثاني من الديوان « تسابيح الخلود » للاناشيد الوطنية التي صاغها بمناسبة حركة التحرير ومن ذلك النشيد الرسمي للثورة الجزائرية ( فاشهدوا ) الذي نظمه بسجن بربروس بتاريخ ٢٥ ابريل ١٩٥٥ ويقول في مطلعه :

قسما بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الدافقات
والبنود اللامعات الخافقات في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فحياة أو ممات
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا

والذي يبين من خلال الاناشيد التي ضمنها المؤلف هذا الفصل أنه كان يتابع أحداث ثورة التحرير بوجدانه وقلمه وأنه قدم للثورة من وراء القضبان خلاصة فنه وفكره ليؤدي دوره في الهاب المشاعر وشحذ العزائم والصمود في المعركة حتى النصر .

والاناشيد بهذا الوضع تعد جزءا لا يتجزأ من تاريخ الثورة الجزائرية .

أما من الناحية الفنية فهي تدخل في عداد قصائد المناسبات .. لكنها ليست على أية حال مناسبة تخص فرحا بعينه أو أسرة بذاتها ولكنها تخص شعبا بأسره ولعل هذا هو الذي جعل لتلك القصائد والاناشيد قيمة تبقى بها على مر الايام رغم انتهاء حرب التحرير .

هذا عن المضمون اما عن الاسلوب فقد عمد الشاعر في هذه القصائد الى التعبير المباشر ولجأ الى الاسلوب الحماسي الخطابي واستخدم الالفاظ ذات الجرس الخاص التي تلائم الانشاد الجماعي وكان في هذا منطقيا مع نفسه لان هذه القصائد لم تكتب أساسا لتنشر على الناس في صحيفة أو كتاب وانما فاضت بها مشاعر الشاعر وجرى بها قلمه لتكون أناشيد جماعية يرددها الاحرار في الغابات والوديان وفوق قمم الجبال وعند السفوح وفي كل مكان كان جزءا من ارض المعركة .

وقد تضمن الفصل الثالث « نور ونار » مجموعة قصائد منوعة تدور حول كفاح الشعب الجزائري أثناء المعركة .

ومن أجود القصائد التي جاءت في هذا الفصل قصيدة أنا ثائر التي نظمها الشاعر اثناء فراره من السجن في طريقه الى المغرب سنة ١٩٥٩ يقول في مطلعها :

في الحنـايا
وسـواد الليـل قـاتم
مالت الالوان سـكرى
ثملات
أودعتها مهجة الاقدار سرا

في الزوايا
بين سـهران ونائم
ونجوم الليـل حيرى
حالمـات
ضارعات بث فيها الغيب أمرا

والمنـايا
بين مظلـوم وظـالم
مثقلات ضـغن صـبرا
جاثمـات
ظلن يرقبن متى يطلعن فجرا

قام كالمارد .. يرتاد المنـايا
وتهادى
يملأ العـالم بشـرى
وتحدى الدهر لا يخشى الرزايا

وتمـــادى
يغمـر الاكـــوان عطـــرا
ومضى يبني على هام الضحايا
وتنـــادي
يلهم التـــاريخ ســـفرا

هذه القصيدة أو بالاحرى هذه الابيات منها تستحق منا أن نقف أمامها قليلا نتأملها ونتأمل مواطن الجمال منها ٠

لقد رمز الشاعر الى الحالة التى سبقت قيام الثورة الجزائرية بالليـل القاتم وبالانطلاقة الاولى للثورة باشراقة الفجر ٠٠ لكنه لم يعمد الى صياغة ذلك في اسلوب خطابي حماسي وانما عمد الى اسلوب اقرب ما يكون الى الاسلوب القصصي أفرغ فيه كل ما أوحت اليه به الثورة والليل والقرار من معاني ٠٠ فجاءت صوره الشعرية وتعبيراته على السواء ٠٠ ذات حظ وافر من الاجادة والاصالة الفنية ٠٠

لقد أجاد تصوير الليل ٠٠٠ السواد قاتم والنجوم حيرى ٠٠ والناس في أحشائه فريقان سهران ونائم ٠٠ ومظلوم وظالم ٠٠

وقد حفلت الابيات بعديد من الصور المبتكرة ٠٠٠

الاكوان تميل وهي سكرى فتودع مهجة الاقدار سرا من الاسرار

والغيب يبعث في النجوم الحالمات الضارعات أمرا جللا

والمنايا وقد ضقن بالظلم يحشمن في انتظار هذا السر وذلك الامر ٠٠٠ اشراقة الفجر وقيام الثورة ٠٠

وقد تميزت تعبيرات الشاعر والفاظه بالجزالة والرقة وحـلاوة الجرس : الحنايا ، مالت الاكوان ، مهجة الاقدار ، حيرى ، حالمات ، ضارعات، تهادى ، بشرى ، يغمر الاكوان ، يلهم التاريخ ٠

هذه القصيدة تقف جنبا الى جنب مع قصيدة « الذبيح الصاعد » التي صدر بها الشاعر ديوانه ٠ ولا أغالي اذا قلت انها تعد في نظرنا قمة انتاج مفدي زكريا في هذا الديوان ٠٠ ومن يدري فقد تكون قمة انتاجه الشعري كله !!

والفصل الرابع من الديوان بعنوان « تنبؤات شاعر » وهذا الفصل يحوى ثلاث قصائد فقط أولاها « من يشتري الخلد ان الله بائعه ٠٠ » وقد القاها الشاعر بمناسبة تدشين دار ابن باديس للطلبة الجزائريين التابعين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقسطنطينة في ٢٥ أكتوبر ( تشرين الاول ) ١٩٥٣ أي قبل اندلاع « اللهب المقدس » بما يقرب من عام يقول فيهـــا :

| | |
|---|---|
| يا شاعر الخلد حق اليوم تخليـــد | وخالد الشعر قم أين الاناشـــيد |
| صغها على المحفل الجبار قافيـــة | يسمع لها من فم الاجيـــال ترديد ! |

وانزل بدارات (سرسا) مطرقا أدبا فبين أضلعها آباؤنا الصيد !
وامش الهوينة ففي احشائها أمم وفي جوانحها أسد معاميد

ولعل القارىء يلمس ما في هذه القصيدة من فتور في العاطفة وفقر في الصور الشعرية وتكلف في التعبير وتأرجح الشاعر بين معاني أبي العلاء في قصيدة « غير مجد في ملتي واعتقادي » وصياغة المتنبي في قصيدة « عيد بأية حال عدت يا عيد » .

وقد بدأ الشاعر الفصل الخامس « من وحي الشرق » بقصيدة القاها في مهرجان الشعر العربي الثالث الذي أقامه المجلس الاعلى للفنون والآداب في ٢٣ سبتمبر ( ايلول ) ١٩٦١ بعنوان رسالة الشعر في الدنيا مقدسة وختمه بقصيدة مطولة بعنوان « فلسطين على الصلب » وهي حوار بين الشاعر وفلسطين والعرب يبدأها هكذا :

أناديك في الصرصر العاتية وبين قواصفها الذارية
وأدعوك بين أزيز الدعوس وبين جماجمها الجاثية
وأذكر جرحك في حربنا وفي ثورة المغرب القانية

وبعد أن يطول بالشاعر الحديث ترد عليه فلسطين :

أيا شاعر العرب ذكرتني وهيجت جراحاتي الدامية

الى ان تقول عن قضيتها :

فلو كان لي أمر تدبيرها لما أخرت في أمرها ثانية
وكنت الجزائر في زحفها وحققت ـ بالشعب ـ آماليه
والهبتها فوق أرض الحمى وحررت بالشعب أوطانيه
وغسلت عارا على جبهتي وأنهيت بالهامة الحانية

ومن الحوار الذي أورده على لسان العرب هذه الابيات :

فلسطين لا تيأسي انني سأصلح في الشرق اخطائيه
لئن خنت فيما مضى انه يؤنبني ـ اليوم ـ وجدانيه

الى ان يقول :

أنا الشعب والشعب لا ينثني انا الحسر ان حلت الداهية

ويختتم الشاعر قصيدته والديوان كله بهذين البيتين على لسانه :

فان تنصروا الله ينصركم وينجز أمانيكم الغاليه
ولن يخلف الله ميعاده ولا ريب ساعتنا آتية

ورغم الروح الخطابية التي تشيع في جنبات القصيدة فان الشاعر استطاع أن يبعث فيها الدفء والحياة بهذا الاسلوب الحواري الذي اتاح له الفرصة لكي يعرض قضية فلسطين من زواياها المختلفة دون أن يتسرب الملل

الى القارىء أو السامع •

ولم ينس الشاعر ان يؤكد ومعركة تحرير الجزائر على أشدها أن الطريق الذي سارت فيه الجزائر هو الطريق الوحيد المؤدي الى النصر وانه لابد للعرب من سلوكه اذا ما ارادوا تحرير فلسطين من غاصبيها •

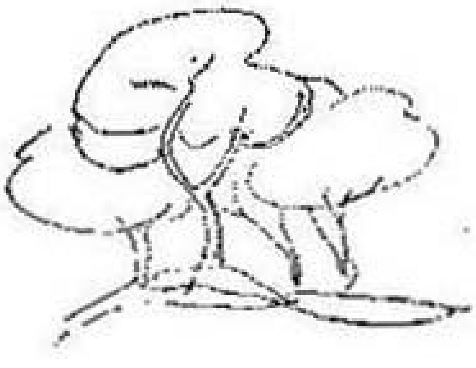
وقد بدت آثار ثقافة الشاعر الدينية في معهد الزيتونة واضحة في هذه القصيدة فيما اقتبسه من القرآن الكريم على النحو الذي رأيناه في الابيات التي عرضناها وعلى الاخص في قوله الصرصر العيسانية ـ فان تنصروا الله ينصركم ـ لن يخلف الله ميعاده ••

وبعد فهذا هو « مفدي زكريا » أول شاعر جزائري أخرج للامة العربية ديوانا مطبوعا من الشعر العربي •

وهذا هو اللهب المقدس تسجيل حافل للجليل والهام من أحداث الثورة الجزائرية وقد يختلف الرأي حول مستويات الكتاب الفنية ويشتد الجدل حول بعض القصائد بالذات لكن الذي لا مراء فيه ولا خلاف حوله هو أن هذا الديوان يعد لبنة غالية وعزيزة في صرح الشعر العربي في الغرب والشرق على السواء •

والف تحية لثورة الجزائر وشعراء الجزائر •





# الادارة او التنظيم الاداري في العصر العباسي

د. كمال بن زائد العزيزي

اعتقد ان الكثيرين قد سبقوني الى الحديث عن الادارة بمعناها الضيق ، أي ادارة دائرة معينة من الدوائر العامة ، أو الشركات أو المؤسسات •

أما انا فأريد أن احدثكم عن النهج الاداري على مستوى عام ، فلابد اذا من محاولة لتحديد الادارة بهذا المعنى •

## تحديد الادارة :

وأظن اننا عندما نقول : « أن الادارة هي تنظيم السلطة ، وتحديد مدى صلاحيات رجال السلطة فيما بينهم ، ونحو الافراد » وعلى هذا الاساس نكون قد وضحنا مفهوم الادارة بالنسبة الى موضوع هذه المحاضرة •

واعني بالسلطة في هذه المحاضرة جميع المؤسسات المتفرعة عن السلطة التنفيذية باعتبارها هي السلطة الادارية •

ولما كان موضوع محاضرتنا هو الادارة أو التنظيم الاداري على الاصح في الانبراطورية العباسية ، رأيت من واجبي أن الم المامة عامة بالاطوار التي مرت بها هذه الانبراطورية لـكي نتلمس بشكل حيوي النهج الاداري الذي فرضته هذه التطورات ، الاجتماعية والسياسية وتمهيدا لهذا لابد لنا من التعرض لانتشار الاسلام الذي نشأت عنه الخلافة التي كانت محور السلطة في كل عصر من عصور الدول الاسلامية •

## انتشار الاسلام :

يعتبر علماء الاجتماع والتاريخ ان انتشار الاسلام بادرة فريدة في تاريخ الانسانية ، ويرى الكثير من الباحثين ان انتخاب الخلفاء الراشدين جرى بطريقة تكاد تكون معجزة ، لانها مناقضة لخلق البداوة • اما دولة بني أمية فقد انتصرت على كل الصعوبات والفتن الداخلية ، وركزت سلطاتها في ذلك المنصب الرفيع أعني الخلافة التي جعلها الامويون وراثية فسيطروا على البلاد سيطرة فعالة ، واستطاعوا أن يفتحوا بلادا جديدة ، أضافوها الى البلاد التي تسلموها من الخلفاء الراشدين ، وتمكنوا أن يديروا البلاد بالاستبداد مستعملين الارهاب حينا ، والرشوة أحيانا •

فقد كان داهيتهم معاوية بن ابي سفيان يقول : « لو كان بيني وبين الناس شعرة ، ما جعلتها تنقطع ، ولعل معاوية هو أول من حدد الادارة تحديدا يدل على صعوبة الادارة ، اذ اعتبرها مجموعة من المعضلات التي تحتاج الى الحل السريع الذي يعتمد على المعية رجل الادارة ، وذكائه المبتكر . فسمي الادارة ( معاناة قلوب الرجال ) فقال متضجرا : « معاناة نقل الجبال ، أخف علي من معاناة قلوب الرجال » .

## سقوط دولة بني أمية :

لا نريد أن نبحث عن الاسباب التي اودت بدولة بني أمية . ولكن لابد لنا من القول أن الفتن الداخلية والشقاق الذي عجز بنو أمية ان يصدوا تياره قد عصف بهذه الدولة التي أرست اسسها على القومية العربية ، وابرزت الشخصية العربية ايما ابراز . لكن اتفاق ذرية علي ، وذرية العباس عم النبي الكريم ، أجهز اجهازا نهائيـا على سلطة بني أمية . لـكن محاولة العباسيين أن يسحقوا الامويين ، وغدرهم بحلفائهم ذرية علي ، واستعمالهم الارهاب المخالف لسماحة الاسلام ، والبعيد عن التسامح العربي ، زرع دولة بني امية في الاندلس ، وغرس دولة الادارسة الشيعية في مراكش والجزائر .

## دولة بني العباس تذل العنصر العربي :

ودولة بني العباس قامت على اتهام العرب وسوء الظن بهم ، وتأسست بسيوف الفرس وقد كتب مؤسس الدولة العباسية ( ابراهيم بن محمد بن علي ) قبل السفاح الى أبي مسلم : « ان استطعت ان لا تدع في خراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه فاقتله » . وما دام الامر كذلك فليس عجيبا ان يفقد العباسيون العنصر العـربي امتيازاته ومزاياه ، مع هذا فلابد من الاقرار بفضل العباسيين الذين طبعوا ثقافة العالم بطابع العروبة ، اذ ترجمت كتب الطب والفلك والكمياء الى العربية ، فأصبحت اللغة العربية سيدة لغات العالم ، بما تدفق في محيطها من روافد العلم ، واضحت اغنى لغات الدنيا بما ضمت من كنوز المعرفة والحكمة الانسانية . وعلى الرغم من اذلال العباسيين للعنصر العربي ، فانهم اظهروا تسامحا يحمد لهم ، لانهم تبنوا رجال العلم من غير العرب ومن غير المسلمين، فكانت معاضدة العباسيين للعلم والادب مثالا يحتذى ، ولعله من مفاخر العباسيين ، لا بل من مفاخر التاريخ العربي ، ان يكون العرب أسبق أهل الارض كافة الى فرض الغرامة الحربية على المغلوبين كتبا علمية فكانت الجمال التي هي أشهر وسائل النقل يومذاك تدخل بغداد محملة كتبـا علمية ، فرضت غرامة على المغلوبين .

### أ ـ أشنع اغلاط الدولة العباسية :

ولعل اشنع ما وقعت فيه الدولة العباسية من الاغلاط :

أ ـ وقوفها من العرب موقف الناقم طالب الثأر • ب ـ واتباعها نظام الاقطاع • ج ـ واتباعها نظام المركزية في اول الامر ووقوفها موقف الحياد من الامور فيما بعد •

### الدولة العباسية في القرن التاسع للميلاد :

لكن ما عتمت الدولة العباسية ان أصبحت انبراطورية يستحيل أن تساس على الطريقة المركزية لذا أخذ المغامرون يقتطعون منها دويلات قصيرة العمر • اما الخلفاء ، فقد احتفظوا بالعراق وبلاد فارس الغربية وعادت جزيرة العرب الى عزلة تكاد تشبه عزلتها في أيام الجاهلية ، ولولا أن ذكر الخلفاء كان يجري في الخطب الدينية ، لعد الخلفاء بعض اولئك الامراء والسلاطين والملوك •

### الثقافة العربية في عهد العباسيين :

وعلى الرغم مما أصاب الانبراطورية العباسية من تفكك سياسي ، فان الثقافة العربية قد بلغت اوج ازدهارها فترجمت كتب الفلاسفة والرياضيين من اليونان ، بفضل من نبغ في بلاط بني العباس من النصارى والنساطرة واليهود الوثنيين ، ولما استوعبت العلوم المترجمة وجاء دور التأليف ، ونبغ في ظل الخلافة العباسية جماعة من افذاذ العباقرة ، صنفوا من الكتب ما يفتخر به العقل العربي ، وقد ظل هذا التراث الضخم كل أيام القرون الوسيطة ، وأيام نهضة اوربا غذاء للعقل الانساني ، ولعل الانصاف يفرض علينا ان نذكر أن حملة العلم هؤلاء الذين اغنوا لغتنا الشريفة بثمرات عقولهم ، وسجلوا لنا انصع صفحة في تاريخ الانسانية ، لم يكونوا عرباً دماً ، وان كانوا عرباً بلغتهم وبمزاجهم • وممن نذكرهم نحن بفخر ويذكرهم العالم باجلال :

أ ـ الخوارزمي الذي كتب في الهندسة والجبر والحساب والمثلثات والفلك •

ب ـ البستاني الذي الف في الجغرافية وعلوم المعادن والكيمياء ، والبصريات وعلم النبات •

ج ـ الرازي الذي كتب في الطب ، وهو أول من نبه على اعراض السل ، ونبه على الفرق بين الحصبة والجدري ، واستعمل المرقد ، وراقب المرض مراقبة سريرية في نحو خمسين حالة •

**اذلال الخلافة ـ بسيادة البويهيين ـ نشوء التصوف ، ونشوء فرقة الاسماعيلية والقرامطة :**

لما تمت السيادة لبني بويه وهم من غلاة الشيعة أصاب الخلافة وهن مخيف واذلال محزن ، ونشأ التصوف عن السنة ، ونشأت فرقة الاسماعيلية والقرامطة عن غلاة الشيعة ، وأخذت تنافس خلافة بغداد خلافة شيعية في تونس سنة ٩٠٦ وخلافة اموية في الاندلس سنة ٩٢٦ ، وجاءت الدولة الفاطمية الشيعية وطردت بني الاغلب من تونس ، واستولت على مراكش وصقلية ، وانتزعت مصر وجنوبي الشام من الاخشيديين سنة ٩١٩ واسست القاهرة ، ونقلت اليها مقر الخلافة سنة ٩٧٢ .

**فتنة القرامطة :**

وابتدأ القرن العاشر للميلاد بفتنة القرامطة ، الذين أخذوا يقرعون ابواب بغداد ، وتمكن القرامطة من الاستيلاء على مكة سنة ٩٣٠ ، واستحدث أبو الحسن الاشعري مذهبا سنيا سفه به مذهب المعتزلة . لكن بغداد ظلت كعبة العلم والثقافة في عهد عضدالدولة وشرف‌الدولة البويهيين اللذين رعيا البحوث الفلكية والرياضية .

**بلاط بني حمدان :**

وفي هذا الدور كان بلاط بني حمدان في حلب والموصل يعج بالعباقرة من جميع الاجناس .



**وبلاط بني سامان :**

ومثله بلاط بني سامان ـ وكان ممن نبغ في هذا الزمن :

المسعودي ، الطبـري ، المتنبي ، والفارابي الفيلسوف ، صاحب النظريات في الموسيقى والاصفهاني صاحب كتاب الاغاني ، وأبو الوفاء ، والجراح أبو القاسم . وشاعت في هذا القرن الارقام الهندية ، وصنف كتاب ألف ليلة وليلة ، وحاول العرب أن يتفوقوا على الفرس من الناحية العقلية ، فالفوا في الانساب والتاريخ وفقه اللغة ، والفت رسائل اخوان الصفاء ، وهي خمسون رسالة فلسفية على الطريقة الغنوصية ، وكان جهد العرب العلمي متفوقا على كل جهد بذل في عواصم العالم حتى القسطنطينية نفسـها .

**السلاجقة الترك يشوهون وجه التسامح العربي :**

وفي مستهل القرن الحادي عشر ، كان السلاجقة الترك الذين انتصروا

على البوزنطيين قد أخذوا يضيقون على حجاج النصارى تضييقا أثار حفيظة البابا « اوربان » الثاني سنة ١٠٩٥ ، اثارة انتجت الحملات الصليبية التي أساءت الى الشرق والغرب بما زرعت من احقاد وما أشاعت من خراب وفساد ٠

وعلى الرغم من كل تلك الهزات العنيفة ، فان العالم الاسلامي الذي تمثله الانبراطورية العباسية ، كان قد احتكر العلم ، بحيث لم يعد في العالم بقعة تستطيع ان تنافس العالم الاسلامي فنبغ :

أ ـ البيروني الذي قال عليه ( سخو ) أنه أعظم عقلية عرفها التاريخ ٠
ب ـ ابن سينا الطبيب الفيلسوف الذي قال عليه سارتن أنه أعظم علماء الاسلام وأنه من أشهر المشاهير العالميين ٠
جـ ـ وابن الهيثم الذي تخصص في البصريات ٠
د ـ الغزالي حجة الاسلام ٠
هـ ـ ابن يونس الفلكي ، والحجة في الحساب والمثلثات ٠
و ـ والكرخي العالم في الرياضيات ٠

وفي هذا الدور ظهر جماعة ينافسون علماء العرب ، وينافسون اللغة العربية نفسها لانهم كتبوا ما انتجت قرائحهم بالفارسية ، أمثال الخيام الشاعر ، والعالم الرياضي ، والفردوسي المؤرخ والشاعر وغيرهما ٠



## الصليبيون في القرن الثاني عشر :

وفي القرن الثاني عشر أخذ الصليبيون يضربون كل ما واجههم في طريقهم وليس لهم من غرض سوى التدمير ، لكن النشاط العقلي عند المسلمين ظل عظيما على الاجمال ، الا أنه في نهاية هذا العصر أخذ أصحاب الجدل ، والرجعيون من أهل الجمود ، يضربون عقول الناس بالعقم والجمود ٠

## بؤس العرب ونهاية الدولة العباسية في القرن الثالث عشر :

لقد كان القرن الثالث عشر حاق ما وصلت اليه حالة العرب من البؤس ، اذ دمر هولاكو حفيد جنكيزخان المغولي الخلافة العباسية ، ودمر بغداد ، واذل العرب والاسلام أشنع اذلال عرفه تاريخ بني الانسان ، فأخذت الثقافة تنتقل الى الاوربيين ، وان كان قد ظهر بين المسلمين من متصوفة العلم ورهبانه أمثال :

أ ـ ابن البيطار النباتي الشهير ٠
ب ـ ونصرالدين الطوسي الفيلسوف الرياضي ٠
جـ ـ وابن خلكان صاحب التراجم المشهور ٠

والآن بعد ان صورنا الجو الذي كان مخيما على الانبراطورية العباسية من يوم نشوئها الى اليوم الذي وئدت فيه تلك الانبراطورية التي ورثت الانبراطورية الفارسية ، والانبراطورية الرومانية · نتقدم الى الناحيـة الادارية :

**انشاء الدوائر العامة :**

فهذا الارث الذي ورثته الانبراطوريـة العباسـية فـرض عليهـا انشاء الدوائر العامة :

أ ـ الوزارات بأنواعها ·
ب ـ الامارات بأنواعها ·
جـ ـ الدواوين بأنواعها ·
د ـ لقب السلطان ·
هـ ـ لقب الملك ·
و ـ القضاء بأنواعه ·

وهنا لابد لنا من التنبيه على نقطة وهي أن العرب سموا الوزير أميرا حينا وسلطانا حينا آخر ودعوه في بعض الاحيان زعيما ، وسنوضح ذلك في مطاوي كلامنا ، أجل هذا فرض انشاء الدوائر العامة ـ تلك السلطات المستقلة · وقد جاء انشاؤها خاضعا لقواعد ونظريات حقوقية غرضها تسيير العمل المنتظم الدائم لهذه الدوائر ، لسد الحاجات العامة بأسرع ما يمكن ، وعلى أكمل وجه ممكن ·

**القائمون على الادارة :**

ومن هنا كان القائمون على الادارة العامة لهم أوضاع حقوقية معينة ، تختلف عن أوضاع القائمين على الادارة في عصرنا ·

**النهج الاداري :**

ومن المعلوم ان الكيان الاداري يقوم على وحدة أعمال الادارة وشمولها لجميع أفراد الدولة ، والامتدادا لهذا المفهوم نستطيع ان نقرر أن النهـج الاداري في العصر العباسي ، كان يقوم على مفهوم المركزية ، كما كان في العصر الاموي والعصر الراشدي · وقد كان يقضي في هذه الدولة التي ورثت أملاك الروم والفرس بقضاء دستوره القرآن الكريم ، وكان الجهاز الاداري مرتبطا ارتباطا كليا بالخليفة ، وكان التعيين هو المبدأ السائد في المناصب كلها ، سواء أكان ذو المنصب وزيرا ، أو أميرا ، أو رئيس ديوان أو سلطانا · أو ملكا ، أو قاضيا · وبذلك تتجمع القوة والعمل في السلطة

المركزية ، وبذلك ينتج النظام التسلسلي ، لحاجة العناصر المركزية لاشخاص ينفذون أوامرها في أطراف الدولة ، فيكون رجال الدولة في هذا النهج كالهرم فمن الاعلى الى الادنى حتى القاعدة وقد كان هذا النهج السائد في اوربا في تلك الحقبة ، وما قبلها فكانت الانبراطورية الرومانية المقدسة تسير على النهج الاداري المركزي ، كما كان الامر في الانبراطورية العربية ٠

**موازنة بين الانبراطورية الرومانية المقدسة والدولة الاسلامية :**

لقد تشابهت الانبراطورية الرومانية المقدسة والدولة الاسلامية من حيث ادعاء كل منهما انها وجدت بمشيئة الله ٠ لكنهما اختلفتا اختلافا عميقا في الجذور التاريخية لكل منهما ، فالنظام السياسي في الغرب كان امتدادا لمؤسسة موجودة تاريخيا ، وكل ما صنعه الغرب أنه حاول تنصير هذه المؤسسة الوثنية التي كانت قائمة قبل النصرانية ، وربط واقعها الديني بتلك الجذور التاريخية قبل النصرانية ٠ وبالتالي بعث السلطة الزمنية مطبوعة بطابع مسيحي ٠

اما الدولة الاسلامية او على الاصح الخلافة الاسلامية ، وما يتبعها من تنظيم اداري فقد جاءت من غير تصور متعمد ٠ أي ان الخلافة وما تبعها من تنظيم اداري وسياسي كان وليد المرحلة الزمنية والنظام الاجتماعي الذي نشأ عن الفتوحات الضخمة ، والامم المختلفة التي صهرها الحكم العربي في بوطق[1] عبقريته ، ولم يكن احياء لاية مؤسسة سياسية أو ادارية في زمن سبق ، بصرف النظر عن انتخاب الخليفة في العصر الراشدي الذي لم يسر عليه العصر الاموي ولا العصر العباسي ٠



**النظام الاجتماعي يفرض لونا من الادارة :**

واذا كان النظام الاجتماعي في أية مرحلة من مراحل تطور المجتمع أي مجتمع ، يفرض أنظمة سياسية وادارية واجتماعية معينة ، تجد ان التركيب الاجتماعي العربي قد فرض نظام المركزية المطلق في الحكم في العصر الراشدي ٠ والعصر الاموي ، والعصر العباسي ٠ وتلاه عصر الانحطاط بغزوة هولاكو كما رأينا ، وحطم الحضارة العربية التي كانت تتوثب لمرحلة الثورة الحقوقية ، واستسلم المجتمع العربي للغزاة ، واجتاحت اوربة فيما بعد المرحلة الميركانتيلية الثورة الصناعية ، والثورة الحقوقية وانقذ الفقهاء المؤسسات الحقوقية السائدة ، وطوروا مفهوم فصل السلطات ، وأصبحت الافكار الديمقراطية تغزو التفكير السياسي ، وارتفع مستوى النظام الاجتماعي في اوربا ، وأخذ مفهوم اللامركزية في النهج الاداري يفرض وجوده

(١) في محيط المحيط البوتقة ، وقد نبه على هذا الوهم العلامة العراقي الكبير الاب انستاس ماري الكرملي في كتابه اغلاط اللغويين الاقدمين ص ٣٤٥ ٠

في الحكم الاوربي ولاسيما في فرنسة ، وكان ادخال العناصر اللامركزية قد استهوى مفكري العرب في أواخر العهد العثماني وأصبحت كلمة اللامركزية مرادفة للتحرر • ومن هنا أخذ أحرار العرب الذين لم يكن غرضهم في أول الامر أن ينفصلوا عن الانبراطورية العثمانية ، أخذوا يطالبون باللامركزية ، فدفع الكثيرون من هؤلاء الاحرار أرواحهم ثمنا لهذا الطلب •

**النظام التسلسلي :**

يقوم النظام التسلسلي على حقوق الادارة الشخصية للاعلى على الادنى ، فلا يستطيع رجال الادارة الاولى في المركزية أن يخرجوا على ارادة الرجل الاعلى ، كما يخضع الادنى الى حق الافراد بالاشتكاء من رئيسه الى من هو أعلى منه بطريق الظلامة • بهكذا كان وضع الادارة في العصر العباسي •

**الادارة في العصر العباسي :**

ان التقصي يدلنا على ان الادارة في العصر العباسي ، قبل أن يدرك الدولة الهرم السياسي ، كانت تسير على أسس منظمة ، تشبه أنظمة الممالك الحديثة ، ويمكننا ان نقول أنها كانت من بعض الوجوه أرقى مما هي عليه الآن في بعض الدول العصرية اذ كانت المناصب مفتوحة أمام الجميع على السواء ، لا فرق بين المسلمين والنصارى واليهود والهنود ، وليس أدل على الفرق بين الدولة الاموية والدولة العباسية من كثرة التشكيلات في الدولة العباسية ، تلك التشكيلات التي أخذت بها الدول الاسلامية المتعاقبة وسارت على نمطها •

**الخليفة هو الرئيس الاعلى للدولة :**

وكان الخليفة هو الرئيس الاعلى للدولة ، وليس في استطاعتنا اليوم أن نتصور مقدار القداسة التي كان ينالها الخليفة أو منصب الخلافة على أثر مبايعته ، فقد كان الدعاء للخليفة في كل مكان ، والصلاة التي تقام في المساجد الجامعة ، ولاسيما الحرمين تكسب الخليفة والخلافة هالة من القداسة ، لا يمكن ادراك مداها ، فكان ذلك مصداقا للقول المأثور : « صوت الشعب من صوت الله » ( فوكس بوبولي فوكس ديي ) •

واعتقاد الناس أن جميع القوانين والاحكام التي يسوس بها الخليفة أمته من صوت الله كان يعرف عندهم باجماع الامة فمبايعة الخليفة معناها أنه أصبح أميرا للمؤمنين وهو مصدر الحكومة الشرعية وله وحده حق تعيين الولاة والسماح لهم أن ينظروا في الاحكام ، يؤم الناس في الصلاة ، لذلك كان السلاطين والملوك والامراء الذين يقفزون الى السلطة بالقهر ، كانوا يحاولون تثبيت سلطتهم بموافقة الخليفة على سلطتهم ، وتثبيت الخليفة

لامثال محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي ، معناه ان كل ثائر عليهم يعد كافرا زنديقا • وكانت موافقة الخليفة تتم بعقد وتشريف قوامه عمامة منضدة بالجوهر ، وسيوف واعلام •

وقد استحدثت الدولة العباسية بفضل عبقرية المنصور نظما سارت عليها الدول التي انفصلت عنها • وقد تحول المنصور عن ادارة الخلافة الاموية التي كانت استبدادية ، ولم يلطف من حدة استبدادها الا حرية الرأي المعروفة عن العربي ابن الصحراء ، واخلاص بعض الاتقياء والعلماء الذين كانوا يتعرضون للخليفة بالزجر ، وسلاحهم في ذلك بعض الآيات القرآنية ، وقد كانت الخلافة على الرغم من المجلس الاستشاري غير الرسمي الذي استحدثه المنصور وكان مؤلفا من الوزراء الذين عرفوا لاول مرة في تاريخ الاسلام في هذا الدور ومن أفراد الاسرة المالكة البارزين •

وكان الخليفة كما المعنا مصدر السلطة ، والوزير نائبه ، فكان على هذا الاساس يستعمل السلطة باسم الخليفة استعمالا مطلقا ، ويشرف على الرسائل الرسمية ، وعلى واردات الدولة ونفقاتها وعلى تعيين موظفين وعزلهم وكان يجمع في شخصه رئاسة الادارتين العسكرية والمدنية ، وكان يساعد الخليفة في أعماله العادية •

أجل كانت هذه هي مهام منصب الوزير ، لكن تراكم الاعمال ، جعل قيام الوزير باعماله بشخصه مستحيلا ، فصار يجب عليه ان يستعين بموظفين يساعدونه ، على شرط ان يكونوا تحت اشرافه ومن هنا برزت فكرة الادارة المركزية أو التمركز الاداري في العصر العباسي •



## أول حكومة دستورية في العصر العباسي :

كانت أول حكومة دستورية تطورت عن الاوتوقراطية العباسية قد انشئت في عهد المأمون فيلسوف الخلفاء ، فقد أسس لاول مرة مجلس شورى نظاميا للدولة ، يمثل جميع الطوائف التي تعترف بسلطة الخليفة ، وقد منح نواب الامة مطلق الحرية فلم يحل بينهم وبين حرية الرأي والمناقشة •

وقد تحولت هذه المجالس يوم انحطاط الخلافة الى مجمع ديني ، ويحدثنا المؤرخون أن مجلس صلاح الدين الايوبي كان منتظم الانعقاد ، برئاسة السلطان أو برئاسة القاضي الفاضل ، للنظر في شؤون الدولة ، وكان أعضاء هذا المجلس يرافقون السلطان حتى في أثناء الحروب والغزوات •

## جهاز المباحث في الدولة العباسية :

وكان للخلفاء مكاتبون سريون ، ينقلون لهم أدق الاسرار ، فكان الخليفة يرى ويسمع كل ما يدور في جلسات الناس ، ويقال ان الخليفة

الناصر لدين الله الذي بويع بالخلافة في ٣٠ آدار سنة ١١٨٠ وظل خليفة ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وهو أطول خلفاء بني العباس مدة توفي سنة ١٢٢٥م في السادس من تشرين الاول كان يعرف كل ما يقع في بلاده ، وفي البلاد المجاورة حتى اعتقد الناس أن له اتصالا بالجن • وكان الخليفة يعتمد على أشخاص غير رسميين لالتقاط الاخبار من تجار وغيرهم ، ولما تحولت الخلافة سلطة دينية أصبحت وظائف هؤلاء المخبرين مندوبين يتولون عن الخليفة في بلاط نيسابور ومرو والموصل ودمشق كسفراء البابا في أواخر العصور الوسيطة في اوربا • وكان هؤلاء المندبون يصحبون الملوك الذين يمثلون الخليفة في قصورهم ، ويصحبونهم في حروبهم ، كما أقاموا فعلا في معسكر ألب أرسلان ، وملكشاه ونورالدين وصلاح الدين ، وكان الملوك يعينون لهم مندوبين عند الخليفة ، يطلقون عليهم ( شاهناس ) لان التنافس كان شديدا على بسط النفوذ على بلاط الخليفة لانه مصدر السلطات الشرعية ، وقد حصل مثل هذا تماما في روميـــة •

وقد كان غرض الانبراطورية العباسية في أوائل عهدها أن تثبت أسس ملكها ، ومن أجل هذه الغاية توقف الخلفاء العباسيون عن الفتوحات والغزو ، فلم يبعثوا الجيوش الى مصر العليا والديلم وكابول ، لقمع القبائل المتوحشة ، اما حروبهم مع الروم فلم تكن الا تاديبا لهم لانهـم كانوا ينقضون العهود •



**الوزارة في العصر العباسي :**

كان أول وزراء بني العباس أبا سلمه حفص . بن غيات بن سليمان الهمداني ، وزير السفاح ، وهو أول من سمي وزيرا في الاسلام ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت ، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها ولما نكب هذا الوزير قال الشاعر :

أن الوزير وزير آل محمـــد          اودى فمن يشناك كان وزيرا

**أنواع الوزارات :**

وكانت الوزارة تقسم الى قسمين :

١) وزارة التفويض مثل امارة الاعمال ، وفيها يستوزر الخليفة رجلا يفوض اليه تدبير الامور برأيه ويحكم فيها باجتهاده فيتولى كل الامور التي يمضيها عن الخليفة الا ثلاثة أمور :

أ ـ ولاية العهد •

ب ـ لا يحق لهذا الوزير أن يعزل من يريد الخليفة أو يعزل من يوليه

الخليفة وللخليفة أن يعزل من يوليه الوزير .

جـ ـ لا يحق لهذا الوزير ان يستعفي الامة من الامامة .

ومن وزراء التفويض آل برمك ، ويحي بن أكثم ، وابن الفرات وكان بنو العباس يسلمون لوزرائهم الخاتم ويختمون به الكتب .

## ٢) وزارة التنفيذ :

وسلطة الوزير فيها مقصورة على تنفيذ ما يراه الخليفة فيكون الوزير واسطة بين الخليفة والرعية ، فيمضي ما يأمره الخليفة من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد من مهم الامور وما تجدد من الاحداث الملحة ، خلافا لوزير التفويض ، فانه يولي ويعزل كما يشاء ، ويقضي ويمضي بلا حد ولا قياس وللخليفة أن يستوزر وزيرى التنفيذ ، أحدهما للحرب والآخر للخراج ، ولكنه في الغالب لا يستوزر الا وزيرا واحدا .

وقد كان راتب الوزير في عهد المقتدر على الله العباسي الخليفة الثامن عشر الذي قتل سنة ١٠٣٢م ٣٢٠هـ لوزيره ( علي بن عيسى ) الذي اشتهر بعفة نفسه ، كان راتبه الشهري خمسة آلاف دينار أما راتب الوزير في الدولة الفاطمية فكان على هذه الصورة :

أ ـ راتب الوزير مشاهرة خمسة آلاف دينار (٥٠٠٠) .

ب ـ راتب لكل واحد من اخوته وأبنائه من ٢٠٠ ـ ٣٠٠ دينار شهريا .

جـ ـ راتب كل واحدمنحواشيهم من ٣٠٠ ـ ٥٠٠ دينار شهريا .

ما عدا الاقطاعات وما كان يدفع لهم من الهدايا في المواسم وما يخلع عليهم من الخلع في الاعياد ونحوها وربما يلغ راتب الوزير وتوابعه وما يلحقهم من الاقطاع مائة ألف دينار في السنة .

لان الوزارة أم الخطط السلطانية واسمها يدل على مطلق الاعانة فالكلمة مأخوذة اما من المؤازرة وهي المعاونة ، أو من الوزر وهو الثقل ، وكان الوزير يحمل اوزار الملك واثقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة .

### تقسيم الوزارات فيما بعد :

لقد قسموا فيما بعد الوزارة الى أربع وزارات :

١ ـ وزير المالية

٢ ـ وزير الخارجية

٣ ـ وزير ادارة القضاء والنظر في حوائج المتظلمين

٤ ـ وزير لادارة الجيش ودفع رواتبهم وحماية الكافة ويشبه وزير الدفاع وقد يسمى وزير دفاع .

ولكي يميزوا الوزراء الذين كانوا يديرون شؤون الدولة من أعضاء مجلس الخليفة ، كانوا يسمون الوزير من القسم الاول بالوزير ذي الوزارتين

وكان كبير الوزراء يسمى الحاجب ، وهو يتصل بالخليفة رأسا ويتلقى منه الاوامر ، وكانوا يجلسون في ايوان واحد - غير أن كرسي الرئيس كان أعلى من كراسي بقية الاعضاء .

أما المستشارون الخاصون ، فكانوا كالوزراء يجلسون مع الخليفة في ايوان الخلافة ، وكان ثمة وكلاء او كتاب دولة من جملتهم هؤلاء الكتاب .

أ - كاتب الرسائل
ب - كاتب الزمام ، وكان يعهد اليه ان يعتني بأهل الذمة .
جـ - واخر يعهد اليه الاشراف على الحسابات العامـة ويسمى صاحب الاشغال وكان منصبه يقابل منصب وزير المالية عندنا .

## الدواوين - الدواوين الكبرى - الدواوين الصغرى :

كان في الدولة العباسية دواوين عديدة وكانت هذه الدواوين تقسم الى دواوين كبرى ودواوين صغرى أما الدواوين الكبرى فهي :

أ - ديوان الخراج
ب - ديوان الضياع السلطانية
جـ - ديوان الزمام - قلم مراقبة الحسابات
د - ديوان الجنـد .
هـ - ديوان الموالي والغلمان
و - ديوان البريـد
ز - ديوان زمام النفقات
ح - ديوان الرسائل
ط - ديوان التوقيع
ي - ديوان النظر في المظالم
ك - ديوان الاحداث والشرطة .. وكان لكل مدينة شرطة خاصـة برتب عسكرية خاضعة لرئيس يسمى ( صاحب الشرطة ) وهي تختلف عن الشرطة المدنية في الواجبات التي تقوم بهـا . وتقسم مـن حيث الاختصاص الى فرق أو أقسام على حسب أقسام المدينة . وكانت كل فرقة تقوم بحماية ارواح وأملاك السكان في منطقة معينة ، وكانوا يسعون ليلا بين المنازل والشوارع برئاسة ضابطهم وكانت تدفع لهم رواتب حسنة ، ومن هذا نرى أنهم كانوا يقومون بأعمالهم بكل دقة واخلاص، وكان منصب رئيس شرطة بغداد يعادل مرتبة الحاكم أو الوالي ، وقد شغل هذا المنصب في عهد المأمون طاهر بن الحسين حينا من الزمن . الى ان استعمل على خراسان ، وقد صار هـذا المنصب فيما بعـد ترشيحا للوزارة .
ل - ديوان العطاء أو ما يشبه دائرة حسابات الجيش .

م ـ ديوان الاشراف على مصالح أهل الذمة وهو ديوان خاص برئاسة موظف يدعى كاتب الجهبذة .

أما الدواوين الصغرى فكان منها :

أ ـ ديوان العطايا ويسمى ديوان ( المقايتات )

ب ـ واخر يشرف على أعمال الري ويسمى ديوان ( الاقرحة ) .

وهذا دليل على ان الدولة العباسية كانت أقل استبدادا من الدولة البيزنطية ، وأقل تمسكا بالرسميات منها .

## حياد الدولة العباسية :

على كل المركزية التي كانت تسير عليها الدولة العباسية ، فانها كانت تتبع سياسة عدم التدخل في شؤون الطوائف المختلفة ، وقد كانت تغالي احيانا في حيادها حتى الحقت الضرر بمصالح الدولة ، وكانت الحكومة العليا لا تتدخل الا عند نشوء الاضطرابات او اذا رفض الاهلون أن يدفعوا الضرائب مع هذا فانها كانت تشرف أدق الاشراف على أعمال الري التي تصلح الزراعة والخراج ، وقد كتب أبو يوسف قاضي قضاة الانبراطورية العباسية على عهد هارون الرشيد يوضح للرشيد أن من واجب الحكومة ان تبني الجداول الجديدة على نفقتها الخاصة وتنظف الجداول القديمة ، وترممها وتحتمل نفقات الصيانة وتوزيع المياه ، ويوصي ان تنشأ شرطة نهرية ممتازة الكفاية تعمل على ازالة العقبات التي تعرقل الملاحة في الانهر الكبيرة ولا سيما نهر دجلة .

## الأمارة والامراء :

كان علماء السياسة الشرعية قديما يستعملون كلمة أمير في موضعين :

الاول ـ أمير الجيش أي قائدهم

الثاني ـ أمير البلاد وهو يقابل المحافظ في لغة الادارة وكانوا يستعملون كلمة عامل ووال في هذا المعنى أيضا ، وكان الذى يوليه الوزير يعزل بموت الوزير على نقيض من يوليه الخليفة وتقسم الامارة على رأي الماوردي الى :

أ ـ امارة عامة وهي امارة الاستكفاء

ب ـ امارة استيلاء

ويوم انحطت الوزارة احدث الراضي الخليفة العشرون منصب امارة الامراء وقد تولى الراضي في ٢٣ نيسان سنة ٩٣٤م وتوفي سنة ٩٤٠م وسنعرض لامارة الامراء ونحن نتكلم على انحطاط الوزارة لان هذا المنصب مستحدث في الدولة العباسية .

ولا بد اننا نسأل عن مسؤوليات أمير الاستكفاء ، وكان الخليفة يفوض إمارة بلد او اقليم ولاية على جميع أهله في المعهود من سائر أعماله ، فيصبح من حق هذا الامير ان ينظر في أمور الاقليم كلها ضمن حدود امارته ويشتمل نظره على سبعة أمور •

١ ــ تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير ارزاقهم ، الا ان يكون قد قدرها قبلا فتبقى على حالها •
٢ ــ النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام •
٣ ــ جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما •
٤ ــ حماية الدين ومراعاته من التغيير والتبديل •
٥ ــ اقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين •
٦ ــ الامامة في الجمع والجماعات يؤم بها أو يستخلف عليها •
٧ ــ تسيير الحجيج من عمله ومن سلك في اقليمه من غير أهل ذلك الاقليم حتى يتوجهوا معانين • اما اذا كان الاقليم ثغرا متاخما للعدو فان على أمير الاستكفاء واجبا ثامنا وهو جهاد الاعداء الذين يلونه ، وان يقسم الغنائم على المقاتلة ويأخذ خمسها لبيت الله • ولعل كلمة الامير الادارية مأخوذة من الامارة الحربية ،فان الخليفة كان يؤمر الرجل على جيش الفتح فاذا كتب الله له الظفر فقد يستبقيه عاملا على البلاد المفتوحة فيسميه الناس باسمه الذي يعرفونه به من قبل •

وهناك نوعان اخران من الامارة في رأي الخطباء وهما :

أ ــ الامارة الادارية ويسميها الفقهاء الامارة على البلاد •
ب ــ الامارة الحربية أي الامارة على الجهاد •

## مسؤوليات الامارة على البلاد :

علمنا أن الخليفة كان يدير الامور في عاصمة ملكه اما البلدان والاقاليم القريبة والبعيدة فكان يحكمها الامراء ، ومن يتصفح كتب التاريخ يجدها تستعمل في كلامها على ولاية الامراء تعبيرين :

١ ــ الامارة على الصلاة والخراج •
٢ ــ الامارة على الصلاة •

ولم تكن كلمة الصلاة تعني في نظر المؤرخين امامة الناس في صلواتهم فقط بل كانت تعني الولاية في جميع الامور الدينية والسياسية والحربية والقضائية والادارية باستثناء جباية الاموال فاذا جمع الامير الصلاة والخراج كانت امارته عامة في لغة السياسة الشرعية وان قصروا امارتهم على الصلاة وحدها فهي امارة خاصة •

## الفرق بين الامارة في عصر بني أمية وفي عصر بني العباس :

كان أكثر الامراء في العهد الاموي يجمعون بين الصلاة والخراج ، اما في العهد العباسي ولا سيما في زمن المنصور المعروف بحرصه الشديد فقد كانوا يستثنون أحيانا الخراج بولاية الأمير ويجعلونه لعامل مخصوص يسمى صاحب الخراج ، أو يكون له أسم اخر ان هذا التفريق بين الصلاة والخراج أو بين سلطة السياسة وسلطة المال قديم جدا ، وكان عند الانبراطورية البيزنطية سنة متبعة وعادة معروفة ، فان الامراء الذين كانت ترسلهم القسطنطينية الى الاقاليم التابعة لها كانوا يجمعون السلطات كلها ما عدا السلطة المالية فهذه كانت موكولة الى عامل مخصوص • يسمى ( برونويتر ) يقولون عنه أنه بمنزلة وزير العدل والمال ، وكان يكاتب الانبراطور ويرسل ما يفيض من الاموال عن نفقات الاقليم •

## سلطة الامراء :

كانت سلطة الامراء في عهد المنصور محدودة ، فلم يكن يولي اميرا مدة طويلة ، واذا عزل أميرا ما حاسبه أدق محاسبة ، فاذا ارتاب في امانته اقل ارتياب استصفى املاكه وبالغ في تعذيبه وفي عهد الخلفاء الذين جاؤا بعد المنصور اتسعت سلطة الامراء ، واطلقت يدهم للعمل والابتكار فكانوا في ذلك الحين هم رؤساء الادارة وقواد الجيش لكنهم كانوا معرضين للعزل بحسب ما يخطر للخليفة •



## الامارة الخاصة وحقوقها :

الامارة الخاصة هي ان يكون الامير مقصور الامارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية ، وحماية البلاد وليس له ان يتعرض للقضاء والاحكام وجباية الخراج والصدقات وليس له التعرض لاقامة الحد لان الحد من الاحكام الخارجة عن خصوص أمارته • فان كان من حقوق الله تعالى كالقطع في السرقة فالامير أحق باستيفائه من القاضي لدخوله في قوانين السياسة ولذلك يدخل في حقوق الامارة ولا يخرج منها الا بنص صريح •

وان كان من حقوق الآدميين كحد القذف والقصاص في نفس أو في طرف كان ذلك راجعا لارادة القاضي ، فان شاء طلب من القاضي أن يستوفيه له وان شاء عدل الى الامير فكان الامير احق باستيفائه لانه ليس حكما بل معونة على استيفاء الحق وصاحب المعونة هو الامير •

ولا يحق لصاحب الامارة الخاصة النظر في المظالم المختلف فيها • لكن له أن يعين المحق على المعترف المماطل ، وله ان ينفذ حكم القاضي ، اذا عجز القاضي عن استيفائه •

ولما كان شرط العلم ليس مطلوبا فيمن امارته الخاصة ، فيرى بعض الفقهاء ان القاضي احق منه بتسيير الحجيج والامامة والصلاة ٠

**الفرق بين امارة الاستكفاء وامارة الاستيلاء :**

أ ــ ان امارة الاستيلاء متعينة في المستولي ، اما امارة الاستكفاء فمتروكة لاختيار الخليفة أو وزيره ٠

ب ــ امارة الاستيلاء تشتمل على البلاد التي غلب عليها المستولي وامارة الاستكفاء مقصورة على البلاد التي تضمنها عهد المستكفي (أي الخليفة الذي عين الامير ) ٠

جـ ــ امارة الاستيلاء تشتمل على معهود النظر ونادره ، اما امارة الاستكفاء فمقصورة على معهود النظر دون نادره ٠

د ــ لامير الاستيلاء ان يستوزر وزير تفويض وليس ذلك لامير الاستكفاء ٠

**فصل السلطة المالية عن السلطة الشرعية :**

إتبع العرب الخطة التي كانت عند البيزنطيين بفصل السلطة المالية عن السلطة الشرعية ، فقد ارسل عمر بن الخطاب عمار بن ياسر الى البصرة أميرا على الصلاة والحرب وارسل معه ابن مسعود عاملا على القضاء وبيت المال ، فاشبه ذلك ما كان معمولا به في الانبراطورية البيزنطية ٠

وذكر الطبري ان النبي عليه السلام استعمل ( فروه بن سميل ) على ( مراد ) و ( زبيد ) و ( مذحج ) وبعث معه خالد بن سعيد العاص على الصدقه ٠

وولى الخليفة المنصور محمد بن الاشعث على صلاة مصر وخراجها ،ثم بعث اليه (نوفل) بن الفرات ، وقال له اعرض على محمد بن الاشعث ان يضمن خراج مصر ، فأن ابى فاعمل على الخراج ، فعرض عليه ذلك فأبى الضمان خوفا من شح الموارد ، فتسلم نوفل الدواوين ، ونقل مركزه الى ( دار الرمل ) وافتقد ابن الاشعث الناس ، فقيل له هم عند صاحب الخراج فندم ٠

**فصل القضاء :**

ونستطيع أن نلمح من بعيد مبدأ فصل القضاء ، وان كان ذلك ليس بالمفهوم العصري ، فقد كان الخلفاء الاوائل يولون احيانا القضاء في الاقليم قضاة من قبلهم يقتصر عملهم على الفصل في الخصومات المدنية ٠ وكان الامراء أنفسهم ، اذا ارادوا التهرب من المسؤوليات الصغرى ، يولون قضاة من قبلهم ، اذا لم يفعل الخليفة ذلك ، ثم نشأ منصب قاضي القضاة الذي اشرنا اليه ، فكان من حقه ان يولي القضاة في الامارات ٠

أما الحكم بالعقوبات ، فكان من اختصاص الامير ، الا اذا ورد في كتاب توليته ، نص صريح بخلاف ذلك • وكان حكم الاعدام يحتاج الى موافقة الخليفة ، وقد سن هذه السنة الحكيمة عمر بن الخطاب ، وتابعه عمر بن عبدالعزيز ، وسار على هذا النهج خلفاء بني العباس وقد كان الرومان يشترطون موافقة المجالس النيابية لتنفيذ حكم الموت ، لكي يكتسب الحكم الصورة الشرعية •

### ادارة القضاء :

وكانت القضايا الجنائية تعهد الى صاحب المظالم ، وكانت المحكمة العليا تسمى ( ديوان النظر في المظالم ) وكانت تعقد جلساتها برئاسة الخليفة نفسه ، وينوب عنه في غيابه أحد كبار الموظفين ، واعضاؤها قاضي القضاة والحاجب ، وكبار رؤساء الدواوين التي اقتضاها التنظيم الاداري ، وكان يدعى اليها بعض رجال الافتاء •

وكان غير المسلمين ، توكل قضاياهم لقضاتهم ، ورؤساء دياناتهم • اما المسلمون فكان يفصل بينهم القضاة ، وكان في كل حاضرة قاض ينوب عنه قضاة ، في النواحي التابعة للمدينة ، وكان قاضي بغداد الاكبر يسمى ( قاضي القضاة ) وهو رئيس قضاة الامبراطورية ، وتسهيلا لاعمال القضاة انشئت وظيفة تشبه ما يسمى في العصر الحاضر ( الكاتب العدل ) •

ويتفرع عن القضاء نقابة التجار التي انشئت لاول مرة في العصر العباسي وكانت مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية ، ومنع التدليس • وكان رئيسها ينتخب من بين الاعضاء الممتازين ويسمى رئيس التجار • وكان أعضاء النقابة يدعون (الامناء) وقد انشئت في معظم الحواضر مجالس عرفت بديوان الشورى •

### ادارة الجيش العباسي وتوزيع فرقة :

كان الجيش في عهد المنصور يتألف من ثلاث فرق :

أ ـ الفرقة المضرية ـ قوامها رجال من مضر
ب ـ الفرقة الحميرية ـ قوامها رجال من حمير
جـ ـ فرقة الفرس قوامها رجال من الفرس

وفي عهد المعتصم اضاف الى تلك الفرق فرقة رابعة لا يدخلها غير الترك وأهل افريقيا وقد اطلق عليها اسم :

د ـ فرقة المغاربة

وكان الجيش مقسما الى خمسة أقسام :

١ ـ القلب ويحتوي على القيادة العامة •

٢ ـ الميسـره ٠
٣ ـ الميمنة ٠
٤ ـ الطليعة وهي تتقدم الجيش عدة أميال وهي سرية من الفرسان ويلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ويحملون الرماح وقد ربطت باسنتها باقات من ريش النعام ٠

وقد عرف القوم الكشافة ، وكانت مهمتهم اعداد الخرائط ٠ وكان الجيش في اثناء الخدمة الفعلية يقسم الى :

أ ـ المرتزقة ـ وهم الذين ينالون الرواتب من الدولة ٠
ب ـ المتطوعـون
جـ ـ المشاة أو الضربيـة وهم رماة السـهام ـ وأسلحتهم التروس والاقواس والنشاب ٠

وكان يصحب الجيش جماعة من المهندسين زعيمهم يدعى أمير المنجنيق ومن أعظمهم كفاية ( يعقوب بن صدق ) المنجنيقي ٠

## مناصب اقتضاها التنظيم الاداري في الدولة العباسية :

هناك مناصب اقتضاها التنظيم الاداري يوم استبحر العمران وها نحن ذاكرون أهمها :

أولا ـ العدالة ـ العدالة هي وظيفة دينية تابعة للقضاء ، كان صاحبها يكتب السجلات والعقود ولاصحاب العدالة مصاطب ودكاكين يختصون بالجلوس عليها فيقصدهم اصحاب المعاملات للاشهاد ، وتقييد معاملاتهم بصكوك ، وصار مدلول هذه اللفظة مشتركا بين الوظيفة التي تبين مدلول الكلمة وبين العدالة الشرعية ٠

ثانيا ـ الحسبه ـ وهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين ، فيعين الخليفة لذلك المنصب من يراه اهلا له ، ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ،مثل المنع عن المضايقة في الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن عن الاكثار في الحمل ، والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها من الابلاغ في ضربهم للصبيان ، وقد كـانت الحسبة موجـودة قبـل العصر العباسي ٠ وصاحب الحسبة يدعى المحتسب يراقب الغش والتدليس في أمور المعيشة والمكاييل والموازين ٠

ثالثا ـ صاحب المدينة ـ هو صاحب الشرطة وكانوا يسمونه صاحب المدينة ، اما ضابط الشرطة فكان يدعى صاحب الليل ٠

رابعا ـ الداريون ـ هم حراس الليل ومهمتهم اقفال أبواب المدينة

الداخلية بعد صلاة العشاء وكانوا مسلحين دائما يحملون الفوانيس وتصحبهم كلاب الحراسة .

خامسا ــ أمير الماء ــ هو القائد البحري وكانوا يسمونه في العصور الاولى أمير الماء ، وقد أخذها الافرنج فقالوا ادميرال وأميرالت ثم أخـذها العرب عنهم مشوهة فقالوا ( الميلاند ) .

سادسا ــ أستاذ الدار ــ أو ناظر القصر ــ كان استاذ الدار أو ناظر القصر شخصية لها قيمتها وأهميتها ، الى حد أن أمراء آل بويه لقبوا انفسهم بهذا اللقب ، وكان استاذ الدار يتولى شؤون دار الخليفة ونفقاتها وأمور الاسرة العباسية المقصورة في دار الخلافة ، كأخوة الخليفة واعمامه وابناء أعمامه وفي عهد الخلفاء الضعفاء استبد أمير الامراء بهذا المنصب مع وظيفته الاصلية .

سابعا ــ وكيل الخليفة ــ كان وكيل الخليفة يمضي المعاقـدات والمعاهدات والبيعات نيابة عن الخليفة .

ثامنا ــ السلطان ــ كان الواثق تاسع خلفاء بني العباس الذي بويع بالخلافة في كانون الثاني ٨٤٢ وتوفي سنة ٨٤٧م في ١١ آب ول من لقب قائده ( أشناس ) بلقب السلطان ووضع على مفرقه تاجا مرصعا ، وقلده قلادة وسوارين ويظهر ان هذا المنصب ظل مهملا الى أن نشأت دولة بني بويه فأخذ الخلفاء يقلدونهم باحتفال عظيم وكان السلطان هذا يلبس حلة من الحرير مزركشة ثم يتوجه الخليفة تاجا مرصعا وسوارين ويقلده سيفين ، رمزا الى ان السلطة العسكرية والسلطة المدنية قد حصرتا فيه ، وكان يعقد له لوائين احدهما مزخرف بالفضة على نهج ما يمنح للاشراف والآخر مزخرف بالذهب على نحو ما يعطى لاولياء العهد ، وكانت وثيقـة التولية تقرأ في حشد حافل بعد ذلك يقبل السلطان يد الخليفة وينصرف .

ولم يكن لقب السلطان محصورا في آل بويه بل كان الخليفة يلقب به الغـزاة والفاتحين امثال محمـود الغزنوي ، وآلب أرسلان وملكشاه ، وصلاح‌الدين ، وعندما كان الخليفة يمنح هذا اللقب لاحد الامراء كان اللقب يصبح وراثيا على شرط ان يقدم اليه الامير عند التولية طلبا رسميا وكان الخليفة بطبيعة الحـال يوافق على التعيين ويخلـع على السلطان خلعـة التشريف .

تاسعا ــ لقب الملك ــ أنشأ الخليفة المقتفي لامرالله وهو الخليفة الحادى والثلاثين بويع سنة ١١٣٦ وتوفي سنة ١٢٦٠ ــ انشأ لقبا جديدا اطلـق عليه اسم ( الملك ) كان يمنحه أحيانا مع لقب السلطان ويمنحه أحيانا أخرى من غير لقب السلطان ولكنه كان اذا انعم به على احد قرنه عـادة بعبـارة تتناسب وصفات الملك البارزة ، وأول من انعم عليه بهذا اللقب نورالدين محمود زنكي استاذ صلاح‌الدين الايوبي ولقب محمود هذا بالملك العادل .

### وظائف متنوعة :

لكن لما كانت خلافة الناصر وهو الخليفة الرابع والثلاثون أصبح الملك لبلدة صغيرة يسمى نفسه ملكا ·

كان في هذه الدولة وظائف لا سبيل الى حصرها منها :

أ ــ نظام المارستان ــ تشبه وزارة الصحة ·
ب ــ نظارة الاوقاف ·
جـ ــ مشيخة الاسلام ·
د ــ منصب التدريس ·
هـ ــ مرتبة دار التشريفات ·
و ــ صاحب الحجاب ·
ز ــ امارة الحاج والوعظ العام في دار الخلافة والوعظ الخاص في الجوامع وكتابة السنة بديوان الزمام والنظر في دار الضرب ·
حـ ــ الزعيم ــ كان الخليفة يرسل الى بعض البلاد زعيما وظيفته الزعامة وهو الذي يتولى حرب البلاد وخراجها وادارة أمورها ، وكان بعض المؤرخين يسمي أمثال نورالدين زنكي زعيما ·
ط ــ واحدث ديوان سموه ديوان عرض الجيش ــ يتولى شؤون العساكر ، فاذا عظم الفرق بين جنسيات العسكر استعمل ديوانان للعرض (١) ديوان العقاب (٢) ديوان المقاطعات · وكان أمير الجيش تركيا غالبـــا ·
ي ــ ديوان التركات ــ واحدث ديوان للتركات لان الذين كانوا يموتون بلا وارث ترثهم الدولة بحكم الشرع الاسلامي ·

### انحطاط الوزارة :

صارت الوزارة في الدولة العباسية مطمـع الناس فصاروا يبذلون الرشوة للحصول عليها ، اما الذين لهم تأثير عند الخليفة مباشرة ، كمـا فعل ابن مقلة للخليفة الراضي اذ بذل خمسمائة ألف دينار للوصـول الى الوزارة ، وكما فعل ابن جهير اذ ابتاع الوزارة من القائم بامرالله (٢٦) الذي تولى الخلافة سنة ١٠٣١ وتوفي سنة ١٠٧٥ ــ ابتاعهـا بمبلغ ثلاثين ألف دينار ــ وكان الوزير يشتري الوزارة على هذا الاسلوب لانه يعلم انه يسترد ما دفع بسرعة بالارتشاء ممن يوليهم ·

ومن غريب ما يحكى عن انتشار الرشوة في العصر العباسي ان الوزير الخاقاني أحد وزراء المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة أنه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظرا الكوفة ، واخذ من كل واحد منهم رشوة فانحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا كلهم في بعض الطريق فقالوا كيف

نصنع ؟ فقال احدهم ينبغي ان اردتم الانصاف ان ينحدر الى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير فهو الذي ولايته صحيحة ، لانه لم يأت بعده أحد ، فتوجه الاخير الى الكوفة ، فتصدى للوزير الخاقاني بعض الشعراء وهجاه بقوله :

وزير لا يمل من الرقاعة — يولي ثم يعزل بعد ساعه
ويدني من يعجل منه مال — ويبعد من توسل بالشفاعه
اذا أهل الرشى صاروا اليه — فاحظى الناس أكثرهم بضاعه

لكن مع ذلك فقد اشتهر من وزراء الدولة العباسية من عرف بالنزاهة الى حد لا يمكن معه اغراؤه مثل ( علي بن عيسى ) أحد وزراء المقتدر .

وكان من أغنى الوزراء وأكثرهم ارتشاء واشدهم افراطا في الكرم ( أبو الحسن ابن الفرات الذي وزر للمقتدر وجمع سبعة ملايين دينار في وزارته الاولى صودرت كلها منه ووزر مرتين للمقتدر من ثلاث سنوات جمع فيها عشرة ملايين دينار وضياعا يستغل منها مليونين سنويا . وكان مفرطا في الكرم فحماه كرمه من الهجاء ومن المؤرخين ، فكان اذا وزر يرتفع ثمن الشمع والورق واللحم وغيره .

**أمير الامراء :**

وهو منصب استحدثه الخليفة الراضي ليحمي به نفسه ، فلما رأى اضطراب الاحوال كاتب ابن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية في بغداد ، فلما حضر قلده منصب أمير الامراء وولاه الخراج والمعاونة في كل البلاد وجعل له الاشراف على الدواوين وأمر ان يخطب له على جميع المنابر ، وانفذ اليه الخلع فانتقل السلطان في بغداد اليه . ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر في شيء بل ان رائق هو الحاكم المطلق في كل شيء ، وكل أمير تولى بعده سار على نهجه ، فصارت الاموال تحمل الى أمير الامراء وهو يتصرف بها كما يريد . ويعين امير الامراء للخليفة ما يريد وبطلت بيوت الاموال وتغلب كل مغامر على ما عنده ، ولم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها ، وكان منصب أمير الامراء تصفية نهائية لهيبة الوزارة في الدولة العباسية .

**نظام الاقطاع :**

والالتزام ــ كان الناصر لدين‌الله العباسي يقطع أكثر البلاد امراءه ورؤساء الناس المشهورين ، ويعين صدرا للبلاد ، والصدر هو حاكمها الاكبر . فالمقطع بلدا يتعهد للدولة أن يحمل الى ديوان الزمام الذي كان يسمى ديوان العزيز ما لا يتفق عليه الطرفان سنويا ، وبعض الرؤساء كان

يضمن لبلاده بخراج معين يحمله للديوان وقد نشأ هذا الاسلوب الظالم في الدولة العباسية . وكان الذي يتأخر في الدفع أو يتهم بأنه اخفى على الملتزم شيئا تستصفى امواله ويعذب . وكان الملتزم يأخذ معه احد الشهود لتقدير البلد وتعيين انتاجه ، واتفق ان احد الظامنين جبى من أهل بلدة قومستان ـ قصبة من قصبات خرسان ـ عشرة آلاف دينار ، فلما سأله الشاهد عن المال قال أنه لي وللكاتب وللمكاتب والبراطيل ونفقة الحبس . فلما أحس الديوان بما فعله الضامن الظالم احتجزه هو والمال ، وكان لكل بلد ديوان ، اما بغداد فكان ديوانها يدعى الديوان .

**مراتب القضاء ـ والنقابات :**

كان للقضاء في بغداد ثلاث مراتب ، ومرتبة واحدة في غير بغداد :

أ ـ قاضي القضاة وله ديوان الحكم وهو الذي يسجل باسم الخليفة ، وباسمه يسجل أقضى القضاة .

ب ـ أقضى القضاة .

ج ـ القاضي .

كان قاضي القضاة يعين لكل ربع من ارباع بغداد قاضيا يدعى الفقيه ، وكان للقاضي شهود عدول مزكون ، والقاعدة ان يكون المزكون اثنين ، وهم يتولون الشهادة أمام القاضي لاثبات الحكم وكان لمنصب القاضي في أيام عظمة الدولة هيبة تخيف امراء البيت الحاكم انفسهم ودليلنا على ذلك قصة المرأة المتظلمة من الامير موسى بن عيسى عم أمير المؤمنين يوم رفعت دعواها لشريك بن عبدالله قاضي الكوفة ، توفي شريك سنة ١٧٧هـ ٧٩٢م .

اما النقابات التي تتولى الاشراف على أمور الاشراف فكانت ثلاثا :

أ ـ نقابة العباسيين يتولاها عباسي .

ب ـ نقابة العلويين يتولاها علوي .

ج ـ نقابة النقباء ويتولاها عباسي .

**الخراج في عصر المأمون اهم أدوار الدولة العباسية :**

بلغ مجموع الخراج في عصر المأمون خمسة ملايين ومائة الف والف دينار ، ولعل احدا منكم يسأل عن جباية الاردن وفلسطين من هذا المقدار . فقد كان خراج الاردن ( مائة الف وتسعة آلاف دينار ) وكان خراج فلسطين ( مائتي الف وخمسة وتسعين الف دينار ) ( الخراج ضريبة الاراضي لانهم كانوا يعتقدون أن الارض ملك للملك أو الخليفة ) .

## مركز المرأة في الادارة :

كان الخليفة المتوكل على الله قد ضرب المرأة العربية الضربة القاضية ، فحولها الى الحريم بعد أن كانت ترافق الجيوش وتتولى قيادتها كما حصل مع الملقبة ب ( جندارك العربية ) ( ليلى أخت الوليد بن طريف ) أحد الزعماء الثائرين لقد تولت القيادة بنفسها واشتبكت مع جيوش الرشيد في معركتين هائلتين وكانت رائعة الجمال تحفظ الشعر وتنظمه وقد اضطرها احد اقاربها ان تلقي السلاح ففعلت ·

ومن أثر المرأة ما كان من زبيدة زوج الرشيد يوم أمرت بحفر عدة آبار في مكة عندما حجت وما زال اسمها يطلق على تلك الآبار ·

لكن مع كل الذي صنعه المتوكل هذا الخليفة الذي طارد حرية الفكر بكل انواعها وهدم قبر الحسين في كربلاء وأمر بزرعه وسقيه ومنع الناس من زيارته ، وانتهى به المطاف ان مات مقتولا وكان ابنه في عداد المتآمرين عليـــه ·

أجل مع كل ذلك ، فان أم المقتدر في أواخر عهد المقتدر قد تولت أمور الدولة وكانت المراسيم تصدر باسمها ، وتجلس في أيام الجمعة للمظالم ، يحيط بها رهط من القضاة والاعيان ·



## مواكب الخلفاء وعرض الجيش :

كان المنصور يعرض الجيش وهو لابس حلته العسكرية الكاملة ، اما واقفا على مصطبة أو جالسا على عرش ينصب لهـذا الغرض اما الرشيد والمأمون والمعتصم فكانوا يعرضون الجيش وهم على صهوات خيولهم · اما في المواكب ، فكان الرشيد والمأمون يسيران ببساطة فلم يكن يصحبهما الا حارس أو حارسان ، لكن الخلفاء فيما بعد جعلوا موكب الخليفة خاصة يوم الجمعة بالغا حد الروعة والفخامة ، فكان يتقدم الموكب الغلمان أي رجال الحرس يحملون الاعلام · والمقارع والطرزينات المحلاة بالذهب ، ثم يليهم الامراء من البيت المالك على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطيا جـوادا ناصع البياض وبين يديه الاشراف ورجال الدولة ، وكان الخليفة يلبس في ذلك الموكب القباء الاسود أو البنفسجي الذي بلغ الى الركبتين ، ويتمنطق بمنطقه مرصعة بالجواهر ، ويلبس قبعة عالية مدببة تسمى القلنسوة وقد زينت بجوهرة غالية وبيده عصا النبي ، والخاتم تتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر الثمينة · اما القباء فكان مفتوحا عند الرقبة فيبدو القفطان من تحته زاهيا ، وكانت اكمامه ضيقة ، لكن لما جاء المعتصم وهو الخليفة الثامن أمر بأن تجعل الاكمام واسـعة حتى بلغ عرض الاكمـام ثلاثة أذرع ·

## تحية الخليفة :

كان بنو العباس يرتبطون الاسود لاثبات الهيبة في قلوب الرعية(*) ·
كان من عادة العرب ان يحيوا الخليفة بوضع اليد اليمنى على الصدر ، واحناء الرأس قليلا ثم رفع الرأس الى الجبهة · اما تقبيل الارض فلم يكن مسموحا به للعامة بل للوزراء · وذكر ان عبدالملك نفر من قبلة اليد ·

اما الآن وقد انتهينا من عرض التنظيم الاداري للعصر العباسي فيحق لنا ان نعرج قليلا على النهج الاداري في ديارنا الاردنية العزيزة للموازنة فقط ·

## النهج الاداري الاردني :

اما النهج الاداري الاردني فقد جمع بين المركزية واللامركزية ، وبكلمة اخرى فانه كان النهج الوسط اذ اختار من المركزية خير ما فيها ، ومن اللامركزية خير ما فيها ، فبذلك جمع بين النظامين فالعناصر المركزية تظهر بالتسلسل الهرمي مبتدئة بالمختارين في القرى ومديري النواحي وقائمي المقامات والمتصرفين والمحافظين الذين يرتبطون بوزير الداخلية فمجلس الوزراء ، فجلالة الملك · وتتجلى اللامركزية في المجالس القروية والبلدية ومجالس أمانة العاصمة التي يجري انتخاب اعضائها في التصويت أما الرؤساء فيعينون تعيينا لذلك فاننا نستطيع ان نقول أن هذا النهج يجمع بين مزايا اللامركزية والمركزية في سبيل تأمين سير المصالح العامة ·



## خلاصـــة :

خلاصة ما تقدم أن الادارة هي تنظيم السلطة ، وتحديد صلاحية المسؤولين فيما بينهم ونحو الافراد · ان انتشار الاسلام كان بادرة غريبة في تاريخ الانسانية · ان بني أمية عززوا القومية العربية ، وحكموا حكما استبداديا · وان خلافاتهم وتظافر بني العباس وذرية علي دمر الامويين · ان الدولة العباسية اذلت العنصر العربي لانها قامت بسيوف غير عربية ، لكنها فرضت سيادة اللغة العربية والثقافة العربية على الدنيا · وحكمت حكما مركزيا وكانت تستمد احكامها من القرآن الكريم · واتصفت بالتسامح الا فيما يخص خصومها من آل البيت ومن الامويين ، وانشأت الوزارات ونهجت نهجا اداريا يرتكز على الخلافة وكان أسلوبا فـذا ، لم يشبه الانبراطورية الرومانية المقدسة التي حاول المحاولون تنصير وثنيتها · وقد كان الخليفة هو الرئيس الاعلى وهو مصدر كل سلطة بعد انتخابه باجماع

---

(*) فرضت أم جعفر زوج هارون الرشيد على كل زائر لها ان يقبل يد قردها ، وقد جاء يزيد بن مزيد يودعها قبل سفره فكلفوه ان يقبل يد القرد فاستل سيفه وقطعه نصفين·

الامة • وان الدولة العباسية انشأت اول حكومة دستورية في عهد المأمون وكان عندها أدق جهاز مباحث عرفه العالم في ذلك الزمن • وان الوزارة عندهم قسمت الى وزارة تفويض ووزارة تنفيذ • وان الوزارات قد أصبحت عندهم فيما بعد اربعا ـ مالية ، خارجية ، قضاء دفاع ، وانهم انشأوا لتسيير الاعمال دواوين كبرى ودواوين صغرى وان الدولة العباسية لما اتسعت رقعتها أخذت بمبدأ الحياد الا في المسائل التي تهدد أمن الدولة وليس معنى الحياد هذا اللامركزية • واستحدث عندهم منصب الامير • فكانت الامارة عندهم نوعين : امارة الجيش ، وامارة البلاد • ثم امارة عامة هي امارة الاستكفاء وامارة استيلاء • وامارة على الصلاة والخراج ، وامارة على الصلاة خاصة وعرضنا للفرق بين الامارة في عهد بني امية والامارة في عهد بني العباس ووضحنا الفرق بين امارة الاستيلاء وامارة استيفاء ، وذكرنا حقوق الامراء في عهد المنصور ، وحقوق الامارة الخاصة عامة ورأينا ان الاسلام من أول نشأته قد فصل السلطة المالية عن السلطة الشرعية ثم تعرضنا لفصل القضاء وهو مبدأ فصل السلطات ، ووضحنا ادارة القضاء وتعرقنا الى ادارة الجيش وتوسيع فرقه ، وذكرنا المناصب التي اقتضاها التنظيم الاداري فذكرها ـ العدالة ، والحسبة ، وصاحب المدينة ، والدارين ، وأمير الماء ، واستاذ الدار ، ووكيل الخليفة ولقب السلطان والملك • وعرضنا للوظائف المتنوعة ثم ذكرنا انحطاط الوزارة وما رافقهما من الرشوة • واستحداث منصب مير الامراء فنظام الاقطاع والالتزام ومفاسدها ومراتب القضاة والنقابات ومقدار الخراج ومركز المرأة ومواكب الخلفاء وعرض الجيش وتحية الخليفة ونهج الاردن الاداري •

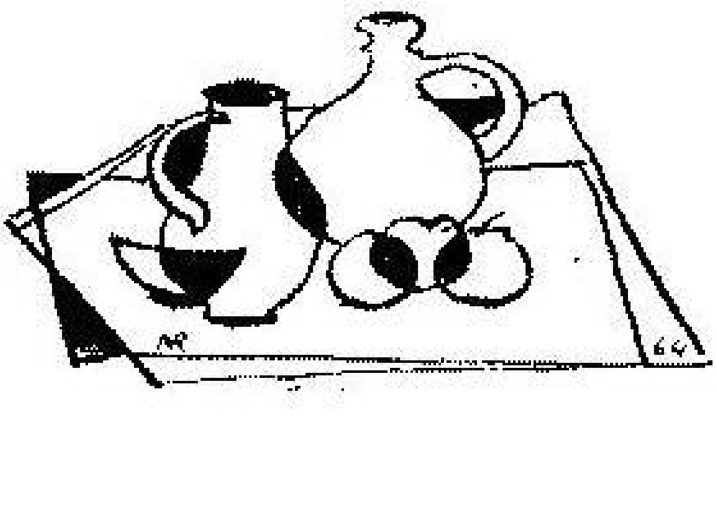
●

## مراجع البحث :


١ ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج١ و٢ و٣ و٤ و٥ ـ جرجي زيدان •
٢ ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ـ سيد أمير علي •
٣ ـ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ـ الشيخ محمد الخضري •
٤ ـ كتاب قصص العرب ج٣
٥ ـ أصول الحكم في الاسلام ـ منير العجلاني •
٦ ـ الحقوق الادارية ـ مصطفى البارودي •
٧ ـ مقدمة ابن خلدون ـ ابن خلدون •
٨ ـ الخلافة ـ السير توماس أرنولد ـ استاذ اللغة العربية بجامعة لندن •
٩ ـ الشرق الاسلامي ـ مؤنس حسين •
١٠ـ مباحث عراقية ـ يعقوب سركيس •

١١ـ مصادر الدراسات الادبية ـ يوسف داغر ٠
١٢ـ الديارات ـ الشابشتي ـ تحقيق كوركيس عواد ٠
١٣ـ الجامع المختصر الجزء التاسع ـ تحقيق الدكتور مصطفى جواد ـ بنفقة الاب انستاس ماري الكرملي ٠
١٤ـ من عيون التواريخ وعيون السير ـ لابي طالب علي بن انجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن ٠
١٥ـ العرفان المجلد ال ٤٣ ـ أحمد عارف الزين ٠
١٦ـ تاريخ اليمن ـ تحقيق الاب انستاس ماري الكرملي ٠
١٧ـ أخبار الحكماء ـ لابن القفطي ٠
١٨ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ـ شرانج الانكليزي ٠
١٩ـ الفخري في الآداب السلطانية ـ لابن الطقطقي ٠
٢٠ـ شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد ٠
٢١ـ الاطلس التاريخي ـ هارى و٠ هازارد ٠
٢٢ـ ابن الرومي ـ عباس محمود العقاد ٠
٢٣ـ الافادة والاعتبار ـ عبداللطيف البغدادي ٠
٢٤ـ الخلفاء أمراء المؤمنين ـ جلال الدين السيوطي ٠
٢٥ـ مختصر الدول ـ ابن العبري ٠
٢٦ ـ الاغاني ـ أبو الفرج الاصبهاني ٠
٢٧ـ السنين الضائعة من الحوادث الجامعة ٠
٢٨ـ نظام الحكم والادارة في الاسلام ـ محمد المهدي شمس الدين ـ جامعة النجف ٠
٢٩ـ رسوم الخلافة ـ تأليف ابي الحسن بن المحسن الصابيء ، تحقيق ميخائيل عواد ٠





# الورقة الخاسرة

عبد الجبار الدوري

**« عادت تنبش الجرح بعد أن أسبل أجفانه »**

اذن .. زاغ .. للمرفأ العسلي   شراعك في صولة جامحه
ليكشف في الرمل أوراق حظ   كسيح ... لعل بهسا رابحه
ترود جزيرة ماض ... تقل   اليها .. أميرتها النازحه
لتنتزع الخنجر الذهبي   وتأسو جراحاتها الناضحه
وتندس في القصر .. قصر الامير   تواسيه في الغربة الفادحه
مليا .. بكل اتقاد الثلوج   وراء غلالتها الفاتحه
لتغرز خنجرها من جديد   فيا للمقامرة القادحه !!
أفيقي ـ اذا شئت ـ للذكريات   فاني امرؤ نسي البارحه
ولمي الأساطير والوشوشات   خناجر من ذهب صادحه
تفجر ـ لا في ـ بل فيك أوتا . . ر شوق شرارته لافحه ..
وعينا .. بغير خنوع الدموع   ينابيعها لم تكن طافحه ..
أفيقي على الأمس .. شمي التراب   لعل به من دمي رائحه
ومري بأنملك الخمس فوق   ضلوع بيان الهوى النابحه
تقطر حواليك لحنا .. برتسه   فصول النوى شوكة جارحه
أفيقي على الامس كي تستفيق   جراح خرافتك الفاضحه
ورشي السراديب صمتا وخوضي   بعينيك في الظلمة النائحه
ودسي بقاياك في النار واتلي   على كل ذكرى بها . « فاتحه »
وصيري رمادا بلذع الحريق ..   فاني امرؤ .. نسي البارحه

# الصورة والوصف في شعر البحتري

جمال الدين الالوسي

## وصف البحتري لحير الحيوانات :

والحير في لغة العصر هو حديقة الحيوانات التي انشاها المتوكل جنوب سامراء ويقدر البحتري الوحش الذى فيها بألفي وحش .

الفان وافت على قدر مسارعة   الى قبول الذي حاولته فيها

ويستدل من وصف البحتري انه كان في الحير عدد من السباع ومبارزة الفتح للاسد ووصف البحتري لهذه المبارزة تثبت وجودها قال :

وطاعة الوحش اذ جاءتك من خرق   اهوى وادمانة كحل مآقيها
كالكاعب الرود يخشى في ترائبها   روع العيير ويبدو في تراقيها
الفان وافت على قدر مسارعة   الى قبول الذى حاولته فيها
ان سرت سارت وان وقفتها وقفت   صورا اليك بالحاظ تواليها
يرعن منك الى وجه يرين له   جلالة يكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول وافترقت   بالحير في عرصة فسح نواقيها
فنهر نيزك ورد من مواردها   وساحة التل مغنى من مغانيها



## البحتري يصف مبارزة الفتح للاسد :

وقعت بين الفتح بن خاقان وزير المتوكل وبين الاسد مبارزة شهدها الخليفة وشهدها الشاعر فوصفها وصفا رائعا يغلب عليه نزعة التفكير والتعليل ويصور انفعالات كل من الفتح والاسد ويقابل بين المشهدين فقال :

وما نقم الحساد الا اصالة   لديك وفعلا اريحيا مهذبا
وقد جربوا بالامس منك عزيمة   فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث والليث مخدر   يحدد نابا للقاء ومخلبا
يحصنه من نهر نيزك معقل   منيع تسامى روضه وتأشبا

ونهر نيزك هو الذي يجرى وسط هذه الحديقة الفسيحة والمعقل يريد به الاسوار التي حول الحير

شهدت لقد انصفته يوم تنبرى ... له مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم ار ضرغامين اصدق منكما ... عراكا اذا الهيابة النكس كذبا
هزبر مشى يبغي هزبرا واغلب ... من القوم يغشى باسل الوجه اغلبا
ادل بشغب ثم هالته صولة ... رآك لها امضى جنانا واشغبا
فاحجم لما لم يجد فيك مطمعا ... واقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه ان كر نحوك مقبلا ... ولم ينجه ان حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لاعزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ولاحده نبا
وكنت متى تجمع يمينك تهتك ... الضريبة او لا تبقي للسيف مضربا

## وصف القتال في البحر :

قال ابو هلال العسكري : لم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب الا البحتري • وهذه القصيدة هي من مفضلات ابن المعتز قال :

غدوت على الميمون صبحا وانما ... غدا المركب الميمون تحت المظفر

والميمون هو مركب القائد احمد بن دينار قائد الاسطول العربي في حرب الروم في البحر الابيض

اطل بعطفيه ومر كانما ... تشرف من هادي حصان مشهر
اذا زمجر النوتي فوق علاته ... رأيت خطيبا في ذؤابة منبر
اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له ... جناحا عقاب في السماء مهجر

يريد ان الميمون كان يتراقص على صفحة البحر وكأنه جواد أطل من مكان شاهق يشرف على منبسط غير متناه وتسمع صوت الربان وهو يصدر أوامره الى البحارة وكأنه خطيب وقف على ذروة المنبر والمركب فتملأ قلوعه الريح الجنوب فيجري وكأنه يطير بجناحي عقاب في أجواء الفضاء وينتثر حوله الماء وهو صاعد او هابط في لجج البحر فتخاله وقد تلفح بثوب محبر بانت قسماته •

اذا ما انكفا في هبوة الماء خلته ... تلفع في اثنائه برد محبر
وحولك ركابون للهول عاقروا ... كؤوس الردى من دارعين وحسر
تميل المنايا حيث مالت أكفهم ... اذا اصلتوا حد الحديد المذكر
اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ... ليقلع الا عن شواء مقتر

والمعنى أن جندك الذين من حولك عاقروا كؤوس المنايا بين دارع وحاسر يبعثون الموت الى اعدائهم بحد سيوفهم الصارمة وبنيرانهم التي لا تنطفىء حتى تصلى أجسادهم فتفوح رائحة الشواء من لحومهم •

صدمت بهم صهب العثانين دونهم ... بضرب كايقاد اللظى المتسعر

يسوقون اسطولا كأن سفينه | سحائب صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم | اذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
تقارب من زحفيهم فكأنما | تؤلف من اعناق وحش منفر
فما رمت حتى اجلت الحرب عن طلى | مقطعة فيهم وهام مسطر
على حين لا نقع تطوحه الصبا | ولا ارض تلقى للصريع المقطر

لم يغادروا المعركة الا عن رؤوس تتطاير واشلاء مبعثرة تتناثر وأعناق تزايل اجسامها في حين لا غبار يثار ولا أرض تحتضن الصرعى ٠

ويصف البحتري سكون الجاش في الحرب فيقول :

لقد كان ذاك الجاش جاش مسالم | على ان ذاك الزي زي محارب
تسرع حتى قال من شهد الوغى | لقاء عدو ام لقاء حبائب ؟
وصاعقة في كفه ينكفي بها | على ارؤس الاقران خمس سحائب

في هذه الابيات يصفها أبو هلال العسكري بانها أجود ما قيل في رباطة القلب وهدوء الطبع غير هياب ولا وجل ٠

**وصف الخيل :**

وقالوا أن البحتري خير من وصف الخيل من الشعراء العباسيين وفي هذه الابيات الآتية يطلب البحتري الى أحد ممدوحيه ان يهبه حصانا يغزو به الاعداء وراح يعدد صفاته ويحدد الوانه ويشرح تلك الصفات قال :

فاعن على غزو العدو بمنطو | احشاؤه طي الكتاب المدرج
اما باشقر ساطع اغشى الوغى | منه بمثل الكوكب المتأجج
متسربل شية طلت اعطافه | بدم ، فما تلقاه غير مضرج
او ادهم صافي السواد كأنه | تحت السكمي مظهر ببرندج
ضرم يهيج السوط من شؤبوبه | هيج الجنائب من حريق العرفج
خفت مواقع وطئه فلو انه | يجري برملة عالج لم يرهج
او اشهب يقق يضيء وراءه | متن كمتن اللجة المترجرج
تخفي الحجول ولو بلغن لبانه | في ابيض متألق كالدملج
اوفى بعرف اسود متغربب | فيما يليه وحافر فيروزجي
او ابلق يلقى العيون اذا بدا | من كل لون معجب بنموذج
جذلان تحسده الجياد اذا مشى | عنقا باحسن حلة لم تنسج

ويستهدي ممدوحه سيفا لتكمل عدة الحرب ويريد هنا السيف مشحوذا لا يفتقر الى صقل لجودة معدنه وحسن صقله يتناول الروح البعيد نيله ويشق الفضاء ويمضي الى غايته ، قاطع ولو لم تمضه يد فارس سريع القطع وان لم يصقل ، لا تمنعه الترس من القطع ولا يحيد عن قصده حائد

ينال من أراد بضربة واحدة ولو تحصن خصمه بجبل يذبل فقال :

قد جدت بالطرف الجواد فشنه | لاخيك من ادد ابيك بمنصل
يتناول الروح البعيد مناله | عفوا ويفتح في القضاء المقفل
ماض وان لم تمضه يد فارس | بطل ومصقول وان لم يصقل
يغشى الوغى فالترس ليس بجنة | من حده والدرع ليس بمعقل
متالق يفرى باول ضربة | ما ادركت ، ولو انها في يذبل
واذا اصاب فكل شيء مقتل | واذا أصيب فما له من مقتل

ويصف طاعة الجند لقائدهم فيقول :

حمر السيوف كانما ضربت لهم | ايدي القيون صفائحا من عسجد
في فتية طلبوا غبارك انه | رهج ترفع عن طريق السؤدد
كالرمح فيه بضع عشرة فقرة | منقادة خلف السنان الاصيد

ويقول في صفات الجند :

وعصائب يتهافتون اذا ارتمى | بهم الوغى في غمرة الهيجاء
مثل اليراع بدت له نار وقد | لفته ظلمة ليلة سوداء
بيض تسيل على الكماة فضولها | سيل السراب بقفرة بيداء
فاذا الاسنة خالطتها خلتها | فيها خيال كواكب في ماء
ابناء موت يطرحون نفوسهم | تحت المنايا كل يوم لقاء



## وصف الذئب :

وقال يصف ذئبا لقيه في احدى سفراته في البادية ليلا وقد صور هذه المعركة التي دارت بينهما والقصيدة من الذيوع والشهرة ما لا تحتاج الى تعليق او تفسير أقتطف منها قوله :

وليل كأن الصبح في اخرياته | حشاشة نصل ضم افرنده غمد
تسربلته ، والذئب وسنان هاجع | بعين ابن ليل ماله بالكرى عهد
اثير القطا الكدرى عن جثمانه | وتألفني فيه الثعالب والربد
واطلس ملء العين يحمل زوره | واضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره | ومتن كمتن القوس أعوج متأد
طواه الطوى حتى استمر مريره | فما فيه الا العظم والروح والجلد
سما لي وبي من شدة الجوع ما به | ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه | بصاحبه والجد يتعسه الجد
عوى ثم اقعى فارتجزت فهجته | فاقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فاوجرته خرقاء تحسب ريشها | على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد الا جرأة وصرامة | وايقنت ان الامر منه هو الجد

فاتبعتها اخرى فاضللت نصلها  بحيث يكون اللب والرعب والحقد
فخر وقد اوردته منهل الردى  على ظمأ لو انه عذب الورد

## وصف القصور والمباني :

من يقرأ ديوان البحتري يجده طافحا بوصف هذه القصور والمباني التي أثارت دهشته وملأت نفسه اعجابا ، وهي بنفس الوقت وسيلة اتخذها الشاعر المتقرب من نفس الامراء والخلفاء يرضي بها غرورهم ويملؤها زهوا وعجبا . قصور شامخة تملأ جوانب الفضاء وتعانق شرفاتها هام السحاب توطدت منها الاركان وتسامت أعاليها على لحظ العيون وكأنما الناظر الى قبابها وعلاليها ينظر الى بياض المشترى تبهر النفس بابداعها وتثير اعجاب المتأمل بفخامتها وفسيح ردهاتها وما ازدانت به ابهاؤها من حنايا واقواس ووشي بالذهب الخالص والجوهر النفيس من رآها او قرأ وصفها عذر البحتري لهذا الاعجاب وهو البدوي بطبيعته ونشأته وان تقلب باحضان الحضارة وانغمس بألوان النعيم غير أن مشاهد تلك القصور وما أنفق عليها وما كلف برعاء المهندسين من فن وجهد جعلت الشاعر يطلق قصائده في هذه القصور وهو مشدوه لا ينصرف من مشهد الا ويثيره مشهد آخر ولا ينتهي من وصف منظر بديع حتى يقف مأخوذا بمنظر جديد فهذا الجعفري الذي شاده المتوكل بناء فخم ملأت جوانبه الفضاء وقدر ما انفق عليه بنحو الفي الف دينار والحديقة ترابها مسك مشاب بعنبر وحصاها اللؤلؤ تسقى ساحاتها باحواض صناعية وتسطع في جنباتها الاضواء فتحيل ليلها نهارا قال :

قد تم حسن الجعفري ولم يكن  ليتم الا بالخليفة جعفر
ملك تبوأ خير دار أنشئت  في خير مبدى للامام ومحضر
في رأس مشرفة حصاها لؤلؤ  وترابها مسك يشاب بعنبر
مخضرة والغيث ليس بساكب  ومضيئة والليل ليس بمقمر
عال على لحظ العيون كأنما  ينظرن منه الى بياض المشترى
ملأت جوانبه الفضاء وعانقت  شرفاته قطع السحاب الممطر
وتسير دجلة تحته ففناؤه  من لجة غمر وروض اخضر
شجر تلاعبه الرياح فتنثني  اعطافه في سائح متفجر
اعطيته محض الهوى وخصصته  بصفاء ود منك غير مكدر
واسم شققت له من اسمك فاكتسى  شرف العلو به وفضل المفخر

وقال يصف المتوكلية التي بناها المتوكل وكانت تسمى الماحوزة وانتقل اليها في اليوم الاول من محرم سنة ٢٤٧ هجرية .

قـــال :

اری المتوكلية قـــد تعـالت ... محاسنهــا واكملت التمـــاما
قصـــور كالـكواكب لامعــات ... يكـــدن يضئن للساري الظلاما
وبر مثل برد الوشي فيـــه ... جنى الحوذان ينشر والخزامـا
اذا برز الربيع لـــه كسته ... غوادي المزن والريح النعـاما
غرائب من فنون النبت فيهـا ... جنى الزهر الفرادى والتؤامـا

وفيها يقول :

يهنيك في المتوكليـــة انهـا ... حسن المصيف بها وطاب المربع
فيحاء مشرقة يرق نسيمهـا ... ميث تدرجهـا الريـاح واجرع
وفسيحة الاكناف ضاعف ضمنها ... بر لها مفض وبحـــر مترع

**وصف الـكامل :**

والكامل قصر للمعتز يراه الشاعر انه يستوقف الطرف وقفة الذاهل المتعجب من آيات الفن ومعجزات الهندسة يشارك هلع الحمام المذعـور في اعالي شرفاته يتيه الطرف في عجيب حسنه وحافات القصر يموج زجاجها كتموج المياه على سواحله لبست سقوفه صفائح الابريز قال : ..



ذعر الحمام وقد ترنم فوقه ... من منظر خطر المزلة هـــائل
رفعت لمخترق الرياح سموكـــه ... وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجـــوه ... لجج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام اذا التقى ... تأليفـــه بالمنظـــر المتقـــابل
حبك الغمام رصفن بين منمر ... ومســـير ومقـــارب ومشـــاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه ... نورا يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق ... متلهب العالي انيق السـسافل
اغنته دجلة اذ تلاحق فيضها ... عن صوب منسجم الرباب الهاطل
وافيته والورد في وقت معـا ... ونزلت فيه مع الربيع النازل

وقال يصف قصر التاج :

وأرى البساط وفي غرائب نبته ... الوان ورد في الغصون مفتق
شجر على خضر ترف غصونه ... من مزهر أو مثمر أو مورق
وكأن قصر الساج خلة عاشق ... برزت لوامقهـا بوجـــه مونق
قصر تكامل حسنه في قلعة ... بيضاء واسطة لبحر محدق
نائي المحل فلا المزار بشاسع ... عمن يزور ولا الفناء بضيق
ووصلت بين الجعفري وبينـــه ... بالنهر يحمل من جنوب الخندق

نهر كأن الماء في حجراته … افرند متن الصارم المتألق
فاذا الرياح لعبن فيه ، بسطن من … موج عليه مدرج مترقرق
الحقه يا خير الورى بمسيره … وامدد فضول عبابه المتدفق
فاذا بلغت به البديع فانما … انزلت دجلة في فناء الجوسق

وقصر التاج يقع في القسم الشرقي من شمالي سامراء والجوسق من قصور المعتصم اما البديع فقد كان للواثق نقضه المتوكل حين بنى قصر الجعفري بالمتوكلية وحمل ساجه اليه وكان في قصر الجوسق سجن خاص للسياسيين ولكبار القواد وفيه حبس الافشين وخلع عنه السواد وفيه حبس ابن المعتز والمؤيد كما سجن فيه أحمد بن المتوكل .

## وصف الصبيح والمليح :ـ

وهما قصران متقابلان وكانا مغنيي أنس ومقامي طرب يصفهما البحتري بانهما البسا ابراد بهجة لو أطاقا التقاء لا فرطا في العناق يمدهما جدول يتدفق ماؤه كافرند الحسام ولصفائه اذا ما توسط البركة اخذ لون الرخام فتحسبه ماء بحر يخدع العين وهو ماء غمام جاور قصر الجعفري وانحاز الى قصر شبداز البست هذه القصور حللا زاهية فهي تلمع في سواد الظلام كالانجم الساطعات



واستتم الصبيح في خير وقت … فهو مغنى انس ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو يستطيع … حياه معلنا بالسلام
ألبسا بهجة وقابل اذا ذاك … فمن ضاحك ومن بسام
كالمحبين لو اطاقا التقاءا … افرطا في العناق والالتزام
مستمد بجدول من عباب الماء … ألقت عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماء بحر … يخدع العين وهو ماء غمام
جاور الجعفري وانحاز شبداز … اليه كالراغب المعتام
حلل من منازل الملك كالانجم … يلمعن في سواد الظلام

والشبداز قصر يقابل الجعفري من قصور المتوكل .

ويصف المشوق والمعشوق وهما قصران للمعتمد يقع على الضفة الغربية من دجلة يقابل دار الحكم وكانت تسمى بدار العامة ويعرف المعشوق عند أهل المنطقة بالعاشق لم تجر الآثار أي تنقيب فيه يقول :

لا زال معشوقك يلقى الحيا … من كل دامي المزن واهي الخروق
فما خلونا مذ رأيناه من … فتح جديد وزمان انيق
اشرف نظارا الى ملتقى … دجلة يلقاها بوجه طليق
وطالع الشمس على موعد … بمثل ضوء الشمس عند الشروق

لم ار كالمعشوق قصرا بدا ... لاعين الراقين غير المشوق
هناك قد برز في حسنه ... سبقا وهذا مسرع في المحوق
هما صبوح باكر غيمه ... ثني في اعقابه بالغبوق
الماء لا يبعث لي نشوة ... فعاطني سورة ذاك الرحيق
حسبك ان تكسر من حدها ... بالنغم الصافي عليها الرقيق

ووصف قصرا للفتح بن خاقان وزير المتوكل والوسيط للشاعر عند الخليفة وكان نديمه في ليالي صفوه ولهوه وفي هذه القصيدة قال أحد الادباء من القدماء ( أراد البحتري أن يشعر فغنى ) .

وتمتاز هذه القصيدة بالدقة والنغم الشجي والمعنى السري والوصف الانيق قال :

تلفت من عليا دمشق ودوننا ... للبنان هضب كالغمام المعلق
الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ... ذممت مقامي بين بصري وجلق
الى معتلي عزي وداري اقامتي ... وقصد التفاتي بالهوى وتشوقي
مقاصير ملك اقبلت بوجوهها ... على منظر من عرض دجلة مونق
كأن الرياض الحو يكسين حولها ... افانين من افواف وشي ملفق
اذا الريح هزت نورهن تضوعت ... روائحه من فار مسك مفتق
كأن القباب البيض والشمس طلقة ... تضاحكها انصاف بيض مفلق
ومن شرفات في السماء كأنها ... قوادم بيضان الحمام المحلق
رباع من الفتح بن خاقان لم تزل ... غنى لعديم أو فكاكا لمرهق
توالت اياديه على الناس فاكتفى ... بها كل حي من شآم ومعرق
فكم نفست في تغلب الغلب من دم ... مباح وادنت من شتيت مفرق

يذكر للفتح يده في الصلح بين أخواله بني تغلب الذين احتربوا زمنا وسالت منهم الدماء غزيرة فأجرى بينهم الصلح حين انتدبه المتوكل لهذه المهمة وفي هذا الصلح انشأ البحتري قصيدته المشهورة التي تسيل رقة وعاطفة :

أسيت لاخوالي ربيعة اذ عفت ... مصايفها منها واقوت ربوعها

وقال من قصيدة يصف بها حلبة السباق ويعجب من منظر الخيل في تدريبها وفي بكورها وهي تلوح كالانجم لمعت في ظلمة الليل البهيم وكأنها تحمل غربانا على ظهورها في ثيابهم الحريرية المزركشة الذين ان خافوا النبوة من نفورها اهووا بأيديهم وأمسكوا بنحورها فهي في عدوها تسابق الريح وقد غابت الشمس في ظلمة رهجها فاذا انتهت الى نهاية السباق انحدرت تهبط وكأنها الطير انحطت الى وكورها قال :

يا حسن مبدى الخيل في وكورها ... تلوح كالانجم في ديجورها
كأنما ابدع في تشهيرها ... مصور حسن من تصويرها
تحمل غربانا على ظهورها ... في البيرق المنقوش من حريرها
ان حاذروا النبوة من نفورها ... أهووا بأيديهم الى نحورها
مرت تبارى الريح في مرورها ... والشمس قد غاب ضياء نورها
في الرهج الساطع من تنويرها ... حتى اذا أصغت الى مديرها
وانقلبت تهبط في حدورها ... تصوب الطير الى وكورها
صار الرجال شرفا لسورها ... اعطي فضل السبق من جمهورها

**وصف أيوان كسرى :ـ**

هذه السينية هي التي فضلها ابن المعتز وقال عنها لم تكن للعرب سينية مثلها ، بلغ فيها البحتري شأوه واقتعد هامة مجده وتألق نجمه وانقطع دون التطاول اليها حساده وهي رائعته التي ما وصل الى بعضها شاعر وان كانت قصائده اكثرها روائع ، ولم يصل البحتري الى ما وصل اليه فيها من جودة الابداع والفن في التصوير وتجسيم المعاني في هذه القوالب البليغة الا لما كان يعتلج في نفسه من الحزن ويغلي في صدره من الهم بعد نبو ابن عمه عنه وجفائه له ( يريد الخليفة ) وتحريض اولئك المرتزقة من رجال الحاشية ورعنة الشعراء بالتحرش له واغراء الخليفة به فكان حريا به اذ رأى نفسه مجفوا أن يرحل وأن يرى غير مصبح حيث يمسي بعد أن كان يحظى من ابن عمه بالدنو والأنس وندم على اشترائه العراق بعد ان باع الشأم بيعة وكس فيها الظلم والمقوق لموطنه الاول :

واشترائي العراق خطة غبن ... بعد بيعي الشآم بيعة وكس

وراح يدمي على الزمان الذي أصبح محمولا هواه مع الاخس من غلمان الاتراك الذين استبدوا بالحكم فلما حضرته الهموم وعصفت بنفسه الاحزان وجه الى القصر الابيض أبيض كسرى راحلته يتسلى عن الخطوب ويأسى لذلك البناء الدارس ويتأسى بمصير الملوك من آل ساسان :

حضرت رحلي الهموم فوجهـ ... ـت الى ابيض المدائن عنسي
اتسلى عن الهموم وآسى ... لمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالي ... ولقد تذكر الخطوب وتنسي

بعد هذه المقدمة التي بلغت نحو أربعة عشر بيتا والتي هي نفثة نفست عن نفسه الآلام التي تعتلج في صدره ، ذكر البحتري الجرماز وهو أحد أبنية القصر ويرى الشاعر ان الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس قال :

لو تراه علمت ان الليـــالي   جعلت فيــه مأتمـا بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم   لا يشاب البيان فيهم بلبس

ويرى الشاعر أمامه لوحة شخصت وجسدت على جدران القصر تمثل مشهدا لمعركة حربية دارت قرب انطاكية بين الفرس والروم فيتمثل هذا المشهد وينقله الى لغة الشعر نقلا صادقا ويضفي على الصورة من وجدانه ومن خياله الشعري حتى تصبح صورة حية . فانت اذا ما رأيت هـذه الصورة اخذك الروع بين جموع من الفرس والروم وتحس المنايا ماثلة لعينيك وكسرى انوشروان يسوق الجيش تحت الراية المقدسة وهو في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في المطارف المصبغةبالزعفران والمعركة قائمة بين يديه في خفوت صوت ، والرجال بين مشيح يهوى بصدر الرمح، ومليح من السنان بترس ، وهنا التبس على الشاعر المشهد وهو فيغمرة المعركة فتصور الرجال احياء وكانهم يتفاخصـون بالاشارة وراح يتقرى الصورة باليد ويتلمسها باصابعه ليخرجه هذا التلمس من حيرته واسمع اليه يقول :

فاذا ما رأيت صورة انطــا   كية ، ارتعت بين روم وفرس
والمنـايا مواثــل وانوشــر   وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
باخضرار من اللباس على اصـ   ـفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجـال بين يديـــه   في خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح   ومليح مـن السنان بترس
تصف العين انهم جد احيـا   ء لهم بينهـم اشارة خرس
يغتلي فيهـم ارتيابي حتـى   تتقــراهم يـداي بلمس

والشاعر لم ينته من حلمه حتى نراه يتلبس في حلم آخر او ينتقل الى مشهد جديد فيجسم لوحة فنية ثانية يتصور فيها ان كسرى ابرويز يعاطيه كؤوس الخمرة فيرشفها على غناء المغني وتغيم في مخيلته رؤى منها المحزن ومنها المبهج يبدو له الايوان حزينا وكانه مزعج بالفراق عن الفه وانيسه أو مرهق بتطليق عرسه ويتراى له الايوان صابرا جلدا يميس باعطاف السعادة حافلا بمراتب القوم غاصا بالوفود أثر الوفود فيصفوف طويلة :

حلم مطبق على الشك عيني   ام امان غيرن ظني وحدسي
وكأن الايوان من عجب الصنـــعة   في جرب ارعــن جلس
يتظنى عن الكآبة ان يبدو   لعيني مصبح أو ممسي
مزعجا بالفراق عن انس الف   عز او مرهقا بتطليق عـرس
عكست حظه الليالي وبات   المشتري فيه وهو كـوكب نحس
فهو يبدى تجلـدا وعليـه   كلكل من كلاكل الدهر مرسي

لم يعبه ان بز من بسعط الد    يباج واستل من ستور الدمقس
مشمخر تعلو لـــه شرفـات    رفعت في رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فمــا تبــصر الا غــلائل برســس
ليس يدرى اصنع انس لجن    سكنوه ام صنع جــن لانس
غـير اني ارى المواكب والقوم    اذا ما بلغت آخـر حسـي
وكان الوفــود ضاحين حسرى    من وقوف خلف الزحام وخنس
وكان القيان وسـط المقـاصير    يرجعن بين حـو ولعس
وكان اللقـاء اول من امس    ووشـك الفـراق اول امس
عمرت للسرور دهـرا فصارت    للتعزى رباعهـم والتاسـي

**استعراض يوم العيد :**

خرج المتوكل بعد صلاة عيد الفطر في موكب حافل واستعرض الجيش والشاعر ورجال الدولة يشهدون هذا العرض المهيب فقال :

فانعم بيوم الفطر عينا انـه    يوم اغر من الزمان مشـهر
اظهرت عز الملك فيه بجحفل    لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت    عددا يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعي    والبيض تلمع والاسنة تزهـر
والارض خاشعة تميد بثقلها    والجو معتكر الجوانب اغبر
والشمس ماتعة توقد بالضحى    طورا ويطفئها العجاج الاكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت    تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
ورنا اليك الناظرون فاصبـع    يومى اليك بها وعين تنظـر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها    من انعـم الله التـي لا تكفـر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا    لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابسا    نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع    لله لا يزهـى ولا يتكـبر
فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما    في وسعه لسعى اليك المنبـر
أبدت من فصل الخطاب بحكمة    تنبى عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في برد النبي مذكرا    بالله تنـذر تارة وتبشـر

**مقتل المتوكل :**

شهد البحتري مقتل الخليفة وناله ساعتها ذعر شديد اخرجه عن طوره فقد كان ليلة تنفيذ المؤامرة مع الفتح بن خاقان ينادمان المتوكل في القصر المعروف بالجعفري ، استهل البحتري قصيدته بالرثاء للقصر اخرجه الحزن عن طوره وتحفظه فراح يهجو الخليفة الجديد ووصف

تقويض القصر وانتهاك حرمته واستلاب ستوره حتى تساوت دوره ومقابره وامتلأ حزنا زائره ووصف وحش القصر كيف رديت اسرابه وذعرت اطلاؤه وصيح بسكانه بالرحيل ونهب القصر واضحى موحشا قفرا كأن لم يغن بالامس وكأن لم تكن الخلافة طلقة المحيا فيه قال :

محل على القاطول اخلق دائره ... وعادت صروف الدهر جيشا تغاوره
كأن الصبا توفي نذورا اذا انبرت ... تراوحه اذيالها وتباكره
ورب زمان ناعم ثم عهده ... ترق حواشيه ويورق ناضره
تغير حسن الجعفري وأنسه ... وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره
اذا نحن زرناه اجد لنا الاسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم انس وحش القصر اذ ريع سربه ... واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت ... على عجل استاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به ... انيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها ... وبهجتها والعيش غض مكاسره

وقال يصف قلم الحسن بن وهب الكاتب من قصيدة يمدحه فيها وفي هذا الوصف يقول الصولي برغم تعصبه لابي تمام ( لو سمع الاوائل هذا ما فضلوا عليه شعرا ) :



واذا استهل ابو علي للندى ... جاء الغمام المستهل بسكبه
واذا دجت اقلامه ثم انتحت ... برقت مصابيح الدجى في كتبه
باللفظ يقرب فهمه في بعده ... منا ويبعد نيله في قربه
حكم فسائحها خلال بنانه ... متدفق وقليبها في قلبه
كالروض مؤتلفا بحمرة نوره ... وبياض زهرته وخضرة عشبه
او كالبرود تخيرت لمتوج ... من خاله او وشيه او عصبه
وكأنها والسمع معقود بها ... شخص الحبيب بدا لعين محبه
كاثرته فاذا المروءة عنده ... تعدى المفاوض من اقاصي صحبه
فصبغت اخلاقي برونق خلقه ... حتى عدلت أجاجهن بعذبه

# مَا بَعدَ الحِجَابِ الخَامِس

ما بين التوجه الى الفعل وما بين الفعل
يظهر القصد

محي الدين بن عربي

شاكر حسن آل سعيد

**مقـــدمة :**

في لحظة الفعل تكتشف النية • على ان في هذا الاكتشاف ترتعـد البشرية جمعاء ، وجلة من مصيرها ؛ وتتلفت فيه الفريسة لكي تتبين من خلالها معالم مفترسها الطاغي الذي ستكونه • لقد ازيح عن القلب البشري الآن حجابه ، وغسلت عن وحدة القصد[١] ازدواجيته وتشـــابك كل من التوجه الى الفعل والفعل •



ومن الناحية المكانية كالزمانية سواء بسواء ، كان القصد يتأرجـح عند مصيره السرمدي ، فتنبت به أفراح واحزان الكون باسره • وعنـــد زاوية الجدار يجلس رجل الدين الملتحي خافض الرأس متجها نحو القبلة ، وما بين دعائه وتسبيحه تنهمر دموعه بغتة على وجنتيه ولحيته لأن آية من آيات الله كانت ستفصح عن نيته ، وتقدح شرارة الايمان الملتاع عن نور القصد الغاني في سريرته فان من حركات وسكنات تبدو وكانها قدت من قرميد الانسان الانساني ، وخشوع وابتهال يغنى ما وراء الكثافة ، كثافة اللحم والعظم ، يتحفز الانسان المتاله[٢] ، ويقعي بواسطته الوحش الناصح على أصابع قدميه •

وفي أمثلة اخرى اكثر وضوحا ، وان كانت أقل عمقا ، لا يطالعنـــا وجه القصد في المتعبد الا من خلال أقنعته • فليس من الضروري أن يبـدو القصد متداخلا بالنية لكيما يبكي بدموع الطفل الذي يتقمصه ، ويرتعـد باهاب الخائف الذى كانه ( بل على العكس اذ لا يظهر القصد الا عند تعذر ظهور النية لوحدها منطبقة على الفعل ) ، ذلك ان الانسان فيه يتقدم حجابه أحيانا الى الحد الذي يبـدو انه ممزقه ، فلا تلبث قناعة قبضة المقاتل المتشنجة ان تسدد نحو الصدر أو الجمجمة ، ولا يفتأ زناد أداة الحرب

البريئة يتراجع امام أنملة السبابة الضاغطة . ويبدو شبح المقاتل الغاضب أقل تطرفا من أن يتردد في مسمعاه ، وتملي الحياة على نفسها مايسرد بقاء الاصلح . ( الاشارة هنا الى نظرية دارون الشهيرة في أصل الانواع ) . لقد تحققت وحدة [ النية والقصد والفعل ] في كيان واحد ، ولم يعد ما يميز بين كل منهم على حدة .

الا ان أي مصير انساني مهما كان مرهفا لا يلبث ان يتحقق في أن يكون لا انسانيا . ( ان المصير ظاهريا يناهض التوتر ، وهو مجهود لا انساني الا انه في معناه المأساوي عين التوتر . وهو توتر حركي وليس بالسكوني ) فمآل الانسان حتما هو الموت . وهذا الجسد النابض بالحركة ، الدافق بالحياة ، يستمد على الدوام كيانه الجديد من لحظة هموده ، وذلك لانه لا يصبح بالمعنى التاريخي انسانيا ، ولا يكتمل الا في اكتساب ملامحه المغلقة بواسطة موته بالذات(٣) ، وحينئذ سيكون خير مادة جاهزة للبحث والدراسة ، للحكم والتقييم . وهذا المصير هو في ابسط ملامحه حضور ووعي متلازمان . فذلك الرجل أو تلك المرأة : تلك الجموع البشرية المتلاحمة ان هي الا غياب لوجهها الثاني ، كغياب وجه القمر المعتم الثاني عن اعيننا اذ نحن على سطح الارض ، وهو ما يمنحها وجودها التام ، ويجري النسغ في عرق أية شجرة حياة تكونها . اذ لولا هذا الغياب الأني للهمود لما أمكن لكائن من كان ان يظل مطمئنا . وهكذا ، يتجلى القصد منسجما مع فعله لان حياة باسرها ستنساب في موكبها .



يمشي الرجل متزن الخطى ، متأكدا من نفسه ، وتمضي المرأة المغناج في دلالها ، فمن يدري بعد ذلك ماذا يقصد بطفل رضيع يعبث لوحده ، وهو يجهل ان ثمة حياة وموتا . وسعادة وشقاء يتخللان سلوكه ؟ لقد ضحك أمامك بكل براءة ، وبلغ أسماعك صوته العذب ، رقراقا صافيا كماء الينابيع ، وسيبكي أيضا حينما يجوع .. سيقطع نياط قلبك بدموعه وأحزانه ، الا انك ستدرك في آخر الامر أن من ضحكه وبكائه ، من شبعه وجوعه تتقاطر دهور من حيوات لا تتصدى لسوى أخطارها المقبلة . في حين ستتجهل فيه المرأة والرجل ، سيجهلان معا لدهور أخرى ، التفاتة جيد يحز في اهابه مخلب غرثان ، واستغاثة شفاه يلعق بجراحها لسان راعف . [ الصورة الاخيرة مستقاة من موضوع الصراع في الفن الرافديني القديم : موضوع افتراس من الخلف ](٤) .

الا ان القصد ، سواء كلوعة أو كتسليم ، يظل في موقف أقل مادية من ان يكون فعلا ، وأقل روحية من أن يكون نية . وفي تاريخ البشرية أمثلة لا تحصى ولا تعد . ولكن لنستقصي ذلك من مطلعه .. منذ أن تحكمت النية في جانب الفعل وعن ( قصد ) لم يكن ليخامر ذهن الانسان النسخة بل الانسان النموذج . فما بين ان يقدر لكائن ضعيف ـ متطاول ( هو

الانسان ) انسانيته . وبين أن يمنح حريته التامة ، محاكمة فوق ـ بشرية لابد أن يضحي فيها بالجانب الانساني . [ لان انكيدو الانسان يقتل ثور السماء رسول الالهة فما نصيب البشر الا الموت ] . أما اولئك الذين يتغلب الجانب الالهي في تكوينهم[٥] فما عليهم الا أن يبحثوا عن سر هذا الجانب . ويستحيل القصد آخر الامر اما الى وصول تام الى الحقيقة ، أو قناعة مهيضة بالواقع . وهكذا . كان القصد في أول الامر يكشف عنه في غير السلوك الانساني المباشر . لكيما يستعاض عن احتساء الماء برشفات من الخمرة المعتقة ، بل بسلوك انساني معاد[٦] . وهذا السلوك المعاد هو نفس معنى الانفعال ، كاسطورة أو كملحمة . وبهذا المعنى فحسب . وبثمنه الذي لايبخس الانسان قيمته . ... ذلك الكائن الظلوم الجهول[٧] ، والذي لا يزال فيه الفعل مرتميا في نيته . بل ممسوخا الى لافعل . يكتسب القصد طاقته الرؤية .

ثمة موقف من هذا القبيل يقفه من يدعون التأله . وهو ، وان بدا احيانا مترجما بشكل حلم أو امنية تراود سريرة البطل الخرافي ، الا انه مع ذلك سيكمن فيه اللحن الذي يجرد الاصوات الطبيعية من مدلولاتها ، والحوادث البشرية من واقعها . وحينئذ سيكون استخلاص الرمز القصدي ، أو جسد الرؤيا بتحليل الحادثة المروية . الملاذ الاخير للعودة باللا ـ فعل الى مظهره الفعلي . لقد طفقت حمامة مطوقة تهدل على غصن شجرة سرو ، وهي ولابد تعبر عن حاجة تتلجلج في صدرها . وسرعان ما تجرد الاذن البشرية النشيد من معانيه الفعلية التي لا يمكن فهمها . ومع أول خيوط الشمس المشرقة يلتوعب هديل مجرد ما تفتأ مخيلة الانسان الصاحي تفتش له عن صيغة تالية ... عن بديل قصدي يلتهب بلوعة الانسان الملتاع . وتعلو الانشودة الطيرية مترجمة بلسان طفل شاعر :

كوكوختي أو (كوكوكتي )
وين اختي ؟
بالحلـة ،
واشتاكل ؟
باجلـه ،
واشتشرب ؟
ماي الله(أ) .

**فجر القصد :**

تشـير اقدم ملحمة معروفة في تاريخ البشرية : ملحمة جلجامش الى موقف معين لا يلبث أن يكتسب ملامحه العامة ضمن اطار من صراع متكافي، بصورة تقابلية ، [ الهي ـ انساني من جانب وانساني ـ الهي من جانب

آخر ] يمارسه البطل جلجامش مع نده وغريمه ثم زميله انكيدو ٠

ذلك هو الشخصية الانسانية التي ما تزال تحتفظ بقسط من تاملها الوحشي ، بعد تجربة التحضر التي عاشها مع البغي ، والذي كان قد فجع بتحوله الاخير ( منذ ستة أيام وسبع ليال[٨] ) ٠ ينتصب وجها لوجه أمام جلجامش ( طوله أحد عشر ذراعا وعرض صدره تسعة أشبار ـ ثلثان منه اله وثلثه الباقي بشر )[٩] ، ومن سيرهص بالقصدية وان لم يعود النظر الى الخلف ٠ ويسرد لنا النص ان انكيدو بقامته المديدة ، وشعره المنسرح ، ببساطة انسان ـ حيوان لم يكن حتى ولا راعي غنم ؛ وندم انسان ـ انسان سيقول على لسانه شاعر عربي هذا الشطر المفجوع : [ ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ][١٠] ٠٠٠ ان انكيدو هذا يمتقع وجهـــه غضبا بمجرد علمه باقتحام جلجامش لبيت الرجال ، لكي يجلل المدينة بالعار والدنس ، ويستمر النص :ـ ( وقف انكيدو في الدرب وسد الطريق بوجهه ٠ رأى جلجامش انكيدو الهائج الذي ولد في البرية ، ويجلل رأسه الشعر الطويل فانقض عليه وهاجمه ٠ تلاقيا في موضع السوق ٠ سد انكيدو باب بيت العرائس بقدميه ، ومنع جلجامش من الدخول الى الفراش ٠ أمسك أحدهما بالآخر وهما متمرسان بالصراع ، وتصارعا وخارا خوار ثورين وحشيين ، وحطما عمود ( قائم ) الباب فارتج الجـــدار ٠ وظــــل جلجامش وانكيو يتصارعان كالثورين الوحشيين ، وحينما ثنى جلجامش ركبته وقدمه ثابتة في الارض ( ليرفع انكيدو ) هدأت سورة غضبه واستدار ليمضي )[١١] ٠

والى هذا الحد يمكننا تصور ملامح العقل الملحمي ، دونما (قصد) ولا ( نية ) ٠ فهو لأول وهلة لحظة حس كان سيرسم لحضرتها ابن عربي أبعادا مادية ـ حيوية :ـ ( قف أيها الحس الانفس ، وتحرك للشروع في العمل فان هذه الحركة المخصوصة لما ورد في النقل نظير النية المختصة بالفعل[١٢] ٠ وكان سينتزع لها قصدا روحيا ( ٠٠٠ ولظهور عين الصفات على عالم النشآت لاتصافهم بالالتفات ، فهذا حظ الحركة )[١٣] وليس فيه الا عراك دام من أجل الظفر ٠٠٠ عراك متكافيء[١٤] يبهر الانفاس ، ويبرز الجانب الانساني بمستواه الحيواني ٠ فما كان لقـدم ممدودة معترضـة لخطوات متسلطة شبقة ذات نسب الهي الا أن تزاح ، وما كان لشــــهامة نفس مدنسة تنشد النقاء عبر عملية صمود الا أن تبهر ٠ ويتقاسم كرامتهما على مرأى ومشـهد من الناس نفسـان وجسدن همـا على صعيـد واحـد من النية ٠ أو لم يعد ما يرجح فضل أحدهما على الآخر سوى بصيرة الالهة في التوحيد ما بين الفعل ورد الفعل ؟؟ وينهض الخصمان في آخر الامر على صداقة ناشئة ، وسرعان ما تتلاشى احقادهما في تسامحهما ٠ وبنص العبارة كان على جلجامش أول الامر أن يتصل بالآلهة اتصالا جنسيا : ( ولما هيء الفراش لأشخارا ليـــلا ، واقترب ججامش ليتصل بالالهة )[١٥] ، وهذا

ما يؤكد بلا شك الجانب الالهي من وجوده [ لانطوائه على الزواج المقدس ولتعلقه بالنية ] ليبقيه في جانب النية وليس الفعل ٠ فلو لم يتصد له انكيدو لظل جلجامش في أزله قبل ـ البشري ، وسيمنع عن ذلك بحركة تصـدى لها وخز طارف عصا شيترا وهي تزيح ارجونا المحارب عن طريقها(١٦) . وهكذا ، فجلجامش ، وهو في ذروة غيابه عن [حقيقة فعل] سبق أن مارسه بشكل ما يتحول الآن نحو [ حقيقة نيـة ] سيمارسها فيما بعد كفعل ٠ سيتحول الرجل الذي ينسب له جزآن الهيـان الى رجل أكثر انسانية ، وأكثر كثافة من أن يهمل تجربة انكيدو ٠ وفي ذروة مشهد متناظر تناظرا دنياميا يكتسب كيان المنتصر ذلك الذي سيكسب منذ الآن فصاعدا روحه ويخسر العالم ٠ و ( يثني جلجامش ركبته ، وقدمه ثابتة في الارض )(١٧) .

ان جوهر القصد عند جلجامش يتبلور في هذه الانثناءة البسيطة من الركبة ، والتي ستتبعها استدارة ، بل التفاتة جيد من (هذا غضبه)(١٨). أكانت اذن خارج حدود النية الاسطورية التي نسجتها تجربة الهية متمرسة في دفع عجلة التطور الى ما لانهاية ؟؟ لقد اشتكى سكان المدينة الملكية المبتلاة هذا الوحش ( القوي الجميل الحكيم )(١٩) ، والذي ( لم يترك عذراء لحبيبها ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل )(٢٠) ... هذا المعتدي الطاغي ، من لم يفلح في تبرير ثلثيه الالهيين على حساب ثلثـه البشري [ الاسترسال في وصف أوليات دعوى جلجامش يقصد بها الالمام بمستوى النية التي دفعته الى الفعل ](٢١) وبغتة وفي محاولة نهائية يكتشف أهمية التناظر الدنيامي [ كتناظر الصورة الفوتوغرافية الموجبة ولوحها السالب ] في ضرورة خلق جلجامش آخر هو ذاك الانكيدو ٠ والواقع انـه اذا كان الاول هو الالـه الانسان فان الثـاني هو الانسان المتـأله(٢٢) ٠ ولكن مع ما في تضييع للمشكلة في هذا التطرق الى التناظر فالكلام عن قصدية أحدهما هو وصف للا ـ قصدية الآخر ٠٠، ففي انثناءة ركبة لم يحسب حسابها ، واستدارة جسد لم تكن في الحسبان ، وفي التفاتة جيد لم تتبين بعـد مفترسها على حقيقته سيظهر القصد بغتة رائعا كظهور الاصداف الملونة في قعر البركة الهادئة الضحلة ٠

لكان جلجامش في تراجعه بعد انتصاره كان يشهد ميلاد حياة جديدة مفعمة الشعور بالامتنان لهذا المنقذ الذي جاءه بشكل غريم متحدي وهكذا ، وعلى الرغم من اقتصار النية النـامية بضمير المجتمع الاورروكي [ نسبة الى مدينة ارك الاثرية ] على مجرد وضع حد لتصرفات حاكم متجبر فقد ظهر القصد بغتة من خلال الفعل الذي اريد له ان يكون اخلاقيا فأصبح مجانيا ٠ في حين ستتجلى لنا في اعتراف انكيدو المفاجيء أية نية متألهة للتكفير عن غرور الانسان بشكل ( قصد ) اخلاقي ٠ وفي نهاية الامر ستكون صداقة الغريمين

هي المحصلة القصدية الموحدة ما بين النية الخالصة والعقل الخالص ، ما بين الروح والمادة •

## هواجس ما قبل الغروب :

ثمة سيرة شعبية يقترن فيها القصد بانسان غير اسطوري ، انسان من لحم ودم وقابلية على الحرية (٢٣) ، الا انه مع ذلك ليس كالاخرين • فهو يمتاز عن سواه بكونه ملكا عربيا ، اي زعيم قبائل بدوية متحضر ، وانه لامتياز ثر ذو ابعاد مأساوية ورؤويه هامة •

تحدثنا المصادر العربية القديمة ( نصف الشعبية ) عن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وعن يومي بؤسه ونعيمه ، ومهما تكن الرواية ذات ملامح نصف شعبية نصف علمية ـ اذ لا بد انها ذات جذور متعمقة في اساطير الحضارات الرافدينية القديمة ـ فانها ولا شك تسمرنا امام تقصد مبتور عن نيته وفعله على السواء •• عن حادثة مفاجئة تنقض على صرامة نظام الملك الاخلاقي باخلاقية النظام البدوي • وما بين مشرق شمس ومغربها تذوب ثلوج العربي المتحضر على ألسنة لهيب القبلي شبه المتحضر •

ثمة تطير وتشاؤم يختصران اعياد تموز(٢٤) ومناحاته عبر موقف الملك المزدوج الشخصية • بل لعله يسقط مأساة تموز كضحية على سواه • فهو مابين ان يضحي بهم في يوم بؤسه وبين ان يفرح بنجاتهم فيكرمهم بيوم نعيمه ، ولو اتخذ لذلك ذريعة قصة نديميه • [ والمنذر هنا الصورة المعكوسة لتموز ـ اي انه يسلك بضمير عشتار زوجته ، أليست هي التي تسببت في نزوله الى العالم السفلي ؟ الم ترض به بديلا عنها في الموت ؟! ] ومع ذلك ، فما يهمنا في ازدواجية المنذر هو موقفه الاخير لما قبل تحوله •

يحكى عن ملك مهوس يقتل من يأتيه في يوم ويكرم من يأتيه في يوم آخر ، ثم يصادف ان يلتقي بأعرابي ينقذه من الهلاك فيحب اكرامه • ويفد الرجل المحسن بعد ذلك في يوم ما لا على التعيين يكون هو يوم البؤس بالذات ، أي الذي سيحكم على الوافد فيه بالموت ، [ والملك هنا بملامح كاليجـولا كامو(٢٥) ] وهنا يتجلى بغتة موقف المنذر القصدي : انه لا يريد ان يفتك بمن انقذه ـ وهذا هو الجزء الانساني والبدوى منه ، وهو لا يريد ايضا ان يقلع عن مزيته ، عادته ، وهذا هو الجزء الالهي والغريب عليه • وهكذا تحتدم في نفسه ما كان يحتدم في نفس جلجامش من جزئيه الالهي والبشري ، وسرعان مايصطلي خلاله الانسان المتحول بنيران حريته المقيدة • وتقـول الحكاية انه يلجأ الى آخر مالديه من حيلة ، فالاعرابي ، وهو يتضمن شخصية انكيدو(٢٦) في ملحمة جلجامش يودع أهله قبل الاقبال على الموت ، ووزير الملك الذي يضمن عودته من غيبته سيكلفه • ويجمد ( منحنى )(٢٧) الملك الشخص، وهو ينتظر مصيره المعلق بهذا المنعطف غير المنتظر • من أين جاءه الاعرابي

بهذا اليوم النحس لكي يعذبه كل ذلك العذاب ؟؟ ذهب الان الرجل • فليته لا يعود • ولكن دقائق اليوم الصيفي تمر متثاقلة متباطئة ، وعرق القلق يتجمع على الجبهة المقطبة كما تتجمع قطرات المطر في ضمير الغمام المدلهم ٠٠٠ سينتظر • ويمضي النهار حتى يكاد ينتهي ، والاعرابي لم يصل بعد ، ولن يصل الا في الموعد الحاسم • وتمر الدقائق الاخيرة متباطئة متثاقلة ، والملك في ذروة تناقضاته ، فسيعاد التساؤل :ـ

ـ الم ينقذه الرجل من الهلاك دون ان يعرف من يكون ؟ ايكون الملك العربي اذن اقل شهامة من أحد رعيته ؟

ويتمنى : ـ لو ان الاعرابي لا يأتي ! اذن لاكرمه ، ضمنا ، فخالف ، محجوبا عن عادته ، من انقذه •

ويبرر : ـ ما قيمة حياة الوزير اذا كانت مزيته كملك ، وهو الذي يمثل أعلى سلطة حاكمة ، ان يبطش بمن هو دونه باسم التقليد ؟؟

وبغتة تلوح في الافق سحابة • وما بين حمرة الشفق المغيبي وظلال كثبان هي كظلال العفاريت ، ومن خلال سكون الغروب الحزين ، يبرز الاعرابي في الوقت الذي يكاد ان يهوى الجلاد بنصله على رقبة الوزير المستسلم •

لقد رقدت طيلة سنوات وسنوات حرية ملك ما في أن يكون انسانا كالآخرين • انه يشرب ويأكل ويصطاد الغزال وحمار الوحشي ، وانه ليفتخر بعروبته ، بل لابد انه ، يشرب الخمرة ، ويصغي الى المغنين ، ويشاهد حفلات الرقص ، وقد يزني أو يلوط ، وباختصار سيجمع ما بين ضروريات الحياة الانسانية ومقتضيات الحياة الملكية ، ولكنه محروم من حريته الذاتية في أن يكون انسانا يشعر بالرحمة ويندم على خطأ اقترفه • وتستيقظ الفرصة بغتة : هذا هو المنقذ يلوح باهاب اعرابي ما ، وان الملاك ليبدو وكأنه يهبط من السماء ، وها هو ذا بعيره المتكبر يلتفت بجيده متسائلا ، قاطعا لسان من ينكر على صاحبه صدقه • وتحتدم في نفس الملك لوعته : لقد طفق يتأرجح ما بين نيته وفعله طوال اليوم او الايام التي سبقت هذه اللحظة الحاسمة ، وقد كان من قبل بلا نية ولا فعل ، اي لم يكن ليشعر بهما • اما الان فليس له الخيار في ان ( يقصد ) ٠٠ في ان يتخذ موقفه عن حرية فيبطل عرفه :ـ

« تقدم ٠٠ تقدم أيها الرجل العظيم ٠٠ انك لا تدري كم طبيب يعيى عما قمت به من اجل شفاء شهريار لم يكن ليبني بشهرزاده قبل اعدامها(٢٨)• لقد منحته ما لم يمنحه اياه ، لا عرشه ولا حسبه ولا نسبه . لقد منحته حريته في طرفة عين ، ومنحته معها صحراءه وكثبانه ، ومضاربه ، ونباح كلب قراه » • ويتقدم الرجل العظيم وهو باسمال بدوي كالآخرين •

لقد طفا قصده رغم انطوائه تحت وطأة العرف الملكي • وحينما تحجب ( نية ) اي عرف فانما لكي تهب العمل مجانيته ، وحينئذ سيكون صداه أكثر من ان يظهر بمظهر حكم فردي ، واختيار انساني • وهذا هو بالضبط ما كان سيظهر به امتياز جد النعمان • انه ( كاليجولا ) آخر يحاول المستحيل •

والمستحيل الذي أراد ان يجعله حقيقة هو ان تكون الحياة والموت على مستوى الصدفة المحض . انه سيلعب بالصدفة بدل ان تلعب هي به ، وبمجرد مجيء انسان ينتظر ( قصده ) سيظهر هذا الضيف المجرم او البريء معاقبا أو مكرما دونما سبب . وأي زائر اذن هو محكوم له أو عليه في اللحظة التي يتقدم فيها . ولكن نوع الحكم لم يكن مع ذلك ملك من يدين بولائه لسواه (فان ملوك الحيرة كانوا صنائع الفرس ) . انه ملك مقدمه فحسب . وهكذا ستتساوى في هذا الحكم طبيعة الحاكم ، الذي لم يكن ثمن حرية باعها منذ تسنمه العرش الا هذا الحل الذي يضعه في منتصف الطريق نحو تجاوزه النهائي فحسب ، او ثمن خياناته لانسانيته كبدوي في انسانيته كمتحضر ، وطبيعة المحكوم كأي فرد بدوي من أفراد القبيلة يشعر بكرامته ويستمرؤها . ثم ، وبغتة يسترد فيه البدوي بتغيير قانون اللعبة ، ويحوز الملك المثقل الضمير على كرامة الاعرابي المهانة .

هنا في مثل هذه المحاكمة العقلية ، المرهقة تظهر النية آخر الامر وهي متقمصة القصد عبر الفعل . الا انه أي الفعل هذه المرة لم يكن سوى الاطار الذي تنجز فيه النية . لقد استحال الفعل الى مجرد انجاز لا يكتسب معناه بنفسه أبدا ، ولم تعد عزيمة الملك في البطش بضحاياه واكرام طغاته غير المناسبة التي تنفذ فيها رقبة الوزير ، والصدفة التي تنتصر فيها ارادة الرجل الصادق . لقد انتصر في آخر الامر ( الكيدو ) الاعرابي وبدأت المرحلة التي سيتخلى فيها المنذر عن احلامه الحضرية ، عن ملكه ، وبالتالي عن حياته بحرية وقصد .



## ما بين البوح والكتمان

تتجلى تجربة المنذر القصدية ، وهي في مظهرها الفعلي ، من خلال استعادته لتجربة الاعرابي نفسه فيما بعد . انها صميم ( التحول ) الذي عاناه الملك ، ذلك التحول المنطوي على ازدواجية حقة ما بين الروح البدوية والاخلاق المسيحية ، واللتين ستتلازمان في المواقف التالية له . ولان ما تلقاه المنذر عن الاعرابي هو درس لا ينسى في الاخلاق التي مهما كانت ذات مظاهر حسية فهي تعبر عن محتويات روحية ، فسنن رنة تصوف مكين او تجلي ( الكيدو ) ، سيبلور شخصية المجاهد المسلم فيما بعد ، علينا ان نتسمعها في نبرات منتظمة لمحاولات متجاوزة يمارسها الضمير العربي المتطلع للانعتاق (٢٩) . الا ان هذا الدرس البليغ كان مع ذلك نصلا ذا حدين ، اذ ليس في العودة الى اهاب البدوي فيه الا ان يتم بثمن « يتصف بمعنى الخلود ( والخلود لا يتحقق الا بالموت ) » فهو ثمن لا يقدره حق قدره سوى جامع التحفيات وليس التاجر ولا الصيرفي . انه كذلك الثمن الذي لا يتمكن من استعارة عبارة الفأس — الرمز السومري والسبب للنزول الى العالم السفلي(٣٠) — لتشييد طفولي بريء يلج في التماس المطر :

ياربي مطرهه
على عناد العلوجي •
علوجي بيده فاسه ،
يمشي ويذكر راسه ( وفي رواية يمشي ويحك براسه )

ويستغني الوجه ذو الخصلات الشقر ببضع قطرات دافئة من المطر الخريفي عن دموعه التي يغدقها بحرقة أمام سحر اللعبة التي لا يطيق والده شراءها •

وهكذا فان شهامة حفيد المنذر ، وهو النعمان ، في التصدي للملك الفارس مع علمه بانه قاتله يؤكد فيه من جديد كرامة من ينشد الخلود ، وفي موقف اعرابي لا يخلف وعدا قطعه ولو على نفسه • اتتحدث من بعده العرب اذن عن ملك من معدن ساكن الخيمة المتنقل يستخذي امام بهرج ملك الملوك الزائل ؟ ويتقدم الرجل فيه ثابت الخطى ، جديرا بملك امبراطورية عالمية ، لكيما تدوسه أقدام الفيلة فيعود من خلاله الشاعر المتنبى المهزوم الى الفارس العربي الابي[٣١] ، فهو الآن في صحراء عراقه الحبيب • ولكن هذا البشير الذي سبق النبي العربي محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بدعوى الانسان الجديد بعبادة الله ••• الانسان الذي يكتشف جنته بجهاده ، لم يكن يبخل على أحفاده بدرسه الذي لاينسى ، الا انه الآن سيكون درسا بليغا لا في التضحية فحسب بل في الكشف عن الخيانة أيضا ، وسيكون للنعمان ( يهوذا ) آخر يظل ملعونا أبد الآبدين ، وذلك أثناء مروره بين سراري كسرى ، واللواتي سيفترض تأثير تجنيدهن النفسي لكسر كبريائه • ( كما كادت عشتار ، وهي كل حسناوات البشرية ، ستقضى على كبرياء جلجامش بعد عودته من غزوة خمبابا منتصرا ) ؟

اكان لقصد المنذر اذن أن ينمو خلال اجياله التالية بأكثر من هــذا ( العذاب الدنيوي المرهص بالتحول الاكبر في ضمير النفس البشرية وليس في نفسية امة فحسب ! ) ؟

بيد ان استمرارية القصــد لم تتحقق في شكلهــا المأساوي وليس الديالكتيكي فحسب ، والذي سيهيء لها ما يشبه مناحات ( تموز ) ، الا من خلال سيرة تثبت نفسها في تاريخ الميثولوجيا بما لا يقبل النقاش • وسيكون ثمنها مجزرة رهيبة كان يقصد منها اجتثاث جذور البيت العلوي ، وحياة روحية لاحد اثنين من الذكور الاحياء[٣٢] من المرجح ان أحدهما كان قد مر بنفس تجربة دستويفسكي لما قبل الاعدام[٣٣] •

كان لبديل ( اينانا ) ان يتجمل لزوجته المقبلة عليه • فها هو يستقبلها بشموخ ورجولة الزوج الشرقي • وما بين عقود العقيق واللازورد سيصدع الاله الشاب بزبانية ذلك العالم السفلي الذي لا رجعة منه الا ببديل لينوء من بعده المجتمع المفجوع بمناحاته واحزانه • وهكذا كان على الحسين بن علي[٣٤] ، وزمرته الذين حيل ما بينهم وبين الماء ـ والماء هنا هو الرمز للحياة وسرها ،

والذي لا يعرفه حق المعرفة سوى ساكن الصحراء . وسيكون ارتشافه بدوره رمزا للاحتضار ( فالحسين بن علي في آخر لحظات حياته يجلس محتضنا صبيه القتيل ليشرب كأسا من الماء فتسدد له نشابة تحول دون ذلك )(٣٥) اقول ... كان على الحسين بن علي وزمرته ان ينالوا خلودهم بواسطة الموت ، في حين سيظهر هذا القصد في نية الانسان الفاني عن البشرية من خلال موقف زين العابدين . فليس بين موت الانسان وولادته الا ما بين ( تخيل ) زهرة شقائق نعمان و ( رؤيتها ) . وسرعان ما كان سر خلوده – وهو الذي اقتيد موثوقا الى يزيد بن معاويه ليطمأن هذا الاخير على خذلانه – هو كتمان العلم الرباني الذي تمكن منه فخلده في حياته مثلما تمكنوا منه دون ان يكتموه فخلدهم ، عترة بيته ، في موتهم .

تحدثنا الكتب التاريخية ان خلاصه من الموت ، وهو بعد شاب يافع ، كان بسبب مرضه . غير انه يخيل الينا ان مرضه بدوره كان بسبب نجاته من الموت . ( المرض والنجاة هنا متلازمان كالليل والنهار ) لقد نجى من المذبحة التي قصد منها اجتثاث جميع الذكور المطالبين بحق الخلافة لآل البيت ، وفي ظروف تبدو مبهمة . اذ ان من يقدم على رمي طفل وهو في احضان ابيه – كما حدث لاحد ابناء الحسين بن علي اثناء واقعة الطف – لن يحجم عن الفتك بشاب مراهق ولو كان مريضا مقعدا . واغلب الظن ان نجاته من الموت كانت بتدبير بعض الامويين الموالين سرا للعلويين ( اذا لم يكن للصدفة دورها في ذلك ) . وهذا كله لا يهمنا ، الا ان ما يهمنا هو القصد الذي سيتحول بموقفه من كونه ابن الحسين مقيم مجد البيت الهاشمي بسيفه ، وباسم التمسك بحقه الانتخابي في الحكم الاسلامي ، ومن كونه سمي جده ( علي ) الذي ينسب اليه استقاء علم الباطن عن الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، الى هذا الموقف الحيادي الذي يقفه من اعدائه واصحابه على السواء . ان ما يسم قصده ابدا هو الموقف السلبي الذي يلتزمه من أهل الظاهر جميعا ، وهو المتصوف المتوكل الذي لم يبق في ميسوره سوى الصمت ، الا انه صمت ناطق .

لقد شاهد خلاله المراهق المحايد منذ البداية ، ببصيرته قبل بصره ، متأملا(٣٦) مصير أي صراع منطقي لوجهتي نظر مختلفتين ، لم يكن ليحدث لولا ارادة الله وحدها . وشاهد كيف أن عملية تبرير وليست كشف كانت ستصطبغ بها نتيجة تطاحن قوى متضادة لا يحفزها الا الامتلاء النفسي ، فما كان منه الا أن تمسك بعزلته التأمليه ، واحتفظ بأهميته الوراثية .. بهموده الظاهري .. بسباته (٣٧) كثاني ممثلين لقدسية البيت النبوي . ولقد تبوأ شيخ العشرة فيه من جديد مكانته بمعزل عن الفعل المرسوم ، فهو الآن ند يزيد المستسلم ، أو من قبع فيه الوحش الناصع مجددا ، وهو على نية معكوسة : وانه ليظل معتزلا صامتا على تغلغله ونطقه ، وانه ليظل محايدا على الرغم من التزامه ، فما بعد عدة أجيال سيظهر أحفاد له لن يقوى على

تكبيلهم .. كبتهم ، اذ ليس ما بعد سكون العاصفة سوى هبوبها . ( ولقد ظهرت باستمرار ثورات العلويين طيلة العصر الاموي ، فالعباسي ) (٣٨) .

وفي قطعة شعرية قيل انها منتحلة يلخص لنا زين العابدين منهجه ، ويضيع في آن واحد أسس فلسفته القصديه ، مثلما يرهص بمأساة المتصوف المسلم فيما بعد ، والتي كادت أن تودي بحياته (٣٩) .

يارب جوهر علم لو ابوح به ... لقيل لي انت ممن يعبد الوثنـا
ولاستحل رجـال مسلمون دمي ... يرون اقبح ما يأتونه حسـنا

ترى ما هو جوهر هذا العلم الذي يخشى ان يبوح به سوى مطابقة الفعل للنية عن قصد ؟ مع ذلك فمثل هذا البوح لن ينكر ان النية ستتحقق بالفعل . ومن يدري ما اذا كان القصد فيها قبسا مضيئا من النية ؟ لقد تضمنت حياته بلا شك هذا التلجلج (٤٠) المكين ما بين ان يشعر في نفسه فيبرر طموح العربي المتجاوز ( لقيل لي انت ممن يعبد الوثنا ) وبين ان يخفي عليه حياته التي لم تكن لتكتسب امتدادها الشرعي عبر ما يبوح بعلمه الباطن تكتفي بظاهر الامر : ( يارب جوهر علم لو ابوح به ) ، ولقد اختصر ما انطوت عليه حياته التي تكن لتكتسب امتدادها الشرعي عبر ما يبوح بعلمه الباطـن ( وما عملية البوح هذه الا الوصف الظاهري للشعور بكل جوارح الانسان ) ، أو يكتم من خلال استدلاله ذي الشواهد ، لان دون ذلك استباحة دماء بريئة باسم الدين ، وهو نفس المصير الذي صار اليه او تعرض له ابوه وجده وعمه ، كما تعرض جميع المسلمين المجاهدين الشهداء في سبيل الله (٤١) . ذلك لانهم أباحوا دماءهم بواسطة افعالهم (٤٢) ، ولم يكتموا سر العالم الباطني من خـلال كفاحهم . ولكن شتان ما بين موقفه ومواقفهم ، فهو سيجعل من حياتـه الدينية التي لم تحظ بهالة ما في ( السلوك ) الى تمزق داخلي لما يكتمه ، ولما يبوح به . فما أحفل هذه الاشطر الاربعـة بدعوى تأريخ التصوف كعشق يستعجل الفناء .. فناء العاشق بالمعشوق !! انها من نفس دموع رجل الدين الملتحي المذروفة بين تسبيحه ودعائه . كما ان نداءه من نفس نواح نفس معذبة صابرة يكاد أن يفضحها صمتها .

كادت اذن أن تفضح زين العابدين سيرته . الا انـه لم يفضحها .

## من ود المحب المحق :

هذا التلجلج المكين ما بين البـوح والكتمان اصبح بعد هذا حوالى ربع القرن فحسب مرسوما بواسطة جسد انسان آخر وروحه ، دون ان يكتسب باعثه الظاهري ، لا مابين صليل السيوف ولا تناقضات غرائزه وعقله . قيل في اصفهان بزندقته (٤٣) ، وحينما سيعين ببركته زميلا قطانـا في تستر فسيسمى حلاجا (٤٤) ، وهو في بغداد بعد سيوصف بكونه ساحرا او مصابا بالنيرنج (٤٥) ، وسيذهب للحج ثلاث مرات ويمنح مريديه بفضل الله وهو في أرض السواد حلاوة جبل قاف (٤٦) ؛ ثم انه يزور بلاد الهند وأواسط آسيا

ويستحضر ابن ملك الروم ليلة بكاملها (٤٧) ، وسيطارد ويسجن لمدة تسع سنوات ، كل ذلك وهو يطوي على ضلوعه قلبا عامرا بحب الله ، ويسعى بجوارح ( ملامتي صارفتي )(٤٨) ، ويروح ( محققا نبوءة ) مراهق شاهد الموت على قيد انملة منه ، حاصدا ثمانية عشر رجلا من ذويه وستا وخمسين مؤازرا • فما بعد مذبحة كربلاء بمائتين وثمانية وأربعين عاما يقف عند نطع الجلاد رجل اعزل ستستحضر من خلاله جميع المقاصد الانسانية ـ المتألهة لاكتساب الخلود ، بشقية الفنائي (من فناء البشرية ) والموتي ( بالمصير ) • وهي وقفة عبقة ( بقصد ) نفس سبق ان مارست تأرجحها ما بين ايجابيتها وسلبيتها ، ومن طرفي نقيض طغيانها وتضحيتها •• وقفة سيصفها بعد أكثر من ألف سنة كاتب متفان من الطراز الاول بكونها متجاوزة للوجد الاعلى وليل ، لا ليل الحواس ولا النفس بل ليل الروح(٤٩) ، ومن دون ان تتخللها التفاتة جيد ، أو انثناءة ركبة ، أو اطراقة رأس • ولسوف يترجم اثناء هذا التجسد المناخ النفسي المشحون بمحنة احتضار أو لحظات ما قبل التحول • وهو سواء أكان صرخة الوليد ام حشرجة الميت يلم شتى ملامح الطبيعة والمجتمع معا بل والكائنات جميعا حتى لكان موت الحلاج : الحسين بن منصور ، الولادة الجديدة لحياته الشخصية الاخرى ••• هو موت وولادة تلك الذبيحة التقليدية عند الحج ، اي الضحية ( تهدى الاضاحي واهدى مهجتي ودمي )(٥٠) ، او موت وولادة دجلة ما بين ندى العراقي وشحة المزدوجين(٥١) •

الم يكن تموز آخر هذا العابد الذي سيعوض زهرة يرمى بها كناية سخط محنق عن رماد جسده المحروق المذرى كرماد في ماء النهر رمزا لافناء حي ؟؟ وكما سيعترف الشبلي (٥٢) فيما بعد بشجاعة الحلاج سيروج اتباع الحلاج اسطورة فيضان دجلة بسبب رمي رماده فيه • وهكذا سيلتقي كل من الربيع بواسطة ( الزهرة المحذوف بها ) ، والخريف بواسطة ( الرماد الذي صار اليه ) عند احتضار انسان اختار طريقه ( في ) الموت عن وعي وايمان • وهذا الانسان نفسه هو الذي يقول في مناسبة ما ( يا ايها الناس اغيثوني عن الله « ثلاث مرات » فانه اختطفني مني وليس يردني علي ) (٥٣) ، أو يقول ايضا : ( يا أهل الاسلام اغيثوني فليس يتركني نفس فآنس بها وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها ، وهذا دلال لا اطيقه )(٥٤) •

وفي نشوة من فناء حي عند مناسك حج ، سيتمتم فيه شيخ ، سبق ان اعتكف سنة من الزمان عند الكعبة دونما اهتمام بحر أو برد او مطر أو جفاف ، باهدائه المسبق لمحبته ودمه ، وكأنه يقصد ذلك ويتنبأ في وقت واحد بموته •• بنهايته التي هي منسكه الوحيد التام للمثول امام بارئه • وكما تذبح الخراف مستسلمة الا من ثغائها الاخير ، والذي قد ترثي به نفسها ( وقد يكون حمدا لله على اية حال ) ، سيترنم هو بدوره اخيرا حينما يتقدم الى الاعدام بقوله ( حسب الواجد افراد الواحد له )(٥٥) •

*

الا ان كل هذا الوصف المار ، ( اي التخطيط السريع لشخصية الحلاج ) لا يكاد يفصح عن مشكلة القصد مباشرة ، والتي عاشها خلاله الانسان في شكلها المغلق • لا كمواقف قصدية : جلجامش ــ انكيدو عند باب السوق ، ولا كاختيار جاسم : ــ المنذر بن ماء السماء ــ الاعرابي ، حتى ولا كتصميم انساني :ــ زين العابدين ، بل كمنحنى ديالكتيكي غني بمواقفه واختياره وتصميمه معا • انه ان يحتوي بحياته الشخصية الخليقة جمعاء •• ان يعيش ( قصديته ) بجميع ابعادها الانسانية •

*

اذا كانت النية لا تكتشف الا في لحظة الفعل ، فالقصد اذن سيظل مترجحا عند مصدره السرمدي • ولقد عبر الحلاج عن هذا الترجح في شتى مواقفه • فلقد كانت حياته برهانا ساطعا على انه كان يحاول ، متأملا ، ان يتخذ من الموت بعدا اخر لحياته • ولعله لم يبرهن في شتى مراحل حياته على هذا البعد مثلما كان سيعبر عنه عند موته بالذات : مصلبه • ومن هنا نجد ان تصريحاته جميعها تكتسب معانيها التامة ، كما ستبرر ( بتجاوز ) جميع كراماته المروية بواسطة مريديه ، وادانته بالزندقة من قبل جميع اولئك الذين لم يتمكنوا من فهمه على السواء •

فهو منذ مطلع حياته الدينية سيتساءل عن معنى الامتياز الانساني أزاء العالم الخارجي ،وهو تساؤل يحتوي على بذرة تناقض ازلي سيصطدم بالطبع باطمئنان شيخ مسن كالجنيد البغدادي الذي يضيق مرة من تساؤل الشاب الجريء عن معنى هذا التناقض : ( من الذي سيصد الخلق عن رسوم الطبيعة ؟ ) ، فيكون جوابه بالغا في تحذيره مغبة الامعان في استقصاء لا نهاية له الا بالموت : ( اية خشبية تفسدها ؟؟ ) اي تلونها بحمرة الدم (٥٦) • وهكذا فان منطلق القصد الحلاجي ، ( أو منزع القوس ) ، سيكون التردد الاول لنفس أبية الا على عبودية المسلم • فثمة طبيعة وخلق ، وهما وان بديسا وكأنهما مختلفان من حيث كونهما حادثين فهما في ضمير الخالق عز وجل ولا فرق بينهما • أما نهاية هذا القصد فسيتم بعد على لسان رجل متشف يسأل الحلاج نفسه وهو على صليبه ما اذا كان قد نورز ، أي استمرأ عيد الربيع : ( عيد نوروز عند الفرس ) فكان جوابه المحتضر ، والذي يجيء بعد ثلاث عشرة سنة مدويا ، ولو بكلمة واحدة من جملته المضمخة بعبير الوصول ( وهو على الخشبة ) :ــ ( بلى : اتحفت بالكشف واليقين ، وانا مما اتحفت به خجل ، غير اني تعجلت الفرح )(٥٧) • لقد ظل هذا الجواب معترضا صدر الحلاج طيلة المدة التي سبقت مصرعه وكأنه كان ينتظر المناسبة فقط ليقال • هذا الكشف واليقين لم يتجل عنده الا في اللحظة التي أعادت للمتسائل جوابه الاخير ، وكأنه صدى صيحة ارتفعت منذ الازل ، او ضوء نجمة بعيدة يصلنا بعد آلاف بل ملايين السنين الضوئية ، مثلما جمع بتناقض ، مابين فرحة

العيد وأحزان المأتم: ـ عيد نوروز لعام ٨٩٠ هجرية ، ومصلبه لعام ٩٠٣ هجريه · أي نوروز كان يستعاد في يوم موت تموز جديد لو لم يجتمع في شخص الحلاج الضحية بالذات ؟؟ لعله لخص بمواقفه أول أساطير الصراع ، ولكنه الان صراع متكامل وزماني الوجود في آن واحد :ـ صراع حيـــاة وموت ، ثم حياة جديدة فموت جديد (٥٨) · وماذا كان ( قصده ) في حياته الدينية الثرة بحب الله تعالى الا الوصول اليه ؟؟ وهو وصول لا ينته الا في لحظة بدئه ، أو عيد لم يكن ليسعد به الا عند استحالته الى مأتم · وهذا نفس ما كان يترنم به في الاعياد التي يفضل لبس السواد فيها بدل البياض والذي هو علامة الفرح :ـ (هذا لباس من يرد عليه عمله)(٥٩)، وبالفعل فقد ردت عليه فرحته ـ (بالازدهار) في يوم موته أي (حصاده) بالذات ·

وثمة امر آخر يمكننا ملاحظته لديه ، وهو ان منهجه المتطور كان يلخص لنا تاريخ المعنى القصدي منذ وقفة جلجامش الاخيرة عند انكيدو حتى صمت زين العابدين المدوي · لسوف ( تتقارض ) ايضا خلاله جميع النقائض في آن واحـــد :

جلجامش وانكيدو ،
المنذر بن ماء السماء والاعرابي : منقذه ،
زين العابدين ··· والحسين بن علي

لقد استطاع ان يكون ( فيه ) ماثلا ضمن مسير الديالكتيك حبي ما بين مد وجزر ، وصول وتيهـــان ، وكان في جميع الاحوال صادقا ، ذلك انه ادرك منذ البداية ان اي انسان فان لن يفصح عن نيته افصاحا تاما الا عند استحالتها الى فعل ، وحينئذ سيختصر في هذا الفعل ( قصده بالذات ) رغم انطوائه على حدين متناقضين : على نية تنقض نفسها ، وعلى استحالة غير مستحيلة · فالنية كانت في هذه الحالة ستتبدد ، وكذلك يصح العكس ، أي ان كل فعل ، والانسان الحي سلسلة من افعال(٦٠) ، لن يكون كذلك الا بعد استحالته الى نية ·· الى ( لا ـ فعل ) والى انسان ميت متلاش · فلا النية اذن ، ولا الفعل سوى طرفي مسيرة يقطعها الانسان من اجـــل الوصول ·· من ان أجل ان يسجل حياته التي يجدر بها ان تكون عامرة ( بالحب ) ، و ( بالقصد الذي يتلاشى فيــه العـــاشق في المعشوق ) · وعلى هذا المعنى صرح الحلاج تصريحه الشهير الناطق بالفناء :

( فارفع بأنيك أنى من البين )(٦١)

*

في عجالة تاريخية كمقطع طولي لانسانيات وادي الرافدين يمكننـــا التعرف على تطور الفكرة القصدية ، وهي في حالتها الدينامكية خلال الحلاج · لقد كان جلجامش في صراعه مع انكيدو يروم التوصل ( يبغي الوصول )

انتصاره ، الى معنى الفشل . ( وبهذا المعنى بالذات توصل
، وهو في ذروة اتونابشتم ايضا ) ، وبهذا الاحتمال فحسب كان عليه ان
جلجامش الى جده انكيدو ؛ اذ لا يكفي اعتراف غريم مهزوم بانتصار المنتصر
يقبل صداقة عن طغيانه ،وهو في ذروة فرحته، اذا لم يكن قد لمس في مرارة
ان يؤدي الى اقلاعه هو بالذات . — وسيلمس مثل هذا المصير قبل اوانه
المخذول مصير كسرى الملك الفارسي ) حينما يبكي في مشهد جيوشه الجرارة
اجزرسوس ( راجع معالم تاريخ الانسانية H.G. Wells ) .
قبل المعركة : — هذا القصد كان من صلب دعوى الحلاج في جميع مراحل حياته
بيد ان بصورة معكوسة ؛ فهو منذ أول بادرة للخروج على أوامر
الدينية ، ولكن الصوفية :— معارضته للجنيد البغدادي ، نبذ الخرقة الخ ...
مشايخه من بمحبته : ( عبوديته ) التي سيجد اثناءها انتصاره : — ( حبه ) .
— سيمارس هذ (٦٢) لا يكتم صدى انتصاره باكتسابه صداقة المنتصر بل
انه انكيدو آخر بهذا العنصر : (الحب) الذي سيفنيه في المحبوب حتى
سيبوح ، ويتبجح ذاته ، ( اي يذيب عبوديته في سيادة محبوبه . — لاحظ
يوشك ان يفقده الاتحاد المتجاوز ) . ومن هنا كانت جميع تصريحات الحلاج
المعنى من هذا برزت تفكيره : ( اما ترى ان ربي ضرب قدمه في حدثي حتى
المعروفة التي في قدمه ، فلم يبق لي الا صفة القديم ، ونطقي في تلك
استهلك حدثي
الصفة ؟ )(٦٣) . ماء السماء ، كان على الحلاج ايضا ان يترجم يومي بؤسه
وكالمنذر بن المتخلفة — المتجاوزة ) :—
ونعيمه في تأملاته الاسلام اغشتني فليس يتركني ونفسي فآنس بها ، وليس
( يا أهل فاستريح منها ، وهذا دلال لا أطيقه )(٦٤) .
يأخذني من نفسي المتكافي (٦٥) ، أو معنى يومي بؤسه ونعيمه ( = يوم عيد
والتقابل مناحة وفاة خريفي ) جلي في التعارض ما بين ( الترك )
ميلاد ربيعي ويوم ( ليس يتركني .. وليس يأخذني )(٦٦) في حين سيترجمها
و ( الاخذ ) :— وجود ذاته ، وبصورة افقية وليست عمودية في المفاضلة
كذلك خارج رأيه ورأى عامة الناس ( ... ثم اذا نطقت عن القدم يشهدون
المتقارضة بين عامة ) بكفرى ، ويسعون الى قتلي ، وهم بذلك معذورون ،
( أي الناس مأجورون . )(٦٧) . بيد ان هذا التناظر الدنيامي .. هذا
وبكل مايفعلون بي ، كان ما يفتا يجسد تحوله الاخير أبدا في ضرورة
الصراع الديالكتيكي الجسدي الذي سيوازي العذاب والالم النفسي والفكرى .
العذاب والالم يجد نفسه مدفوعا اليه بحمية من يترفع عن الهروب مع
وهو عذاب كان فتحت أبواب السجن من اجله : ( انها نفس فتوة سقراط
الهاربين بعد ان وكان كذلك كحفيد بن ماء السماء الذي سيسعى الى بلاط
عند اعدامه ) . يعلم انه قاتله : أكان لرجل سجين يحلم بالحرية ( التي
ملك فارس وهو المعتمدة على حياته ) أن يصدع بالموت تحت نصل الجلاد
ستؤكد رسالته

الا أن يرى فيه سببا لحريته نفسها ؟؟

ولكن المشكلة ظلت مع ذلك غامضة عليه قبل ممارستها • لقد استيقظ في اهابه اعرابي المنذر بغتة في اللحظة الاخيرة وهو يستمرأ عذاب الانتظار البطيء على مسامير الخشبة القاتمة ، فراح يرى من خلال حمرة دماه المراقة ببطيء جميع الحلول التي كانت معلقة منذ سنوات — معنى تطلعه على الخلق واشرافه عليهم ، الذي سيضعه موضع المرأة الحسناء حيث تطلع اليها من مكانه ، وتجرأ على النظر اليها وهي من حرمات الله(٦٨) ، ومعنى تعجله الكافر للفرح :— فرح هائل بعيد بعيد الربيع ، والذي لم يكن عليه ان يتجاوز منزلته في احيائه ( يستعجل بها الذين لا يؤمنون ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق )(٦٩) •

الا ان الحلاج مع ذلك ، مع منهجه الروحي المنظم ببعديه الطولي والعرضي ( أو العمودي والافقي ) سيظل حتى اللحظة الاخيرة من لحظات حياته صامتا عن البوح عن سبب تألهه ••• عن نيته • لقد ظل أثناء قطيعته مع مشايخه ( سهل التستري ، ثم عمرو المكي ، ثم الجنيد البغدادي الذي لم يقبله كما يلوح بين مريديه)(٧٠) يتقلب في محنته ، ( ونحن نسميها تجاوزا بالمحنة لانها في واقع الحال مذهبه ) معبرا عن قصده في اتخاذ مواقف تبدو أحيانا متناقضة اشد التناقض • الا انه في اغلب الظن لم يكن ليفصح عما سيؤول به اليه منطقه في النهاية • وكان لهذا السبب بالذات ••• لهذا ( الغموض — الواضح ) يجد أبدا الدافع للاستمرار • وهو وان لم نبت بمشاهدته أو عيشه تجربة المحكوم عليه بالاعدام قبل اعدامه ، كما هو بالنسبة لزين العابدين ازاء آل بيته من الشهداء ، مما لا يمكن أن يتخذ كسند لتبرير تحوله ، الا انه ولاشك لامس لاسباب مبهمة ( لعلها تعود الى فترة طفولته ، بل لحظات ميلاده ) تساوي كفتي الحياة والموت معا ، حتى لكأنهما أمر واحد • لقد حيي الحسين بن منصور ( ٢٤٤هـ = ٨٥٧ ) حتى ٣٠٩هـ = ٩٢٢م)(٧١) طيشه في التعرف على علوم القدرة ، بعد ان ظل محجوبا باسمه (هو) منذ استسلامه النفسي(٧٢) • فما بين طيشه واحتجابه سعيد ويختصر معا تجربة الحسين بن علي وزين العابدين رضي الله عنهما في نفس الوقت ••• سيمثل ويتحرق الى تجربة الخلود في الموت كما هي عند ( الحسين الاب ) ، وتجربة الخلود في الفناء عن البشرية كما هي عند ( زين العابدين الابن ) • وهو من خلال هذا الفناء بشقيه الفعلي ( فيما بعد عند اعدامه ) والقصدي بكتمانه من خلال لغته : نيته ) ومن خلال مجاهداته في الحج ( ثلاث مرات الى مكة المكرمة ) ، والترحال ( الى خراسان أولا ثم الهند والتركستان ) ، والاعتقال ( لمدة تسع سنوات ) سيعيش مقولة زين العابدين [ أي اشطاره الشعرية الاربعة (بيتيه) ، والتي يرسم بواسطتها الاسس الاولى لمغبة الطيش الصوفي ] ، وسلوك الحسين حفيد الرسول

الكريم : في اعدامه على خشبة المذبحة ( أي معركة الطف ) .

وكما كانت فلسفة زين العابدين القصدية تلوح عبر بيتيه الشعريين المذكورين فان من أقوال الحلاج هذا النص التطبيقي للقصد كمنهج دينامي فذ . يقول وقد سبق الاستشهاد بذلك :ـ

( حجبهم بالاسم فعاشوا ، ولو ابرز لهم علوم القدرة لطاشوا ، ولو كشف لهم عن الحقيقة لماتوا ) .

فهل يمكننا استعراض المراحل الثلاث لتطوره ؟؟ لنحاول .

١ ـ هناك ، أولا ، مرحلة الاحتجاب ، احتجاب القاصد بكونه من اهل الظاهر أو عامة الناس حتى لحظة انفتاحه الروحي بخروجه على طاعة مشايخه من أجل الله . والقصد هنا بمثابة الانعكاس الشعوري عن الذات مشوبا بكونه شعورا بالعالم .. باللا ـ انعكاس أو أنه لا يزال في دور ذبذبة منصلة مقومة بالفعل(٧٣) .

٢ ـ وهناك ، ثانيا ، مرحلة الطيش بعلوم القدرة ، وهي التي تصفه من خلال أقواله ( أي تصريحاته ) ، وافعاله ( كراماته ) على انه لا يمكن ادانته كما حدث أثناء محاكمته الاولى . ومرحلة الطيش هذه بمثابة التعبير الانفعالي الصرف [ فهو ليس سلوكا فعليا ، وهو لا يستهدف التأثير في الموضوع من حيث هو كذلك مستعينا بوسائل خاصة ، وانما يسعى الى ان يخلع بذاته على الموضوع ، دون تعديل في بنيانه الحقيقي ، كيفية أخرى .. وجودا أقل أو حضورا أقل ، أو وجود أكثر الخ ... )(٧٤)] . ومع ذلك فمثل هذا الطيش لم يكن طيشا مجانيا يتناسى ما سوى التكيف الجديد أزاء العالم وانما كان في حضور سرمدي مع الله . وهو في شكل تال سيكون سحريا يظل في صميمه ( تدهورا تلقائيا للشعور أزاء العالم ، تدهورا يحياه الشعور )(٧٥) الا انه سيتم بشكل آخر ، وهو الذي ( يتكشف فيه العالم للشعور ) .

٣ ـ والشكل الثالث للمقصد الحلاجي هو الذي يمكننا وصفه ( بالكشف عن الحقيقة ) . وتمثله المرحلة المحصورة ما بين مصلبه ( أي وضعه على الصليب ) واعدامه ، وهي التي ستبرر تجديده لتوحيده . الا ان هذا الشكل القصدي الذي يسمو القاصد بالعالم ويلصقه يوازي الفناء عن البشرية ! أو الموت في الحياة ، وهو ما يمكن ان يرهص به أي متصوف بلغ فيه التقصد في المرحلة السابقة لمرحلة الطيش ( الطيش = الشطح ) غايته ، وهو ما كان بسبيله الحلاج نفسه .

*

هكذا يتضح من هذا التخطيط السريع للمنهج الحلاجي ان حقيقة الايمان بالله لابد ان تسترد في نهاية المطاف ، وهي على شكل انفعال شعوري بعالم ( غير محجوب ) ... عالم تكاد فيه الحقيقة الالهية ان تقترب حتى

لتصبح ( قا بقوسين أو أدنى ) • ( واخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى ) •

✱

الم يكن الحلاج اذن ليتبين قصده الا حينما يتذوق عذاب الاحتضار بشكل لم يتصوره أبدا أن يكون محتوما فكان أن أصبح ازاءه سحريا ؟؟ ان جميع الدلائل المقترنة بمصرعه تدل على مدى اطمئنانه لموته بذلك الشكل : لقد كان القصد يتحول من خلاله عبر اقواله وافعاله (أي تصريحاته ومواقفه) من كونه ( مصليا فصائما فحاجا ) الى كونه ( مريدا فشاطحا فغانياً ) • وهو انما كان يمر أثناء ذلك بشتى ( المقامات ـ الحالية ) التي تثبته في صميم وعي ديني لا يكتسب قصديته الا بتعذر تطبيق النية في الفعل تطبيقا يستحيل فيه على الانسان تخطي انسانيته المحجوبة بأكثر من الاسم نحو انسانيته المكشوفة بفنائها ••• انسانيته التي لم تبدأ بشكلها الكامل الا بملامح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم المغلقة • وما كان لولي مهما بلغت مكانته ليتبوأ مكانة نبي • فنهاية الولاية بداية النبوة(٧٦) • أية نعمة كان يشكر بها هذا القاصد ربه على ايثار محبوبه اياه دون غيره هي أثمن من الموت ؟؟ وهكذا ، كان الموت هو الحل الوحيد الذي يحتفظ له فيه بولايته الصادقة لكيلا (يشطح) به في نبوة كاذبة •• كان هو (المطهر) الوحيد و ( الاغتسال )(٧٧) الاخير من ادران الكفر ومخالفة أمر الباري عز وجل في الامتناع عن الدخول بشفاعة محمد • فما كان لدعوة ان تظل ( ذاتية ) الا بالخروج على افهام العامة ، وهي التي لم يوافيها الحلاج بل وافته بذيوع صيته ، والتي البت عليه أخيرا رجال الحكم واصحاب المصالح الدنيوية من الفقهاء والمتحمسين لدينهم من المسلمين • ان بواسطة ( دعوة النبوة ) بل في أية دعوة نبوة يشجب القصد نهائيا ، لان الفعل النبوي هو فعل خالص ينطوي على نية خالصة •• ، وما كانت شريعة محمد سوى ارادة الله ، وما كان القرآن الكريم سوى كلام الله ••• الفعل النبوي اذن يقع في مستوى شعور يتولد من ( وجود ذات ) أصبحت في منزلة العالم •

✱

عند غروب شمس الثلاثاء ، والامسية تصطبغ بحمرة الشفق الوردية ، وعند ضفاف دجلة التي تنقر أمواجها المظفورة كجدائل الاعرابية على سواحلها نصف الرملية ـ نصف الغرينية كان ثمة نفر من البغداديين وهم ما بين ( محنق ومشفق وحاسد وواجد ) يتحلقون محتفلين بمراسيم اعدام ( خليفي ) ، امام باب خراسان • ولم يكن ذلك المشرف على الموت سوى (قاصد نموذجي من الطراز الاول) • يحلم ( بالوصول والاقلاع ) معا الى ساحل خالص المرفأ : انه ساحل ( التيه ) ؛ ولكن ما بين ان يخطو سندباد

بحري فينقل قدمه من رصيف اليابسة الى خشبة المركب(٨٧) وبين وصوله دهور بكاملها لا يعلم عددها الا الله . ولعل ثمة أطفال أبرياء كانوا يرددون ، ذاكرين شمس الأصيل التي فات الآن أوانها ، بهذه الترديدة الحزينة :

يا ملتنـه صرفينـه
راح الوكت علينـــه
واشموسنا غـابت
وارواحنـــا ذابت الخ ...

وسرعان ما اعدم الرجل الصابر . ويقال ان دجلة فاضت ذلك العام واغرقت(٧٩) [ يصادف يوم ٢٦ مارت الذكرى الرابعـة والاربعين بعـد الألف لصلب الحلاج تغمده الله برحمته ] .

**خاتمـــة :**

كم كان على النية ان تتجسد في الفعل ، واني لها ذلك اذا كـانت صـادرة عن انسان ! ان النوايا الحقة هي التي يظهـرها الله على أيادي أنبيائه . ألم تكن معجزة الرسول محمد صلى الله عليـــه وسـلم القرآن الكريم ؟؟ ألم تكن رسالته السماوية ــ وهو الارضي ــ الدين الاسلامي أو الحلقة الاخيرة للعبادات ( ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا . اذاً لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينـا نصيرا )(٨٠). وأحسب أن القصد لم يكن ليظهر صرفا الا في التصرف البشري ولمحمد تصرفه البشري خارج نطاق الوحي في حين ان من العبث القول ( بدعوة غدير خم ) على انها بداية ولاية من لم يتبع خطى خاتم الانبياء ، وان الاولياء هم ليسوا خلفاء الرسول من بعده . ولكنها كانت خلافة لـم تتسم بأية حال الا في انها بحدود ( القصد ) وليس (النية) انها خلافة محجوبة برسمها وامارة غير مكشوفة بوسمها وقد يحدث أن تكون طائشـة بعلوم قدرته ، ولكنها لن تتجاوز ذلك الى أن تكون معبرة عن الحقيقة تمام التعبير والا لأصبحت من دعاوي النبوات .

اما وقد ازيح الآن عن القلب حجابه الخامس فما هو وجه القصد في المتعبد أي ( الانسان القاصد ــ الفاني ) يلوح من خلال اقنعته . ذلـك هو الرجل المتزن الخطى ، وتلك هي المرأة المغناج . لقد انسلا طفلا ذهبي الشعر يضحك ويبكي ببراءة المعصوم ، وعند غصن شجرة سرو ستهدل حمامة مطوقه .. انهم جميعا من عباد الله ( وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون )(٨١) منذ ان وعوا تكامل منهجهم كل حسب تكوينه وابعاده :ــ الانسان المدرك بادراكه ، والطفل بطفولته ، والحيوان بغرائزه . وقديما لم يكن للاسطورة ســوى التطور البطيء المنطوي عـلى ( نبوة ) مشـوبة

لا تكاد تفصح عن نيتهـا وسط زخم ( القصود ) · فماذا بعـد طغيـان جلجامش الا ( المقصد ) الانساني المبهم لتلقي رسالة نبي ؟ وماذا بعيـد رجولة منذر أو نعمان ( سيدين بالمسيحية ) سوى الارهاص بكمال القصد ( أي فناؤه فيما بعد ) ، والذي سيسأل به الرسول العربي محمد عـن الانسانية جمعاء أي سيكون شفيعهم فيه ؟؟ في حين سوف لا يمثـل زين العابدين أو الحلاج ـ تجاوزا منه ـ الا رد الفعل ضد ضياع الايمان خلال الاجيال التالية للرسول محمد ، وذلك في التشبث المتطرف بمبدأ الجهاد بشقيه الاكبر والاصغر على نحو يلغى الفتنة ـ فتنة الدجال ، والتي ستكون من علامات قيام الساعة ، ويصادر مساءة الاستدراج في العمل الدنيوي · وهكذا ، ما كان للموجه ذي الخصلات الشقر ليستغنى عـن دموعه التي يغدقها ببضع قطرات دافئة من المطر الخريفي · لقد ولد زين العابدين من دعوى الجهاد الاكبر ـ جهاد النفس ، وسيولد من بعـده بربع قرن عابد آخر يكون هو شفيع القصاد جميعا ، في حين ستختلف ملامح كل منهما باختلاف الزمان والمكان · وبعد ان كان الاول يردد ما معناه انه يكتم علما باطنا لو افصح عنه لعد من الكافرين ، ولنال ما يستحقه الكافر من عقاب مشروع بل مثاب أصبح الثاني يجهر بهذا العلم[82] · فهل كان لاحدهما ان يفصح عن قصده بأكثر مما افصح به ، وما افصحوا ؟؟ الا ان الحلاج كان لا ينى يعيش جهاديه : الاكبر والاصغر حتى لحظة موته[84] ، وهو ما يسمه كانسان أي كرائد قصدي من الطراز الاول ·

كان المنهج الحلاجي يتضمن التعبير عن القيم الحلاجية المختلفة في آن واحد ، وهي قيم تبدو وكأنها متطورة بدأت منذ أن بدأ الانسان بابتداع ملاحمه وأساطيره في حدود الالف الرابع الميلادي · فهو بذلك يبلور معا ويختصر تراثا انسانيا رائعا ، لايمكننا تكفيره بواسطته لانه لم يخرج عن نطاق الشريعة[85] حتى في قصده المنطوي على مفارقات كلامية اصطلاحية[86] · وما كان له ، لكي يحتفظ بحياته ، الا أن يعيد تجربة زين العابدين بحذافيرها ، وهيهات ! · فشتان ما بين العصرين ! · لقد أحسن التعبير عن قصده هو بالذات · فهل كان يستعاد من خلالها الا ارهاصات بنبوات كاذبة ، أو سـوى استعارات لمواقف اسطورية ، ولكن في اطار ( كرامي ) أو (زندقي) ؟ ما كان ، أبدا ، لقاصد أن يتقمص دور نبي ؟

---

(١) القصد هنا بالمعنى الصوفي ، أقرب ما يكون الى الحال · أو انه الانفتاح الانساني أمام العالم الخارجي ·

(٢) التأله : التنسك أو التعبد ( اله ) ص١٧ · مختار الصحاح ·

(٣) الموت من الحقائق الوجودية خصوصا وجودية الفيلسوف الالماني هيدجر فهو يرى ان الحياة نفسها تنطوي على الموت ، وان هذا الوجود هو بطبعه وجود لفناء · فبمجرد أن يولد الانسان يكون ناضجا للموت ( راجع بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية ص ٥٩ ) ·

(٤) ظهرت منجزات الصراع في الحضارة منذ الالف الرابع ق·م· ثم تنوعت فيما بعد ·

اما قبل هذا التاريخ فقد كان الفن لا يزال يعيش بشكل لا يحتاج فيه الى التسجيل كعمل فني، مادمنا نعيش العمل الفني فما الحاجة التي تدفعنا الى استعادته ؟

(٥) الاشارة هنا الى الشخصية الاسطورية الشهيرة جلجامش •

(٦) او بمعنى آخر بين كونه شعورا لا انعكاسيا وشعور انعكاسي ( راجع سارتر : نظرية في الانفعالات ) •

(٧) راجع الآية الكريمة : القرآن الكريم ( انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ) •الاحزاب )(٧٢)•

( أ ) قصيدة ( شعبية ـ طفولية ) دارجة معروفة •

(٨) طه باقر : ملحمة جلجامش ٥٤ سلسلة الثقافة الشعبية • وزارة الارشاد ١٩٦٢ ص (٤٦) •

(٩) نفس المصدر ص : ٣٨ •

(١٠) الشاعر الشهير أبو الطيب المتنبي •

(١١) طه باقر : ملحمة جلجامش : ص ٤٩ •

(١٢) محي الدين ابن عربي : لطائف الاسرار ص ٦٥ •

(١٣) نفس المصدر ص ٦٥

(١٤) دعوى صراع البطلين يؤيده العلم عن اكتشاف مجال ضد المادة : أي اكتشاف ضد البروتون وضد الالكترون وضد النيوترون •

(١٥) طه باقر : ملحمة جلجامش ص ٤٩ •

(١٦) رابندرانات طاغور ، شيترا ، ترجمة بديع حقي ١٩٦١ : النص ( رأيت عبر الدرب شخصا مستلقيا فوق الهشيم • طلبت اليه في صلف ان يتنحى • ولكنه لم يرم وحينئذ همزته مزدرية بسية قوسي • فهب وكأنه لسان من النار شبت بكوم رماد استوى قائما شيقا ) ص ١٦ •

(١٧) و (١٨) طه باقر : ملحمة جلجامش ص (٤٩) •

(١٩) ، (٢٠) : نفس المصدر ص (٩) ••

(٢١) تروى النية بشكلها الاسطوري كرؤيا يراها جلجامش على دفعتين ، وبسبب اهميتها نثبتها هنا بالنص :

**الحلم الاول** : ( يا امي قد رأيت الليلة الماضية حلما ، رأيت اني أسير مختالا فرحا بين الابطال فظهرت كواكب السماء وقد سقط أحدها الي وكأنه شهاب السماء ( آنو ) • لقد أردت أن ارفعه لكنه ثقل علي • وأردت أن أزحزحه فلم أستطع أن احركه • تجمع حوله أهل اوروك • ازدحم الناس حوله وتدافعوا عليه واجتمع عليه أصحابي يقبلون قدميه • انحنيت عليه كما أنحني على امرأة وساعدوني فرفعته وأتيت به عند قدميك فجعلته نظيرا لي ) ص ٤٤ ـ ٤٥ الملحمة •

**الحلم الثاني** : ( يا امي رأيت رؤيا ثانية في اوروك ذات الاسوار • رأيت فاسا مطروحة وهي ذات شكل عجيب وكان الناس مجتمعين حولها • تجمع أهل اوروك عندها • ولما ابصرتها أحببتها • انحنيت عليها كأنها امرأة ثم جئت بها ووضعتها عند قدميك فجعلتها نظيرا لي ) ص ٤٥ •

(٢٢) المتأله هنا بغير المعنى الذي سبق ذكره أي المتنسك بل بمعنى من يتصل بالآلهة •

(٢٣) وهو المنذر بن ماء السماء ( المنذر الثالث المنذري ) حوالي ٥٥٠ ـ ٥٥٤ : راجع جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام في ذكر قصة الغريين ( نديمي النعمان ) المنسوبة لهذا الملك حيث يناقشها المؤلف على انهما نديمان للملك دفنا حيين بامره وهو في حالة سكر • ويرجح ان مكانهما كان في الاصل مذبحا لمعبد من المعابد الوثنية • فاذا ربطنا بين هذه النسبة وبين فكرة يومي البؤس والنعم اتضح لنا احتمال كون الملك الحميري على ديانة وثنية بل

على عبادة الاله تموز الذي يحتفل بعيد ( بعثه ) ومأتم ( وفاته ) . راجع أيضا فيليب حتى : تاريخ العرب ص (٩٨ ــ ٩٩) حول قصة الغريين .

(٢٤) تموز هو اله الرعي عند السومريين . وكان زوج الالهة اينانا اوعشتار التي اختارته بديلا لها ثمنا لخروجها عن العالم السفلي الى العالم العلوي . ومن هنا سبب موت هذا الاله في الاساطير وبعثه . راجع كريمر : من ألواح سومر ( كلمة تموز في فهرست الاعلام ) .

(٢٥) البير كامو : مسرحية كاليجولا تعريب رمسيس يونان .

(٢٦) وذلك من حيث ( توكله ) وبدائيته التي تعبر عن نفسها في المحافظة على الموعد المضروب . ولكننا لا ندري ما اذا كان انكيدو يدرك نية الالهة في خسارته الفعلية أمام جلجامش. اذا كان كذلك فهو يرهص بشخص اعرابي المنذر فعلا .

(٢٧) المنحنى الشخصي أو الخط البياني الانساني هو ما تستخلصه الدراسات الانسانية لحياة كاملة منذ ولادتها حتى وفاتها ، وما تتخللها من فترات هبوط أو صعود .

(٢٨) شهرزاد وشهريار من شخصيات ألف ليلة وليلة الرئيسة .

(٢٩) ان انكيدو في ملحمة جلجامش أقرب من سواه الى روح التصوف .

(٣٠) لعل ( اليكو ) و ( المكو ) هما المقصودان بهذه الفأس . راجع ملحمة جلجامش : طه باقر ص ١٠٦ .

(٣١) لم يتعرف على المتنبي رغم صداقاته وعداواته الا ( الخيل والليل والبيداء وغير الطعن والقرطاس والقلم ) وهو ما ذكره بها أحد عبيده أثناء حادثة مقتله .

(٣٢) هذان الناجيان هما علي بن الحسين ( علي الاصغر ) وعمر بن الحسين . انظر الدينوري : الاخبار الطوال ص ٢٣١ .

(٣٣) دستويفسكي [١٨٢١-١٨٨١] هو الكاتب الروائي الشهير ونحن هنا بصدد الحكم عليه بالاعدام ثم تبديل الحكم الى النفي في آخر لحظة من لحظات حياته . ان ما يدفعنا الى هذا الاعتقاد بالنسبة لزين العابدين أحد الناجيين هو الاستنتاج .. مجرد الاستنتاج الموضوعي . ومع ذلك فأقوال علي بن الحسين ( وزين العابدين لقب له ) نفسه تؤيد ذلك . فهو يقول :ــ [ أشد ساعات بني آدم ثلاث : الساعة التي يعاين فيها ملك الموت والساعة التي يقوم فيها من قبره والساعة التي يقف فيها بين يدي ربه ، اما الى جنة واما الى نار ] ص ٢٢٠ : فضائل الامام علي : محمدجواد مغنيه . بغداد ١٩٦٤ . ومن أقواله أيضا :ــ [ سيدي ارحمني مصروعا على الفراش . تقلبني أيدي أحبتي وارحمني مطروحا على المغتسل يغسلني صالح جيرتي ، وارحمني محمولا قد تناول الاقرباء أطراف جنازتي . وارحم في ذلك البيت المظلم وحشتي وغربتي ووحدتي ] نفس المصدر السابق ص ٢٢٢ .

(٣٤) . (٣٥) راجع الاخبار الطوال : الدينوري في ص (٢٢٧-٢٣٤) و ص (٢٣٠)

(٣٦) كما يتجلى أيضا بحدسه وفراسته . فالتأمل أمر كشفي والحدس أمر استدلالي .

(٣٧) من الحركة الى الثبات : شاكر حسن سعيد ( مخطوطة ) .

(٣٨) في اشارة جديدة الى مرض زين العابدين(*) أقول :ــ ما في نجاته من الموت ــ ويصبح العكس ــ سوى انتصار بطيء لقضية الحسين أبيه . فبأية رباطة جأش لاشعوري كان على المراهق المتحامل أن يتمالك نفسه وهو يرى شجاعة سواه وتفانيهم بالخلاص في الوصول ؟ لقد جعل من نفسه شاهدا وهو صاحب دعوى ، وظل طوال حياته يمثل هذا الدور القصدي لكي يتخذ من ( تأمله ) معبرا لتجلي النية ــ من خلال أولاده ــ بما لا يشلب اليقين ، بواسطة الفعل . كان لسان حاله .. ضميره لا يرضى على تلك السلبية الانتحارية التي يقدم عليها ذووه فيحايده.ويتخذ تحايده الشكل المرضي الذي يلائمه . وهو في كل ذلك . في ذلك ، في هذا الكتمان الضمني للاحتجاج الذي لم تخل منه تصريحاته أيضا يرهق أعصابه أيما ارهاق . فما أن نجا خلاله الانسان المتشبث بالحياة من المذبحة باعجوبة الا وراح خلاله الرجل الكامل ( أو الذي ينشد الكمال ) والذي أصبح زعيم آل بيته يستمريء مرضه ــ وما أشبهه هنا بالفنان فان

كوع في محنته ـ حيث ستكون مزينة في تذوق علم الباطن مرضه الذي كان ولابد يفتت عزيمته ويثبط غروره فيرمص بالتالي بالعقلية الاشراقية لديه ( كشاهد ) وليس ( كفاعل ) . للمطالبة من جديد بحق الحكم على سنة رسول الله أمام اغراء متجل . واستغراق صوفي يجب أن يتخلى عن كل مطمح دنيوي .

(*) ( ولد بالمدينة في شهر شعبان ٣٨هـ وتوفي سنة ٩٥هـ . ودفن في البقيع عند عمه الحسن . كنيته ابو محمد ، واشهر القابه زين العابدين والسجاد ، وامه شاهزنان بنت كسرى . ولم أجد فيما لدي من المصادر شيئا في وصفه ، وملامحه سوى انه كان له في موضع سجوده آثار ثابتة كثفنات البعير وانه لذلك سمي ذي الثفنات ) ص ٢١٨ : فضائل الامام علي : محمدجواد مغنيه ـ مكتبة النهضة ١٩٦٤ .

(٣٩) الاشارة هنا الى الحلاج والسهروردي وجميع المتصوفة الذين قتلوا بعد ادانتهم بالكفر .

(٤٠) تضمنت حياته هذا التلجلج ولكن دون أن تخرج به .. دون أن تنعكس على حياته الخارجية بصورة فلسفة تامة .

(٤١) يأخذ الجهاد معناه التام بالنسبة للمسلمين الاوائل ( الصحابة ) وذلك قبل ظهور بوادر الفتنة بانقسام المسلمين انفسهم الى أحزاب متناحرة فيما بينهم .

(٤٢) يقول المتصوف الشهير شهاب الدين السهروردي :

بالسر ان باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماء العاشقين تباح

(٤٣) أخبار الحلاج : ماسينيون ص ٣٨ [١٨ (٢٩)] .

(٤٤) نفس المصدر : ص ٨٩ [٥٩ (٥٦)] .

(٤٥) نفس المصدر : ص٩٢ [٦١] .

(٤٦) نفس المصدر : ص ٢٢ [١٨ (٢٩)]

(٤٧) ماسينيون Massignon

La Mirage Byzantin dans le Miroir Bagdadian d'il y a Mille ans. P. (446). Melanges Henri Gregoirs, Bruxelles LXX

عن فصل من كتاب اخبار الحلاج . مجلد (٧) ، موصل . الفصل (LXX)

(٤٨) شخصيات قلقة في الاسلام : عبدالرحمن بدوي ص ٦٩ .

(٤٩) عبدالرحمن بدوي : شخصيات قلقة في الاسلام ص ٨٣ . ويقصد بالكاتب المتفاني ماسينيون نفسه .

(٥٠) وهذا شطر من ثلاث أبيات شعرية للحلاج . ديوان الحلاج : للحلاج ص ٨٥ تحقيق ماسينيون .

(٥١) راجع الجواهري : الديوان قصيدته المقصورة الشهيرة .

(٥٢) عبدالرحمن بدوي : شخصيات قلقة في الاسلام ص ( ٨١-٨٢ ) .

(٥٣) أخبار الحلاج : ماسينيون ص ٢٥ [١٠ (١٥)] .

(٥٤) نفس المصدر ———— ص ٥٧ [٣٨ (٣٦)] .

(٥٥) أخبار الحلاج : ماسينيون ص ٣٦ [١٧ (٢٤)] .

(٥٦) أخبار الحلاج : ماسينيون ص ٣٨ [١٨ (٢٩)] .

(٥٧) نفس المصدر ———— ص ٤٤ [٢٢ (٢٨)] .

(٥٨) الاشارة هنا الى اسطورة تموز المعروفة .

(٥٩) أخبار الحلاج : ماسينيون ص ٤٦ [٢٤ (٣١)] .

(٦٠) يفلسف محي‌الدين ابن عربي هذا المعنى في اسباغه الحركة على الفعل فيقول :ـ ( أعلم ان الله تعالى اذا أراد ايجاد فعل ما ، بمقارنة حركة شخص ما بعث اليه رسوله

المعصوم ، وهو الخاطر الالهي المعلوم ) (ص ٦٤ : لطائف الاسرار) وكذلك : ( وأنت أيها الحس الانفس تحرك للشروع في العمل الموضوع فان هذه الحركة المخصوصة لما ورد في النقل نظير النية المختصة بالفعل ... ) ( ص٦٥ : نفس المصدر ) .

(٦١) ديوان الحلاج : ماسينيون ص ٩٠ .

(٦٢) انكيدو أيضا يتحدى ( يبوح بعداوته ) عشتار بقتله ثور السماء كما تحدى ( أغرى بقتل ) خمبابا أثناء غزوته الثنائية بصحبة جلجامش بلاد خمبابا : غابة الارز .

(٦٣) أخبار الحلاج : ماسينيون ص ٢١ [٧ (١٢)] .

(٦٤) نفس المصدر ـــــ ص ٥٧٠ [٣٨ (٣٦)] .

(٦٥) تجليات في منطلق المودة : شاكر حسن آل سعيد : ( وهو نفس معنى التكافؤ المتناقض أي التجل الاول في المؤلف ) .

(٦٦) أخبار الحلاج : ماسينيون ص ٥٧ [٣٨ (٣٦)] .

(٦٧) نفس المصدر ـــ ص ٢١ [٧ (١٢)] .

(٦٨) نفس المصدر ـــ ص ٣٤ [١٥ (٢٢)] .

(٦٩) ورد ذكر هذه الآية ضمن قول الحلاج مستشهدا بالقرآن الكريم قبيل صلبه ( وقيل هذا آخر ما سمع عنه ) : أخبار الحلاج : ماسينيون ص ٣٦ [٢٧ (٢٤)] .

(٧٠) اما من يتكر على الحلاج من المشايخ فهم عمرو بن عثمان المكي والنهرجوري أبو يعقوب ، وعلي بن سهل الاصبهاني ومحمد بن داوود الاصبهاني . أخبار الحلاج : ماسينيون ص ٣٨ [٣٨ (٢٩)] .

(٧١) عبدالرحمن بدوي : شخصيات قلقة في الاسلام ( ص ٦٣ ) .

(٧٢) يقصد باستسلامه النفس الى لحظة يقظته الروحية على حب الباري عز وجل .

(٧٣) جان بول سارتر : نظرية في الانفعالات ص ٤٧ .

(٧٤) نفس المصدر ـــــــ ص ٥١

(٧٥) نفس المصدر ـــــــ ص ٦٠

(٧٦) نيكلسون : كشف المحجوب للهجويري ص ٢٣٥ ( طبعة لندن ١٩١١ ) .

(٧٧) يتضمن الاغتسال معنى التحول وذلك لانه يعني البدء بالتطهر ، وليس تجديده كالوضوء .

(٧٨) ( .. ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال .. ) مجزوء الآية : الكهف ١٨ [ المركب = الخشبة = المهد ] .

(٧٩) راجع ترجمة الحلاج في كتاب ( ترجمة الاولياء الذين دفنوا بالعراق ) للبندنيجي الحيدري .

(٨٠) القرآن الكريم ـ الاسراء (٧٣ ، ٧٤) .

(٨١) القرآن الكريم ـ الذاريات (٥٦) .

(٨٢) لابد لنا أن نشير الى ان هذا البوح بالسر ( الجهر بالعلم الباطني ) لم يتم عند الحلاج دفعة واحدة بل تم عنده كمحاولة اتخذت لها عدة مظاهر كان آخرها هو المظهر الذي يكشف به عن الحقيقة أي المظهر الموتي . وهذا المظهر الاخير هو الذي يتم به البوح بالسر تماما .

(٨٣) قل هو الله أحد الله الصمد : راجع سورة الاخلاص في القرآن الكريم .

(٨٤) في بعض الاحاديث النبوية ما معناه ان الجهاد الاكبر هو جهاد النفس وهو أصعب من الجهاد الاصغر أي القتال في سبيل الله .

( استدراك : أكد لي كثيرون صحة الحديث المذكور الا انني لم أجسده نصا في كتب الحديث . ففي المعجم المفهرس ( وهو من مطابات الاتحاد الاممي للمجامع العلمية ويدور حول ألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة ، وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن

حنبل ـ وقد قام بتنظيمه ونشره ا٠ ي ونسنك تم ي ب منسنج و و٠ل دي هاس و ي٠ب فن لون مع مشاركة محمد فؤاد عبدالباقي ـ مطبعة بريل في ليدن سنة ١٩٥٥ ) ٠٠ أقول في المعجم المفهرس هذا ترد الاحاديث التالية أو مجزؤوها :-

١ ـ المجاهد من جاهد نفسه ـ كلمة (جهد) ص ٣٨٩ الجزء (١) ٠ ونفس النص وارد في الترمذي ج(١) ص ٣٠٦ ٠

٢ ـ ( ولا ) الجهاد في ( سبيل الله ) قال فاكبره ـ كلمة (كبر) الجزء (٥) مع اشارة الى ابن حنبل (رح) (٢ ، ١٦٧ ، ٢٢٣) ٠ وفي ابن حنبل الحديث رقم (١٦٩) ( قال الصبي بن مصعد : كنت رجلا نصرانيا الخ ٠٠٠ ) وفيه لا تأتي كلمة (كبر) و ( جهاد ) بل ترد في حديث آخر بنفس النص ولابن حنبل نفسه رقم (٢٢٧) عن كتاب ( المسند طبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٩ شرح أحمد محمد شاكر ج (١) ) ٠ ترد كلمة ( وأراد الجهاد ) ثم ( كبر عليه ذلك ) ٠

٣ ـ ( الجهاد الكبير والصغير ) ـ كلمة ( صغر ) الجزء (٣) مع اشارة الى النسائي (٤ ، ٥٥) ـ مناسك ٠

وفي ص ٨ جزء (٣) من (سنن الدارمي) ـ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد طبعـة السعادة ١٩٥١ ( باب ثواب الجهاد ) ما يلي : (٢٤٨٥ ـ حدثنا أبو الوليد الطيالس ، ثنا سليمان بن كثير ثنا الزهري عن عطاء بن يزيد عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل أي المؤمنين أكمل ايمانا قال ( رجل يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ورجل يعبد الله في شعب من الشعاب قد كفى الناس شره ٠ ) ونفس الحديث يرد في مسلم بن الحجاج ص ٣٩ جزء (٦) برقم (١٣٣١) دار الطباعة في مصر ٠ مع بعض التغيير في الصيغة ٠ ويرد أيضا في سنن أبى داود ص ٨ جزء (٣) برقم (٨٤٢) ٠

وقد راجعنا عدا ما ورد الاستشهاد به من نصوص جميع الكتب المشار اليها في المعجم المفهرس وهي ( أبا داود ، الدارمي ، الموطأ ، مسلم النسائي ، الترمذي ، ابن ماجه ، ابن حنبل ، البخاري ، وهذا الاخير تم بمعونة الاخ الاستاذ خليل العاني ) فلم نجد أثرا للحديث المذكور ٠

ومع ذلك فاقتران معنى ( الجهاد ) يتفق مع الانقطاع في العبادة : ( رجل يعبد في شعب من الشعاب قد كفى الناس شره ٠ وهو ما يؤيد المعنى الذي أشرنا اليه ٠ ]

يرد نص الحديث : ( رجعتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ، جهاد النفس ) في بعض الكتب الدينية ولكن دون استناد ٠ انظر كتاب التحفة المرضية للشيخ عبدالمجيد علي خادم آل بيت النبي ٠ ص ٥٣ ٠ المطبعة العامرة العثمانية عام ١٣٠٤هـ ٠

(٨٥) ( ان كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة ) ص ٨٤ : الفتح الرباني : عبدالقادر الجيلاني ٠

(٨٦) التوحيد الحلاجي من خلال أقواله ومواقفه لا ينفي بل يؤكد الشـريعة المحمدية ( راجع الطواسين : طاسين السراج ) ٠ انظر أخبار الحلاج [ص ٦٣ (٥٩ ثانية) ] قولـه ( ٠٠ وأما حقيقة التوحيد فليس لأحد اليه سبيل الا لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ص ٩٥ وأيضاص ٥٧ (٤٤) ( ٠٠ ما وحد الله غير الله وما عرف التوحيد غير رسول الله ) ص٨٨ ٠ انظر أيضا [٥٠ (١٧ و٥٢ ثانية) ] ص ٧٥ ـ ٧٦ ( ٠٠ الطريق بين اثنين وليس مع الله أحد ٠٠ ( أبيات شعر ) قلت له : هل لك أن تشرح هذه الابيات قال : لايسلم معناها الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم استحقاقا ولي تبعا ) ٠

# جولة في الأدب المعاصر

احمد مصطفى الخطيب

**رائعة اراجون :**

قوبل الكتاب الجديد الذي اصدره الكاتب الفرنسي لويس اراجون منذ بضعة اشهر ، بترحاب بالغ ، وثناء عاطر من جانب الصحافة الفرنسية في باريس ، كما اعتبرته الاوساط الادبية في مختلف انحاء اوروبة ، رائعة من روائع الادب الفرنسي الحديث ، يحق لها ان تمثل مكانها عن جدارة بين اثار اعاظم الكتاب الفرنسيين وادبائهم الخالدة ، في شتى العصور والازمان .

والكتاب ( معد للقتل ) يقع في احدى وعشرين واربعمائة صفحة ، ويضم بين دفتيه عددا من الروايات القصيرة ، والاساطير ، وبعض الموضوعات ذات الصلة بشؤون الادب والسياسة والاجتماع .. ولا غرو فالكاتب أديب مشهور ، يبلغ عدد مؤلفاته ستين كتابا مابين منظوم ومنثور ، وهو كذلك أحد زعماء مذهب « السيرياليزم » في الادب ، ومن اقطاب الكتاب الشيوعيين في فرنسة ... والرأي السائد بين النقاد هو ان اراجون قد كتب في عامه الثامن والستين احسن مؤلفاته طرا ، وابرز للناس خير ما تفتقت عنه قريحته الوقادة حتى الان .

ففي صفحات « معد للقتل » يجد القارىء الحيوية الدافقة ، والانسجام الموسيقى ، ومرح النكتة ، وتألق الالفاظ .. كل ذلك في تناسق رائـع ، وتركيب بديع يثيران الاعجاب والتقدير .

وعلى الرغم من ان الكتاب يحتوي كذلك طائفة من ذكريات شخصية واحداث تاريخية ومعاصرة الا انه في جوهره ليس سوى رواية شعرية واحدة قائمة على أساس من الحب والغيرة حيث تمتزج فيها اسطورة اوديب بشخصية الدكتور جيكل والمستر هايد ، وخيال « آليس » وبحث براندييللو عن وحدة الشخصية (Identity)

وبطل رواية « معد للقتل » يتقمص ثلاث شخصيات ، ويتوله في حب زوجته الى حد العبادة على غرار حب العشاق الغنائيين في عهـــود القرون الوسطى .

وبجانب مزايا الفن القصصى فان هناك ناحية سياسية للكتاب لا تقل

شأنا عن قيمته الادبية ... فارجو أن يروي لنا مثلا كيف تم شنق صديقه الصحفي الشيوعي ميخائيل كولستوف في عهد ستالين ، وكيف ان الشرطة السرية الروسية قد أحاطت به عندما حضر جنازة مكسيم غوركي ، وكذلك كيف كانت تعليقاته على الاحداث تثير ثائرة الاعضاء في صفوف الحزب الشيوعي سواء أكان ذلك في باريس أو في موسكو .

وعلى أية حالة ، فان الرسميين الروس سيشعرون بصراحة أكثر عندما يطلعون من خلال صفحات الكتاب على الموقف العدائي الذي يقفه اراجون من الواقعية الاشتراكية الروسية ، وعلى دفاعه البليغ الحار عن الخيـال (Fantasy) والحرية المبدعة الخلاقة .

انه من السهل جدا التكهن منذ الان بان « معد للقتل » سوف لن يحظى بترجمة الى اللغة الروسية .

## قصة جديدة لمورافيا :

ان قضايا « القصة » كصـورة من الصـور الادبيـة (Genre) والمطابقة بين المذهب الواقعي والابداع الفني كانت من جملة الموضوعـات التي عالجها اراجون في كتابه الاخير .. ولكن مورافيا يتحدث عن هذه الناحية ذاتها بصراحة وبواقعية أكثر في روايته الجديدة : ( انتباه ) .

انها قصة صحفي يدعى فرنسسكو ميريجي ، تتسلط عليه فكرة انعدام الاصالة (Authenticity) في العلاقات البشرية وفي كيانه هو نفسـه بالذات ، فيؤرقه ذلك الشعور ، ويعذبه ، وينغص عليه حياته .. ولكيما يتخلص من ربقة زواج مفكك ، منحل ايضا ، يختار لنفسه ان يكون مراسلا اجنبيا للصحف يقضي معظم أوقاته في الاسفار والرحلات خـارج بلاده ...

وفي أحدى أوباته الى الوطن يكتشف شيئين : ان زوجته تدير بيتا سريا للدعارة ... وهو نفسه قد وقع في حب ابنة زوجته البالغة من العمر عشرين ربيعا ..

وعندما يستبد به القلق ، وتضايقه الهموم ، يعتزم فرنسسكو تاليف رواية .. ويقرر ان يدون في مذكرته حوادث حياته اليومية عارية مجردة كما هي ولا سيما ذلك اللون الاثم منها مع ابنة زوجته ..

وفي النهاية يستعين فرنسسكو بهذه المذكرات ، ويجعلها اساسا لانجاز مشروعه في تاليف الرواية ، ويختار لها عنوانا هو ( انتباه ) بلا ريب ..

ان مورافيا لا يستطيع نكران حقيقة يعرفها الكثيرون وهي انه انما يكرر ذات الاسلوب الـذي سبق وان ابتكره اندريـة جيد في قصته ( المزيفون ) ..

وهنا لا يمضي وقت طويل حتى يكتشف فرنسسكو حقيقة ثانية وهي

ان الكاتب مضطر اضطرارا ، بل ومحتم عليه ان ان يلجأ الى تغيير الحقائق ، وتحريف الاحداث في عمله الفني نظرا لاستحالة تسجيل الحياة نفسها بالبساطة التي هي عليها ٠٠ ان الاديب الفنان يزج بنفسه على الدوام في التي يكتبها ٠٠ غير انه يستبدل الوقائع بحقائق روائية لكي يحافظ على الموضوعية فيما يكتبه ٠

لقد اثار « انتباه » اهتماما كبيرا لدى النقاد الايطاليين ولكن استقبال القراء اياه كان فاترا ٠٠ اما المؤلف فقد وصف قصته قائلا : انها رواية في شكل مقالات ٠

**ثقافة توماس مان :**

نشر مجلد جديد من رسائل توماس مان في المانية الغربية في الخريف المنصرم ، لمناسبة ذكرى مرور عشرة أعوام على وفاته ٠ ( توفي في ١٢ اغسطس ١٩٥٥ في مستشفى كانتونال بزوريخ ) ٠ ومن جملة الوثائق التي اثارت الاهتمام ، مسودة رسالة للكاتب الالماني كان قد بعثها في عام ١٩٥١ الى ارينتا فان دورين محررة الملحق الادبي لصحيفة النيويورك هيرالد تربيون الامريكية ، عندما طلب اليه ارسال نبذة من تاريخ حياته لنشرها في امريكا ٠٠ ففي هذه الرسالة يشكو الكاتب من الانباء الملوطة التي تنشرها الصحف باستمرار عن شخصه وعن كتاباته ، ولاسيما ما يتعلق منها بمعلوماته الموسوعية المتشعبة الاطراف ، وينعتها بانها : ( وهم مؤلم ) ٠ غير انه يعترف في الوقت نفسه بانه تعليمه النظامي (Formal) كان ضئيلا لا يستحق الذكر ٠٠ ويقول :

( ان كل ما تعلمته في المدرسة لم يتعد حدود كيف اقرأ وكيف اكتب ٠٠ وجدول الضرب ، وبعض مبادىء اللغة اللاتينية ٠٠ اما خلاف ذلك فقد رفضته بغباوة عنيدة ٠٠ وكنت ايضا كسولا من الطراز الاول ٠٠ ولكنني عندما احتجت الى بعض الاراء العلمية في اعمالي الروائية ، والى جمع حقائق معينة لاستعمالها في ابداعي الادبي ، غدوت مثابرا على العمل كالنحل في خليته ٠٠ وهكذا صرت بالتعاقب : طبيبا ، عالما بالاحياء ، مستشرقا ، عالما بالاثار المصرية ، مؤرخا للاساطير الشعبية وللاديان ، اختصاصيا في حضارة القرون الوسطى ، خبيرا في الشعر ومـا الى ذلك من الموضوعات المتنوعة ٠٠ ولكن اسوأ ما في الامر هو اني حالما كنت افرغ من العمل الذى كان يتطلب مني كل هذا الجهد والحشد العلمي ، فانني كنت انسى كل ما تعلمته بسرعة غريبة لا تصدق ٠٠ فاعود عندئذ خاوي الرأس الى شعوري الحزين بجهلي المطبق ٠٠ وبوسعك ان تتصوري ( الخطاب للمحررة ) كيف اضحك انا عندما اسمع اناسا يغدقون الثناء على لوذعيتي ، ويمتدحون سعة علمي ومعارفي ) ٠

وكذلك يحتج ( مان ) على حسبانه « اوليمبيا » تياهـا ، فظا ، متعاظما .. فيقول عن نفسه : « انه كان على الدوام فكها ، هسازلا من المرتبة الاولى » .

ورسالته التي كتبها الى الناشر الايطالي ( اينو موندي ) في سنة ١٩٥٣ ليست باقل اثارة للاهتمام ، حيث ينتقد فيها ( مان ) النظرة الشيوعية الى الادب ، ويعتبر المقتضيات الحزبية مؤذية ، ضارة بالحقيقة والثقافة ..

**يوميات قاتمة :**

تترقب الاندية العربية في باريس بتلهف وشوق موعد صـدور « يوميات » فرانز ستوك ، وقد ترجمها من الالمانية ( جان انسليت ) .

كان ستوك قد عين قسيسا في سجون باريس في عهـد الاحتلال النازي .. وكان عمله من ١٩٤٠ الى ١٩٤٤ يقتضيه ان يزور اعضاء فرق المقاومة السرية الفرنسية المحكوم عليهم بالمـوت ، ويحضر في لحظاتهم الاخيرة ..

ففي عام ١٩٤٠ كان الاعدام فرديا اعتياديا ، ولكن لم يكد يمضي عام واحد حتى صار القتل اجماعيا .. وفي ديسمبر ١٩٤١ حضر ستوك اعدام ثمانين من الرهائن رميا بالرصاص في ساحة سجن « عيدي » .. وكان النازيون يسمون حوادث كهذه : « اجتماعات رياضية » او « ايام عطلات » .

وقد شاهد ستوك ايضا الفا وخمسمائة شخص وهم يلفظون انفاسهم الاخيرة .. وكل ما كان بوسعه ان يفعله من أجلهم هو ان يحادثهم برقق وحنان ، ويدس في ايديهم خلسة ببعض السجائر .. وبعد تنفيذ عمليـة الاعدام كان عليه ان يحضر كذلك في المقبرة حيث تفرغ الشاحنات احمالها من الجثث لكي تحرق او تدفن هناك .. وكان عليه ايضا ان يتصل باقارب هؤلاء الضحايا لينقل اليهم كلمات الوداع ، أو يحمل اليهم بعض الهدايا التذكارية البسيطة ، كخاتم زواج مثلا ..

وفي شقته المتواضعة في باريس كان يستقبل زهاء خمسة واربعين زائرا في اليوم الواحد .. وهكذا سجل ستوك كل شيء رآه او سمعه في خلال تلك الفترة الحرجة .. ولئن كانت يومياته قد كتبت بلغة عارية (Bare) الا انها تعد جردا (Inventory) مؤثرا للاحزان البشرية ومآسيها ..

وقد اثرت التجارب المرة التي عاشها ستوك في صحته في نهاية الامر فقضى نحبه في عام ١٩٤٧ ..

وأول من كتب سيرة ستوك هو اريك كوخ السكرتير السابق للروائي الالماني هنريخ بول حيث اخرج بعد ذلك فلما ايضا عن اليوميات .. اما الان فان القراء في جميع انحاء اوربة سيتمكنون من قراءة هذه الوثيقة التاريخية في ترجمتها الجديدة .

**قضية هوك هوث :**

رفض الكاتب الالماني رولف هوك هوث السماح بعرض مسرحيته الشهيرة ( النائب ) في بلدان اوروبة الشرقية .. وذلك لانه خشي ان تمتد يد الرقابة اليها بالقطع والتغيير والحذف فتشوه بذلك جمال عمله الادبي .. وعلى الرغم من ان الكاتب المجري جورج لوكاس البالغ من العمر ثمانين عاما قد وجه اليه رسالة خاصة ناشده فيها ان يستثني المجر من هذا الرفض الا ان الكاتب الالماني بقي مصرا على رأيه ..

وقد كان رولف قد تلقى قبل ذلك التماسا مماثلا ايضا من الروائي السلوفاكي ( لاديسلاس منيساكو ) الذي يعد كتابه الموسوم ب ( ريبورتاج بعد الموت ) قرينا لقصته ( سولزنتسين ) عن معسكرات الاعتقال في عهد ستالين ..

وفي سياق طلبه السماح بتمثيل مسرحية ( النائب ) على مسرح الدولة في براتسلافا ، شكا منيساكو هو الاخر ايضا تحريف اعماله الادبية وبتر بعض اجزائها عند ترجمتها في المانية الغربية .

وقد رد رولف على الكاتب السلوفاكي برسالة طويلة نشرتها صحيفة ( داى زيت ) في هامبورج ، حيث هاجم فيها الاسلوب الشيوعي في الادب وسرد فيها ما دعاه ب ( الجرائم الادبية في جيكوسلوفاكيا ) .. ومع ذلك فقد وعد بالموافقة على تمثيل مسرحيته على شريطة ان تسمح السلطات هناك بنشر رسالته في مجلة ( كولتورني زيفوت ) اي الحياة الثقافية الاسبوعية التي يقوم باصدارها منيساكو نفسه ..

وقد اثار رد الكاتب الالماني نقاشا حادا وراء الجدران بين زمرة المثقفين السلوفاكيين استمرت عدة اشهر واشترك فيها حتى اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي انفسهم .. وذلك قبل صدور الاذن بنشره واطلاع جمهرة القراء عليه ..

والنسخة التي نشر فيها رد الكاتب الالماني من مجلة كولتورني زيفوت اخيرا اصبحت من ( السلع النادرة ) والغاليـــة الثمن في ســوق بــراغ السوداء .. والجدل بهذا الصدد لايزال مستمرا بشــدة في الصحافتين التشيكية والسلوفاكية لحد الان ..

ومن مظاهر الانتعاش الادبي والايديولوجي الذى يبدو بكل وضوح في تشكوسلوفاكيا ، النجاح الكبير الذي أحرزته أخيرا مؤلفات ( فرانز كافكا ) سواء أكان ذلك في لغتها الاصلية او في ترجمتها .. وهي تترك اثــارها القوية على المؤلفين الشبان بنوع خاص .

**كفاحي :**

جاء في قائمة الكتب والمؤلفين الدولية التي تصدرها هيئة اليونسكو

ان ( كفاحي ) لهتلر ترجم الى عدة لغات بعد الحرب من بينها اللغة العربية ، والاسبانية ، والفرنسية ، والبرتغالية ٠٠ وقد ساعدت على نشره في غالب الاحيان التشكيلات النازية المحلية او الاجنبية ٠٠ وقد ذكرت احدى المجلات الادبية التي تصدر في هامبورج ان محكمة بافاريا قد احتجت في مدينة مكسيكو على نشر امثال هذه المنشورات كما ان حكومة بون قد اتخذت خطوة مماثلة لذلك في لندن في اثر اعلان احدى دور النشر الكبرى انها سوف تصدر طبعة جديدة لكفاحي قريبا ٠٠ وحجة دبلوماسيي ميونيخ وبون بهذا الصدد هي ان ذلك يعطي صورة مشوهة عن المانيا وحالتها العقلية ٠

## دانتي في ثوب جديد :

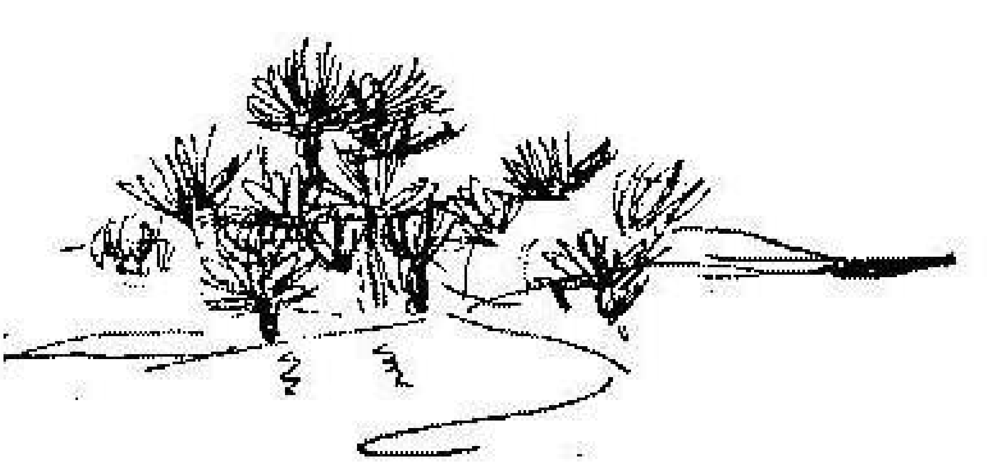
لمناسبة مرور سبعة قرون على ولادة دانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١) شهدت ايطاليا اخصب سنوات نشر الكتب عن الشاعر العظيم في العام الماضي ٠٠ ولكن كتابا واحدا فقط مازال ينتظر حتى الآن من يقبل ان يتولى نشره على حسابه الخاص ٠٠ ان مؤلف الكتاب يدعى ارمونو سيوري وهو مواطن ايطالي من جزيرة كابري ، اعاد كتابة الكوميديا الالهية في أربعة عشر الف بيت وبلغة حديثة كما اختار شخوصها من رجالات العصر البارزين ٠ ففي هذا الكتاب يجد القارىء هتلر وهو يصلى نارا حامية في الجحيم وديغول ضاربا بجرانه في المطهر ٠



## ايهما اولا :

عندما سئل الكاتب الامريكي الفكه ريجارد ارمور عن رأيه في الكميات الهائلة من الكتب التي تصدرها دور النشر في امريكا اجاب قائلا :

اعتقد ان الوقت قد حان للعودة الى حرق الكتب ، ولكنني ارى من الافضل ان نبدأ بحرق المؤلفين انفسهم أولا ٠٠(١)



# فينوس في معرض الرسم

عطا عبدالله العطار

عيناك ، أم غابة زيتون    يهيم فيهما كل مفتون
يا حلما يسرقني نوره    وفي كهوف السحر يطويني
ربيعك العشرون يا روضتي    نور في ورد ونسرين
يسكرني منه رحيق المنى    وعطره السحري يغويني
قلبي ظمآن لرشف الشذا    وثغرك الكأس فرويني
ضللت عمري في دروب الهوى    هل يا ترى حبك يهديني ؟

* * *

عيناك أم غابة زيتون    يهيم فيهما كل مفتون
يا حلوة تخطر في معرض الرسم بخطو جد موزون
أطربت بالانغام لوحاته    فهن غرقى بالتلاحين
فصورة قالت لجاراتها    وبوجهها رفة تشرين
أود يا جارات لو مبدعي    ذكرى لذي الحلوة يهديني
وقالت الاخرى ايا حبذا    اصابع الحلوة تحويني
فكيف لا تأسرني غادة    تبعث روح الحب في الطين ؟!

# من ملامح الحضارة العربية الإسلامية

## ملامح العرب والمسلمين في الصناعات

محمد هلال السرحان

( ١ )

حمل العرب والمسلمون في القرون الوسطى منار العلم والثقافة والصناعة طيلة قرون عديدة في الوقت الذي كانت فيه الامم المعاصرة ترزح تحت نير الجهل والتأخر .. !

وفي الوقت الذي كانت تعقد فيه المناظرات العلمية والفلسفية على مستوى عال في المساجد الاسلامية وحلقات الدروس ومنازل العلماء والمدارس العديدة ، كانت الامية تسود أوربا كلها بل لقد كان شارلمان وهو الرجل العظيم في أوربا ـ هو وحاشيته يتعلمون كيف يكتبون أسماءهم (١) .... !

وفي الحين الذي تفتح فيه آلاف المساجد والمدارس أبوابها لاستقبال طلبة العلم من بنين وبنات كانت المعارف في أوربا على بدائيتها وبساطتها تنحصر في طبقة من « الاكليروس » (٢) ... حتى قالت المستشرقة الالمانية زيغريد هونكة :

« لو أردنا دليلا آخر على الهوة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب لكفانا ان نعرف ان نسبة ٩٥٪ على الاقل من سكان الغرب في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر ، كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة . وبينما كان شارل الاكبر يجهد نفسه في شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة ، وبينما أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة ، وفي الاديرة يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم ، لدرجة انه لم يكن عام ١٢٩١م في دير القديس جالينوس St. Gallen من الكهنة والرهبان من يستطيع حل الخط ، وبينما كان هذا كله يحدث في الغرب ، كانت آلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن تستقبل ملايين البنين والبنات يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل الى السواد فوق الواحهم الخشبية ويقرأون ... » (٣) .

وتطور الثقافة واتساعها في العالم الاسلامي أمر لا يحتاج الى دليل وبرهان ، حتى قال (كيرك) نافيا أي شبهة حول ذلك :

« وليس من شك مطلقا في تفوق ثقافة الاسلام بالشرق تفوقا بالغا على حضارة اوربا الغربية في ذلك الوقت ، فقد سار جنبا لجنب مع تراثه

المادي اهتمامه المتزايد يوما بعد يوم بالامور الثقافية · فان سير الحضارة الاسلامية في طريق التقدم اخذ يكشف كل يوم عن الحاجة الى بعض العلوم العملية المتوافرة في الحضارات السابقة التي مس الاسلام بلادها كالطب ، والرياضة اللازمة لاعمال المساحة والعمارة والملاحة يضاف اليها علم الجغرافية لتسهيل التجارة وعلم الفلك للاستعانة به في تعيين اتجاه مكة ومعرفة غرة رمضان ، شهر الصوم المعظم ونهايته ، وليعزز به أيضا علم النجوم ··· »(٤).

وقد أزدهرت الصناعات المختلفة بفضل الاكتشافات والاختراعات العلمية في شتى حقول المعرفة الامر الذي دعا ( سارتون ) مؤرخ العلوم الشهير يعجب من ذلك فيشبه الانتقال من الحضارات الاخرى الى المدنية العربية الاسلامية بأنه « يكاد يشبه الانتقال من الظل الى الشمس المشرقة ومن عالم ناعس الى آخر متفجر بالنشاط »(٥) .

وازدهار الصناعات امر طبيعي تستلزمه طبيعة العمران والحياة الجديدة المتطورة في ظل الدولة الاسلامية المترامية الاطراف فتطورت صناعات قديمة عديدة وأستجدت صناعات أخرى جديدة كان لها أكبر الاثر في تقدم الانسان في مدارج الحضارة والرقي ···

قال ( ولز ) :

« وهم في الصناعة قد بزوا العالم في تنوع الصنف وجمال التصميم واتقان الصنعة ، كانوا يشتغلون في جميع المعادن : الذهب منها والفضة والنحاس والبرنز والحديد والصلب · ولم يفقهم أحد أبد الدهر في صناعة المنسوجات ، وصنعوا زجاجا وخزفا من أرق الانواع وأميزها · وكانوا يعرفون أسرار الصباغة ، وقد صنعوا الورق ، وكانت لديهم طرائق عديدة لتهيئة الجلود ، وكان عملهم شهيرا في كافة أرجاء أوربا وأنتجوا الاصباغ والعطور والاشربة وصنعوا السكر من القصب ، واوجدوا أصنافا كثيرة ممتازة من النبيذ ، ومارسوا الزراعة بطريقة علمية وكانت لديهم طرائق جيدة للري وكانوا يعرفون قيمة المخصبات · وقد كيفوا محصولاتهم حسب نوع الارض وتفوقوا في فلاحة البساتين وعرفوا كيف يطعمون النباتات وكيف ينتجون أضربا جديدة من الفواكه والازهار وأدخلوا الى الغرب أشجارا كثيرة ونباتات متعددة من الشرق وكتبوا رسائل علمية في الزراعة ··· »(٦) .

« واشتهرت الشام بانها موطن صناعة الزجاج الذائع الصيت ولكن بغداد لم تقل عن الشام في هذه الصناعة حيث انشىء بها مصنع خاص للزجاج كذلك ··· وظل جنوب بلاد العرب الى عهد بعيد يقدم أحسن المنسوجات الكتانية والحريرية ·· وتفنن صاغة الذهب في ابداع اشكاله فنقرأ عن شجرة ذهبية في أحدى قاعات الخلفاء وعن فيل ذهبي له عينان من الياقوت ··· ولم يلبثوا أن أنشأوا في السنوات الاولى من العصر العباسى

مصنعا للورق ... وقام لون آخر من الصناعة وهو اعداد الروائح العطرية من الورد والنيلوفر والمنثور وازهار البرتقال والمسك والزهور ... وتطلب اعداد هذه الروائح أدوات اشبه بما تستعمل في الكيمياء . والى جانب ذلك أدت الرغبة في تنفيذ مطالب الزراعة والصناعة والعلوم الى ظهور الحاجة الى آلات ومعدات جديدة كانت تبتكر دائما وتستخدم ، وكرس العالم الاسلامي نفسه لهذا النوع من الصناعات وعدد الكتاب العرب دون مبالغة وفي اسهاب تام الاختراعات التي ظهرت في ميدان الري ... »(٧) .

وقد حفلت كتب المؤرخين بكثير من الاخبار حول تفننهم في الصياغة فصاغوا من الذهب أو النحاس أو البرونز وغيرها ـ الكثير من الحيوانات والطيور والاشجار التي تنبعث منها الاصوات المختلفة حين هبوب النسيم تجد بعضا منها في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي(٨) الذي يصف تلك الاشياء حين التعرض لوصف مقدم سفراء القسطنطينية الى دار الخلافة للتفاوض في الصلح وقد أشار اليها ( جوستاف جرونيباوم ) في كتابه حضارة الاسلام ... (٩)

قال غوستاف لوبون :

« تقدم العرب كثيرا في الصناعة المعدنية وبلغ اتقانهم لبعضها مبلغا يصعب الوصول الى مثله في زماننا وكانت آنيتهم وأسلحتهم مكفتة بالفضة ومموهة بالميناء المفرض ومرصعة بالحجارة الثمينة وكان من تقدم العرب استطاعتهم أن يصنعوا من مادة قاسية كالبلور قطعا كبيرة مغطاة بالصور والحكم مما يعسر صنعه ويغلو ثمنه في الزمن الحاضر ، ومن ذلك الابريق البلوري الذي صنع في القرن العاشر من الميلاد فتجده في متحف اللوفر ... وتجلت روح الابداع العربية على الخصوص في ترصيع المعادن الصالحة لصنع الاسلحة والانية والاباريق وكفاف الموازين وأدوات المنازل وما اليها ... » (١٠)

اضافة الى صياغة الجواهر التي ساعد على ترويجها عنى الدولة بالمعادن النفيسة والاحجار الكريمة (١١) .

« وكانت صناعة الملابس أرقى الصناعات » (١٢) .

وكان النحت والحفر على الخشب وعلى العاج والعظم وصناعة التحف المعدنية والخشبية والترصيع والفسيفساء والزجاج والخزف وغير ذلك(١٣) من الصناعات الفنية الجميلة المزدهرة في الدولة الاسلامية (١٤) اضافة الى الصناعات المهمة كصناعة الورق والبارود والاسلحة وغير ذلك (١٥) .

وقد ذكر الاستاذ عبدالله الجراري في كتابه : تقدم العرب في العلوم والصناعات كثيرا من المآثر العظيمة للعرب والمسلمين في حقل الصناعات فذكر أنهم صنعوا الساعات واهتدوا الى الرقاص وعملوا الاسطرلابات وأقاموا المراصد وأهتدوا الى البوصلة وأستخدموها في الملاحة وأستخدموا

الكثير من الالات والادوات في العمليات الطبية وقطروا الكحول وبنسوا الاساطيل وصنعوا السفن العظيمة وكانوا اول من حاول الطيران وأول من استخدم الدبابات والقنابل واستخدموا النفط والبترول في الحروب وصنعوا أقلام الحبر واستخدموا طريقة من طرق الطباعة وغير ذلك من الامور التي لها أثر كبير في تطور الحضارة وتقدم العمران (١٦) .

( ٢ )

## ١ ـ مآثر العرب والمسلمين في صناعة الورق

**تمهيد :** قبل ان نبين مآثر العرب والمسلمين في هذا الحقل يجدر بنا ان نتتبع الادوات التى كتب عليها الانسان في طيات التاريخ السحيق قبل ان يخترع الورق ويستعمله كمادة في الكتابة .

## الادوات التي كتب الانسان عليها قبل اختراع الورق :

ذكر (Eric de Grolier) في كتابه (Histoire du Livre) اختلاف الادوات التى كتبت عليها الامم منذ سالف العصور حتى العصور الاسلامية ذكر منها :

الكتب الخشبية او اللحائية : وقد استعملت في اليونان والصين وجزيرة الفصح ومصر في الالف الثالث قبل الميلاد .

والكتب الهيروغليفية المنقوشة على الحجر في مصر والتى ترجع الى أوائل الالف الثالثة قبل الميلاد أيضاً .

وكذلك اللوحات الصلصالية السومرية وهي أقدم من سابقتها بخمسة قرون والكتابات الاثرية التي خلفتها لنا المدنيات السابقة على المدنيةالكولبية في عصور لم تحدد بعد التحديد الدقيق .

وعظام الصينيين وذبلهم قريبة من الحجر والصلصال وقد اكثر هؤلاء من استعمال البرونز ايضا ..

واستعمل الساميون والاغريق الاصداف المعروفة باسم ( اوستراكا ) ولا يعرف الى أي عصر من العصور القديمة يرجع استعمال المكسيك للصحائف المصنوعة من الياف الباهرة المغطاة بطلاء جيري مزيت وينسد شرف هذا الاكتشاف الى المصريين الذين عرفوا معالجة نخاع البردي وجعله لفائف متقابلة وجمعه في صحائف مصحفة ومجففة ومصقولة . وقد وجدت أوراق البردي منذ الالف الثالثة ق.م . وظلت الدعامة الاصلية للكتاب لا في مصر فحسب بل وبلاد اليونان اذ دخلتها في القرن السابع قبل الميلاد واستوردتها بلاد الغال سنة ٧١٦م عن طريق مارسيليا وظلت الحكومة البابوية تستخدمه حتى منتصف القرن الحادي عشر .

وكان يكتب بسوق القاب المقطوعة بشكل منحرف . ولم تظهر عليها

ريشة الطير وحتى الريشة البرونزية الاحوالي ٥٠٠م

وبدا استعمال الحرير والريشة في الصين في وقت مبكر يرتقي الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ٠

واستعملت جلود الحيوانات منذ القدم سواء في حضارات الشرق الادنى أو في بلاد اليونان وعند قبائل الازتك ٠٠ واستعمل الرومان الشمع كمادة جديدة اذ يكتب عليه بقضيب احد طرفيه والآخر مستدير للمسح ٠٠

وفي القرن الثالث قبل الميلاد استعملت طريقة جديدة في آسيا الصغرى ومصر لجعل جلد الخروف أو العجل أكثر صلاحية للكتابة بكشطه وتمريره في ماء الجير وتجفيفه ثم دعكه بمسحوق الطباشير وتنعيمه انه (الرق) الذي شاع استعماله بكثرة بعد ذلك(١٧) ٠٠ وقد بقي الناس يستعملونه زمنا طويلا حتى بعد اختراع الورق واستعماله كمادة يكتب عليها (١٨) ٠٠

وقد كتبت الامم على مواد أخرى اشار اليها ابن النديم قائلا : « كتبت الامم ٠٠٠ في النحاس والحجارة للخلود هذا قبل الطوفان وكتبوا في الخشب وورق الشجر للحاجة في الوقت ، وكتبوا في التوز الذي يعلا به القسي(١٩) أيضا للخلود ٠٠ ثم دبغت الجلود فكتب الناس فيها وكتب أهل مصر في القرطاس المصري ويعمل من قصب البردي ، والروم تكتب في الحرير الابيض والرق وغيره وفي الطومار المصري والفلجان وهو جلود الحمير الوحشية ٠ وكانت الفرس تكتب في جلود الجواميس والبقر والغنم ٠ والعرب تكتب في أكتاف الابل واللخاف وهي الحجارة الرقاق البيض ، وفي العسب عسب النخل ٠ والصين في الورق الصيني ويعمل من الحشيش وهو أكثر ارتفاع البلد ٠ والهند في النحاس والحجار وفي الحرير الابيض ٠ فاما الورق الخراساني فيعمل من الكتان ، ويقال انه حدث في أيام بني امية ٠٠»(٢٠)

## اختراع الورق

يعد اختراع الورق حدثا عظيما في مستقبل الثقافة والعلوم اذ قد حرر الورق العقل الانساني كما يقول (ولز)(٢١) وساعد كثيرا على انتشار المعرفة وصان كثيرا من العلوم وحفظها من الضياع ٠٠٠

ويرجع اختراع الانسان لهذه المادة المهمة الى قرنين أو أكثر قبل الميلاد حين بدا الناس في الشرق في تقطيع خرق الحرير الى اجزاء صغيرة وتركها في الماء حتى تتحول الى عجينة ناعمة وتجفيفها لتصبح نوعا من الورق الخفيف ٠

ثم انتشر استعمال الورق في البلاد المجاورة الى تركستان الصينية ومنغوليا والهند وسيبريا الجنوبية في القرن الثاني للميلاد ٠ والى كوريا في القرن السادس (٥٩٣)م ٠ واليابان في القرن السابع (٦١٠م) ٠وبدأ بالاتجاه الى آسيا الوسطى وفارس ٠٠٠ في الوقت الذي بدأت فيه الدعوة الاسلامية بالانتشار في البلدان ٠٠٠ وحينذاك تدخل صناعة الورق في طور جديد ٠٠٠ لان انتشارها كان بطيئا ولان المواد التي يصنع منها لا تزال غالية الثمن ٠٠

## صناعة الورق في ظل الاسلام

وعلى كل حال فان صناعة الورق انتقلت الى المسلمين من صناع صينيين وقعوا في الاسر عندما سقطت سمرقند سنة ٧١٢م[٢٢] في ايديهم ومنذ نهاية القرن الثامن وعلى وجه التحديد في سنة ٧٩٤م افتتح أول معمل للورق في بغداد[٢٣] ثم كانت هناك مصانع للورق أخرى في بغداد وسوريا ومصر في عصر هارون الرشيد الذي عني بتلك الصناعة ، وأمر بكتابة المصاحف على هذا الورق بدلا من الرق والبرشمان[٢٤] ... فانتشرت صناعته في ظل الاسلام المشجع لتعلم وطلبه وانتشر استعماله في كتاباتهم انتشارا عظيما وحل محل الرقوق ، والسبب في ذلك ان الورق أقل مؤونة وكلفة من الرق ولان الكتابة على الرق يسهل محوها وتغييرها ولا يظهر اثر ذلك عليه في حين ان الورق لا يسمح بالمحو كما يسمح الرق .

## أول معامل الورق في الدولة الاسلامية :

ولذلك فقد نشطت صناعته في العالم الاسلامي كما قلنا وفتحت في ارجاء الدولة عدة مصانع :

وقد ذكرنا ان أول معمل للورق فتح في بغداد في نهاية القرن الثامن الميلادي أو القرن الثاني للهجرة كما يقول ( كراباتشك)[٢٥] وحددها ديورانت كما قلنا بسنة ٧٩٤م .

وفي مصر ظهر أول معمل في حدود سنة ٩٠٠م[٢٦]

وبدمشق وطبرية وفلسطين وطرابلس الشـام في القرن العاشر الميلادي[٢٧] وفتح في مراكش حوالي ١١٠٠م[٢٨] وفي اسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي[٢٩]

قال آدم متز : « ان الورق البردي المؤرخ ينتهي في عام ٣٢٣هـ ٩٣٥م انتهاء على حين ان الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠هـ ـ ٩١٢م »[٣٠] .

## مدى تقدم المسلمين في صناعة الورق

وقد بقي الاوربيون يكتبون على الرقوق حتى القرون الوسطى .. قال ( لوبون ) :

« وقد كان الاوربيون في العصور الوسطى يكتبون على الرقوق وكان غلاء اسعارها مانعا من توافر المخطوطات فيها ونشأ عن ندرتها أن تعود الرهبان حك كتب كبار المؤلفين من اليونان والرومان ليستبدلوا بها مواعظهم الدينية فلولا العرب لضاع اكثر تلك الكتب الرائعة القديمة التي زعم انها حفظت في أروقة الاديار باعتناء »[٣١] .

وقال ديورانت : « وظل الورق مادة غالية الثمن ... وكانت كثير من

الرقوق يمحي ما عليها من مخطوطات قديمة ليكتب عليها كتاب جديد وكان يطلق على هذه الرقوق اسم خاص هو (Palimsesl) ومعناه ( الممحو مرة ثانية ) وقد فقدت كثير من الكتب القديمة بهذا المحو ٠٠ »[٣٢] ثم قال « وادى ارتفاع اثمان الكتب وقلة الاموال اللازمة لانشاء المدارس الى انتشار الامية الى حد أنه لو وجد في بلاد اليونان أو الرومان الاقدمين لجللهم العار، فقد كانت معرفة الكتابة قبل عام ١١٠٠م في البلاد الواقعة شمال جبال الالب تكاد تكون مقصورة على خدم الدين وهم رجال الدين والحسبة والكتبة وموظفو الحكومة ٠٠ »[٣٣]

كل ذلك كان ٠٠ في الوقت الذي انشئت فيه المصانع لصنع الورق وانتشرت في كل بقاع الدولة الاسلامية فعم استعماله لديهم ٠

## أهمية دور العرب والمسلمين في صناعة الورق

كانت الثقافة قليلة الانتشار قبل اختراع الورق نظرا لعدم وجود الادوات الكتابية اللازمة ، ولما كانت الحاجة ماسة الى نشر العلم والعرفان كان لابد من اختراع مادة تقوم مقام الرقوق وقد اثبتت المخطوطة التي عثر عليها ( الغزيري ) في مكتبة ( الاسكوريال ) والمكتوبة في سنة ١٠٠٩م على ورق مصنوع من القطن ان العرب أول من أحل الكاغد محل الرق ٠٠

أن الورق كان معروفا لدى قدماء الصينيين ولكنهم كانوا يصنعونه من شرانق الحرير ٠٠٠ فلما فتح العرب سمرقند وجدوا فيها مصنعا للورق الحريري « ولكن الاختراع مهما كهذا لم يكن لينفع في أوربا التي لم تعرف الحرير تقريبا الاباستبدال مادة أخرى بالحرير ، وهذا ما أتاه العرب حين اقاموا القطن مقامه ، ولم يلبث العرب ان بلغوا في اتقان صناعة الورق من القطن شأوا لم يسبق كما دل عليه البحث في مخطوطات العرب القديمة »[٣٤] ٠ وقد تفننوا في صناعة انواعه المختلفة وألوانه المنوعة ٠

ويذكر الدكتور فيليب حتي أقدم ما تحدر الينا من المخطوطات العربية المكتوبة على الورق والتي يرجع بعضها الى سنة ٢٥٢هـ ٨٦٦م والتي لا تزال محفوظة في مكتبة جامعة ليدن واخرى في الازهر واخرى في المتحف البريطاني وغير ذلك[٣٥] وقد ذكر ذلك ايضا ( ويلز )[٣٦] وجرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي[٣٧] ٠

قال ( آدم متز ) : « احدث القرنان الثالث والرابع — الهجريان — انقلابا عظيما في صناعة الورق فحررا مادة الكتابة من احتكار بلد من البلدان واستئثارها به وصيراه رخيصا جدا » [٣٨] ٠ ان العرب والمسلمين قد استعملوا الورق قبل ان تعرفه أوربا كما سبق ان قلنا وتفننوا في صناعته٠

ولم يكتفوا بصناعته من القطن بل لقد اوجدوا له بابا آخر أقل مؤونة وكلفة ذلك انهم استطاعوا ان يصنعوه من ( الأسمال ) مع ما فيها من

صعوبة وتراكيب كثيرة وعمليات معقدة ..!

وقد ثبت انهم استخدموا هذا النوع قبل ان تهتدي أليه الامم النصرانية بزمن طويل جدا :

« فأقدم ورق موجود في أوربا من ذلك النوع هو ورق الكتاب الذي ارسله ( جوانفيل ) الى الملك ( سان‌لويس ) قبيل وفاته سنة ١٢٧٠م أي بعد حملته الصليبية المصرية الاولى مع أن لدينا ورقا عربيا صنع من الاسمال قبل ذلك التاريخ بنحو قرن كالورق المحفوظ بين مخطوطات برشلونه والمكتوبة عليه معاهدة السلم بين ملك ارغونة الاذفونش الثاني وملك قشتالة الاذفونش الرابع في سنة ١١٧٨م والمصنوع في مصنع شاطبة العربي الشهير الذي امتدحه العالم الجغرافي الادريسي في النصف الاول من القرن الثاني عشر من الميلاد »(٣٩) بل « لا تزال لدينا وثائق حتى اليوم كتبت على هذا الورق ترجع الى القرن الحادي عشر »(٤٠) .

ونظرا لكثرة اقبال الناس على التعلم وكثرة التآليف وكثرة المكتبات العامة والخاصة في الاندلس ايام سلطان المسلمين فيها اضطروا الى زيادة افتتاح مصانع الورق فانتهوا الى صنعه من القنب والكتان باتقان عظيم »(٤١) .

ولم يكن ليجتمع في مكتبات الاندلس وغيرها ذلك العدد العظيم من الكتب المؤلفة لو لم تنتشر صناعة الورق وتتيسر وتجد لها موارد أقل مؤونة وأسهل كلفة ..



## انتقال صناعة الورق الى أوربا

لقد سرت تلك الصناعة الى اسبانيا من مراكش وانتقلت من اسبانيا الى فرنسا لا عن طريق الصليبيين كما يزعم البعض . ولقد انتقلت الى ايطاليا عن طريق المسلمين في صقلية في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ثم انتشرت بعد ذلك عن طريق هذه البلدان الى سائر اوربا .

قال هـ . ج . ويلز : « وقد دخلت الصناعة البلاد المسيحية اما بطريق بلاد الاغريق أو بالاستيلاء على مصانع الورق العربية ( المغربية ) أيان استعادة المسيحيين أرض اسبانيا ولكن الانتاج انحط في ظلال الاسباني المسيحي انحطاطا محزنا ولم يصنع الجيد من الورق في أوربا المسيحية حتى قريب من نهاية القرن الثالث عشر وعند ذلك كان زمام قيادة العالم في يد ايطاليا ولم يحدث الا عند القرن الرابع عشر ان وصلت الصناعة الى المانيا ولم تصل حتى نهاية ذلك القرن الى الحد الكافي من الوفرة والرخص الذي يجعل فن طباعة الكتب موضوع شغل يمكن ممارسته ، ومنذ ذلك الحين تبعته الطباعة بحكم الطبيعة والضرورة ودخلت الحياة الذهنية للعالم في دور جديد اكثر قوة بكثير ... »(٤٢)

وقال فيليب حتي : « وقد كانت هذه الصناعة ـ أي صناعة الورق ـ من أجل الخدمات التي اسداها الاسلام الى اوربا »[٤٣] .

### مساهمة العرب والمسلمين في ابتكار فن الطباعة :

وقد مهد العرب والمسلمون لفن الطباعة من وجهين :ـ هما :

١ ـ تيسير صناعة الورق وتوفيره وفرة جعلت الناس تفكر في طريقة سهلة وسريعة للكتابة الجيدة قال حتي : « ولولاها ـ أي صناعة الورق ـ لما تم اختراع الآلة ذات الحروف المتحركة »[٤٤] .

٢ ـ ثبت عند المؤرخين انه كان عند عبدالرحمن بن بدر من وزراء الناصر من أهل المائة الرابعة ـ كاتب اعتاد ان ينشيء الرسائل الرسمية في منزله ثم ينفذها الى ديوان خاص يصير فيه اظهارها على الورق فتصدر في نسخ متعددة توزع على عمال الدولة »[٤٥] وهو نوع من الطبع[٤٦] ..

فيكون ابن بدر العربي قد سبق غوتمبرغ الالماني مخترع الطباعة بنحو اربعة قرون[٤٧] .

ويرجع بعض الباحثين الطباعة بواسطة الحفر على الخشب الى الصينيين القدماء ...

وعلى كل حال فان صناعة الورق ادت الى اختراع الطباعة في المانيا سنة ١٤٥٠ ـ ١٤٥٥ على يد غوتمبرغ فيسرت للناس قراءة الكتب واحيت الكثير من التراث ووسعت مجالات المعرفة ونشطت سبلها فكان بذلك فضل عظيم للانسانية ... لا ينكر ان للعرب والمسلمين سهما وافيا فيه ...

### امـا الحبر :

فقد برع المسلمون فيه كشأنهم في كثير من الصناعات القائمة على الكيمياء فقد صنعوا انواع الحبر المختلفة كالحبر العادي والحبر السري والحبر الذهبي[٤٨] .

ونختتم بحثنا بقول ( جوف هرمان راندال ) عن حضارة المسلمين وصناعاتهم « وبنوا في القرن العاشر في اسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب بل كان علما طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية . وعلى الاجمال كان العرب يمثلون في القرون الوسطى التفكير العلمي والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلها في اذهاننا اليوم المانيا الحديثة .. »[٤٩]

### ٢ ـ في معدات الحروب

اننا نقف الآن دهشين متعجبين أمام تطور فن الصواريخ العظيم وأمام

تطور الفنون الحربية كالقنابل المهلكة والادوات التى تحصد ملايين الارواح بزمن قصير ـ نعم نقف مأخوذين دون ان نسائل انفسنا : الى من يدين العالم بهذا الاختراع العجيب ٠٠٠؟!

لقد قرن اختراع البارود مدة طويلة بأسماء كثيرة مثل ( روجر بيكون ) و ( البرتس ماجنوس ) و ( برتولد شوارتز ) وكثيرا ما عزي اختراعه الى الصينيين ٠٠٠!!

ولكن الثابت في التاريخ ان للعرب والمسلمين دورا فعالا في اختراع البارود والمتفجرات ٠٠٠

ذلك ان العرب والمسلمين قد أدخلوا علم الكيمياء في ساحة الحروب وكان له الاساس الجوهري لاختراع هذه الامور ٠٠٠ وقد ادت كثرة ممارستهم وطول تجاربهم وايلافهم دخول ساحات الحروب واحتياجاتهم الى ان يكونوا دائما في موقف الدفاع والهجوم ـ أدت كل تلك الامور الى أن يدفع الحكام بالكيمياويين الى اجراء التجارب على المواد الحارقة والمتفجرة والمواد الكيمياوية الاخرى المفيدة في ساحة المعركة ، فحداهم ذلك الى البحث والتجربة وكان حصيلة هذا اعداد نوعين مهمين من المركبات : النار الاسلامية أو اليونانية ، وبارود القذائف والمتفجرات ٠

**اولا : النار الاسلامية :ـ**

ان استعمال المسلمين لهذا النوع من السلاح قد جاءهم من البيزنطيين ٠٠٠ فقد استعمل البيزنطيون منذ القدم نوعا من المركبات المحرقة وخاصة حين محاصرة المسلمين لأسوار القسطنطينية في زمن الامويين ٠٠٠ فأفادتهم كثيرا في ابقاء تلك في حوزتهم زمنا طويلا ، وقد استعصى فتحها على المسلمين كل تلك الاحقاب الطويلة من الدهور حتى زمن العثمانيين ٠٠ على الرغم من متابعة الحصار حولها وتتالي الحملات عليها على مر السنين ٠٠٠

وكانت تلك المركبات تسمى ( النار اليونانية ) وقد اذاقت المسلمين الكثير من الاضرار والخسائر ٠٠٠ وقد بقي تركيبها سرا مجهولا لدى المسلمين ، اذ أمر القيصر قسطنطين ( بورفيرو جينيت ) بأن تعد من أسرار الدولة ٠٠٠ لكن المسلمين لم يلبثوا أن عرفوها وعرفوا موادها الاساسية ومقاديرها وكيفية استعمالها ، ويظن ان الذي نقلها هو مهندس سوري اسمه ( كالينكوس )(٥٠) فاذا هي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والأدهان على شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة كانوا يشدونها الى مقدم السفينة فيقذفون منها السائل مشتعلا ، أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان الملتوت بالنفط فيقع على السفن أو البيوت فيحرقها ٠٠٠ وهي شديدة الضرر ولها خاصية الاشتعال المتوهج حتى في الماء اذ يزيدها الماء اشتعالا وتوقدا ٠٠٠

وحينما عرف المسلمون تركيبها انتشر استعمالها وأصبحت « عامل الهجوم المهم » على حد تعبير المؤلفين ( رينو ) و (فافيه ) ... وقد بلغ تفنن المسلمين في استعمالها حدا كبيرا ، وقد شاع استعمالها خاصة في حروبهم مع الصليبيين اذ كانت عاملا مهما من عوامل نشر الفزع والهلع في قلوب المعتدين ...

ولما رأى الصليبيون هذا النوع الجديد الفتاك الق في قلوبهم الرعب مما رأوا حتى سموها ( النار الاسلامية ) فعرفت بهذا الاسم بعد هذا التاريخ ...

وللرعب الذي تثيره أصبحت مجال أحاديث الاوربيين الممزوجة بالدهشة والتعجب :ــ

قال ( غوستاف لوبون ) : وقد « تفنن العرب في استخدامها والقذف بها بشتى الطرق ... وليس بمجهول خبر الرعب الذي ألقته في قلوب الصليبيين فورد ذكره في أحاديثهم : ومن ذلك أن أعلن ( جوانفيل ) انها أفظع شيء رآه في حياته ....!! وأنها ضرب من التنانين الكبيرة الطائرة في الهواء .. فلما أصبح ( جوانفيل ) في جوار الملك ( سان لويس ) ركع ورفع يديه الى السماء وقال باكيا : ربنا احفظنا واحفظ قومنا »(٥١) .

وقال المؤرخ الفرنسي الشهير ( زانوبيه ) ــ المتوفى سنة ١٣١٧م ــ واصفا اياها وكان قد خاض غمار الحرب الصليبية السادسة مع ملك فرنسا ( لويس التاسع ) الشهير بلويس القديس : « انها كانت تأتي طائرة في الهواء كالتنين المجنحة والمذيلة بذيل طويل ، سمكها كسمك برميل يدوي كالرعد القاصف وبسرعة النور وكان ظلام الليل الدامس ينعدم بتاتا بضوئها المهلك »(٥٢) .

وفي الحملة الصليبية حين استقبل القائد المصري الجيوش الفرنجية وملكها القديس ( لويس التاسع ) أيضا عام ١٢٤٩م استعملت تلك القذائف وقد كتب رسول أندلسي محارب يقول :

« انه كلما انطلقت قذيفة في الفضاء كان يبلغ التأثر بملك فرنسة مبلغا كبيرا فيصيح بأعلى صوته : يا سيدي الحبيب احمني وشعبي من الكارثة »(٥٣) .

وعلق ( غوستاف لوبون ) على هذه الاخبار بقوله :ــ

« لا يخلو ذلك الفزع من وهم .. مع ذلك فاذا كانت النار اليونانية نافعة في المعارك البحرية للقضاء على سفن العدو فانها لم تكن كذلك في البر .. فلم يرو أحد من المؤرخين انها أودت بحياة احد من رجال ( سان لويس ) أو غيرهم في البر ، فالنار اليونانية وان كان من طبيعتها التحريق لم تصلح للرشق • وهي وان كانت تقذف لم تنفع لرمي القذائف ، وهي وان كانت من المحترقات لم تكن لها خواص البارود في الانفجار ... »(٥٤)

وعلى كل حال فقد استطاع العرب والمسلمون في القرن الثالث عشر الميلادي ( أي السابع الهجري) أن يعدوا لاعدائهم من السلاح والقوة بعناصر بسيطة وتكاليف يسيرة مثل ما أعد الغرب في القرن العشرين من العناصر الكثيرة ،. ولكن بتكاليف باهظة ..!

**ثانيا : بارود القذائف :**

تتطور وسائل الحرب في الوقت الحاضر تطورا سريعا وخاصة المتفجرات التي تعتمد على البارود ومشتقاته وقد نسب فضل اختراع هذه المادة كما قلنا الى بعض العلماء الغربيين وبعضهم ينسبه الى الصينيين والبعض الآخر ينسبه الى العرب ...(٥٥)

ولكن الباحث في طيات تاريخ الحضارة يجد ان اكثر عناصر البارود كانت معلومة لدى معظم الامم الشرقية الا عنصرا واحدا - وهو العنصر الاساسي في تركيبه - ذلك هو ( نترات البوتاس ) الشيء الذي أشار اليه الصينيون ولكنهم لم يتوسعوا في استعماله ... ومنهم عرفه المسلمون في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي واستعملوه في حروبهم وذكروه في كتبهم باسم ( ثلج الصين ) أو ( ملح الصين ) ..

وكانت المأثرة العظيمة هي استعماله لرمي القذائف المتفجرة ، ومن هنا تطور فن الاسلحة الحديثة كالمسدسات والبنادق والمدافع ... وهي بداية صنع تلك الاسلحة اذا صح اعتبارها بداية ... اذ كانت غير متقنة وبصورة بدائية كما سنذكر ولكنها كانت على كل حال على جانب كبير من اثارة الفزع والهلع في قلوب الاعداء ...

قالت المستشرقة الالمانية ( زيغريد هونكة ) :-

« والحق يقال ان العلماء العرب وضعوا على أية حال نظرية تركيب البارود المندفع في القرن الثاني عشر . ونظرا للحاجة الماسة التي كانت تفرض على العرب ان يظلوا دوما في حالة دفاع واستعداد ضد العدوان الغربي فلقد دفع الحكام العرب كيميائييهم الطائري الشهرة الى اجراء التجارب ، خاصة على البارود وغيره من المواد الكيمياوية المفيدة في ساحة المعركة بشواظها ونيرانها وقوة اندفاعها وانفجارها . ومن المؤكد ان العرب تمكنوا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ان يستعملوا ( البارود القاذف ) كمادة دافعة للصواريخ . ففي كتاب ( الحرب ) لحسن الرماح ( حوالي عام ١٢٧٥م ) وفي غيره من الكتب التي تعالج شؤون الحرب في ذلك الزمان نجد ان الحديث كان يدور فقط حول المواد المتفجرة والاسلحة النارية وحول ( بيض متحرك حارق ) كان ينطلق كقذائف نارية قاصفة كالرعد ، وهي أولى الرعادات ( الطوربيدات ) المزودة بمحركات صاروخية . وعن طريق ترجمات لاتينية وصلت أولى المعلومات عن أنواع المزيج القاصف

اللامع وعن « الألاعيب » السحرية في بلاد أوربة الى أسماع روجر باكون (Roger Bacon) والبرتس ماغنوس (Albertus Magnus) والنبيل الالماني فون بولشتاد (Von Bollstadt) وهذا الاخير هو الذي أمد خلال طوافه ـ المدعي باختراع البارود ـ برتولد شفارس الفرنسيسكاني (Berthold Schwarz) في مدينة فرايبورغ بمعلوماته الفذة »(٥٦)

ثم بعد هذا الشرح المستفيض تستأنف فتقول :

« وبعد هذه النظرية المشعلة للفكر يأتي التطبيق الذي هز العالم هزا، فعرب الاندلس في اسبانية هم أول من استعمل القذائف النارية في أوربة لأهداف عسكرية فأصبحوا بذلك أساتذة الاوربيين أيضا في هذا الحقل . وبهذا بلغوا في التعليم حدا أثار العجب ، ففي الاعوام ١٣٢٥م ، ١٣٣١م ، ١٣٤٢م ، أثارت قذائف العرب النارية في كل من معركة بازا (Baza) واليكانت (Alicante) والجزيرة (Algeciras) الهلع الكبير والخوف الكاسح المؤذن بنهاية العالم بين صفوف الاعداء .

وبعد أربع سنوات أي في عام ١٣٤٦م وفي معركة (Crecy) الشهيرة قررت مصير المعركة أنبوبة الشيطان تلك التي بثت الذعر في قلوب الانكليز لدى معركة الجزيرة نقول انها حسمت تلك المعركة بالانتصار الكاسح على جيوش الفرسان الفرنسية ، وبهذا السلاح الجديد العجيب ابتدأ عصر جديد أيضا بالنسبة الى الحروب ، واننا لنقف فاغري الأفواه تعجبا لسرعة تقدمه الهائل منذ الحرب العالمية الثانية »(٥٧) .

وقال الاستاذ حيدر بامات :

« ان البحث الذي قام به ( رينوي ) و ( فافه ) بين بوضوح أنه على الرغم من أن الصينيين اكتشفوا نترات البوتاس واستعملوه في الصواريخ والالعاب النارية الا أن العرب هم وحدهم الذين اخترعوا ( ملح البارود ) كمادة متفجرة قابلة لاطلاق القذائف . وقد استعملوا ( ملح البارود ) وخصوصا سنة ١٢٤٢ م للدفاع عن ( جبراس ) عندما هاجمها ( الفونس الحادي عشر ) .. »(٥٨)

ثم ان الراهب الانكليزي ( روجر باكون ) من أهالي القرن الثالث عشر للميلاد أشار الى مزيج من قبيل البارود كان شائعا في أيامه(٥٩) .

وقد ذكر ( كوندى ) المستشرق الاسباني المتوفى سنة ١٨٢٠ م ان العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ م ( ٢٨٩ هـ ) وهم الذين نقلوه الى الاندلس وعنهم أخذه الافرنج وهو يعد من أكبر منح الحضارة التي كسبوها(٦٠) ..

وذكر أيضا أن اهل مراكش استخدموا الاسلحة النارية في محاربتهم سرقوسة سنة ١١١٨م (٦١) ...

وقد استخدم بارود النترات بمصر في القرن الثامن الهجري لقذف

قنابل ذات صوت كقصف الرعد ..(٦٢)..

ومما يروى عن ملك تونس الذى شن حملة على أمير اشبيلية في القرن الحادي عشر . وقد روى ( فيريرا ) خبر قذف القنابل بقوة البارود في حصار طارق سنة ١٣٠٨م وفي حصار ملك غرناطة اسماعيل مدينة بياسة سنة ١٣٢٤م(٦٣)..

وقد ذهب ( رينوى ) و ( فافه ) وسبقهما ( الغزيرى ) و ( اندزه ) و ( فياردو ) الى أن العرب هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار الدافع للقذائف(٦٤) .

فهذا دليل على أن البارود قد عرفه المسلمون واستخدموه في حروبهم قبل ( شوارتز ) وغيره بزمن طويل .

اما تركيب المدافع نفسها فقد مر بنا انها كانت بسيطة التركيب بدائية الصنع غير متقنة وقد وصف ( جون ويليام فورتيسكيو ) نوعا من الاسلحة التي كانت متداولة الاستعمال قبل ان تستخدم الاسلحة النارية المتقنة بقوله :ـ

« وكانت في أول الامر غير متقنة الصنع . عبارة عن اسطوانة معدنية مثبتة على قطعة من الخشب أو موضوعة على ( منيم ) خشبي وفي احد طرفيها ثقب محفور لاشعال البارود منه . وقد ظل الاسلوب نفسه دون تغيير كبير فيما يتعلق بالاجزاء الكبيرة الى عهد قريب فان مدفع الهاون كان حتى منتصف القرن التاسع عشر يثبت على ( منيم ) خشبي لا عربة . ولكن لم يتسن ذلك في الاجزاء الصغيرة فالمرء لا يستطيع الافادة كثيرا من البندقية اليدوية اذا اضطر الى الامساك بها بيد واحدة واشعال النار فيها باليد الثانية ، لانه لم يمكن ان تكون البندقية ثقيلة أو طويلة او طيعة عند التصويب اذا كان المفروض ان يدا واحدة هي التي ستعالجها . وقد مضت سنون عدة قبل ان يخطر لرجل عبقري ان يثبت فتيلا مشتعلا في كلاب فوق الماسورة بحيث يمكن بالضغط بالاصبع انزال الفتيل الى ثقب الاشعال . وقد اخذت البندقية اليدوية في التقدم السريع حالما استطاع الانسان بذكائه استخدامها بكلتا يديه »(٦٥) .

## أول معركة تستخدم فيها المدافع :

جرى المؤرخون على ان المعركة الاولى التي استعملت فيها المدافع هي معركة ( كريسي Crecy ) الشهيرة التي وقعت سنة ١٣٤٦م ..!

والحقيقة ان المؤرخين المسلمين قد اشاروا الى استعمال المدافع قبل ذلك بزمن طويل كما يستخلص من الروايات التي ذكرناها سابقا وكما يستنتج من قول ابن خلدون اذ يقول في فتح سلجماسة :

« ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب .. وجه عزمه الى افتتاح

سلجماسة سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وادالة دعوته فيها من دعوتهم فنهض اليها في العساكر والحشود في رجب من سنة الثنتين وسبعين فنازلها وقد حشد اليها اهل المغرب أجمع من زناته والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة امام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة باريها . فاقام عليها حولا يغاديها القتال ويراوحها الى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليه فبادروا الى اقتحام البلد فدخلوه عنوة من تلك الفرجة »(٦٦) .

فهذا دليل على أن العرب والمسلمين قد عرفوا المدافع واستخدموها في القرن الثالث عشر الامر الذي لا يجعل قيمة لتشكيك ( ديورانت ) في معرفتهم لها وقدرتهم على استخدامها اذ يقول :

« وليس في المخطوطات العربية ذكر صريح له ( اي للبارود ) قبل عام ١٣٠٠م(٦٧) » ثم يقول « ولم نعثر على ذكر لاستخدام البارود في الاعمال الحربية قبل القرن الرابع عشر ! »(٦٨) .

كما لا أهمية لقول ( جون وليام فورتيسكيو ) اذ يقول :

« وفي الوقت نفسه أو حوالي منتصف القرن الرابع عشر بدأ استخدام الاسلحة النارية »(٦٩) ..

جهلا بما الفه المسلمون في باب الحروب من مؤلفات فقد الفوا كثيرا من الرسائل والكتب في حيل الحروب والعدد الحربية وعلى رأسها كتاب ( الحرب ) لحسن الرماح ( المتوفي حوالي ١٢٧٥م ) الذي اشار الى القذائف النارية والمواد المتفجرة والاسلحة النارية المستعملة كالرعادات ( او الطوربيدات ) المزودة بالحركات الصاروخية وقد رسم في كتابه ذلك بعض النماذج اذ حوى رسوما للرعادات المزودة بالمادة المتفجرة وبالصاروخ الدافع لها الى جانب رعادات اخرى متفجرة مزودة بالاشرطة النارية(٧٠) ..

وعرب الاندلس أول من صنع المدافع ولاتزال مدافعهم التي دافعوا بها عن غرناطة محفوظة في احد متاحف اسبانيا الى اليوم(٧١) ..

وقد ذكر غوستاف لوبون انه « جاء في تاريخ الاذفونش الحادي عشر أن مغاربة المدينة كانوا يقذفون بكثير من الصواعق على الجيش فيرمون عليه عدة قنابل كبيرة من الحديد كالتفاح الكبير وذلك الى مسافة بعيدة فيمر بعضها من فوق الجيش ويسقط بعضها عليه »(٧٢) .

واضاف قائلا : « حضر كونت دربي وكونت سالسبري الانكليزيان ذلك الحصار فشاهدوا نتائج استخدام البارود فنقلا ذلك الاختراع الى بلادهم من فورهم فاستخدمه الانكليز في معركة ( كريسي ) بعد ذلك بأربع سنوات(٧٣) .

اما كيفية صنع تلك المدافع وتركيبها الكيميائي : فقد وصفها ماركس غريقس (Marcus Graecus) حوالي ١٢٧٠ في كتابه : ( النيران لحرق الاعداء ) :ـ

« حول الى مسحوق دقيق ـ كلا على انفراد ـ رطلا من الكبريت الحي ورطلين من الفحم النباتي المصنوع من شجر الليمون الحامض او الصفصاف وستة ارطال من ملح البارود ( نترات البوتاسيوم ) ثم امزجها كلها ..»(٧٤)

وفي المخطوطات العربية نجد وصف تلك المركبات الكيمياوية التي كان العرب والمسلمون يستخدمونها من البارود والاسلحة الكيمياوية وقد ورد وصف طريف لها في مخطوط كتب في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد ترجمه رينو ونقله لوبون هو تقريبا نفس ما ذكر ماركس غريقس السابق يقول المخطوط العربي :

« وصف للذخيرة التي تدك في المدفع مع بيان نسبتها :ـ تؤخذ عشرة دراهم من ملح البارود ودرهمان من الفحم ودرهم ونصف من الكبريت ، وتسحق حتى تصبح كالغبار ويملاء منها ثلث المدفع فقط خوفا من انفزاره ، ويصنع الخراط من اجل ذلك مدفعا من خشب تناسب جسامته فوهته وتدك الذخيرة فيه بشدة ، ويضاف اليها اما بندق واما نبل ، ثم تشعل ويكون قياس المدفع مناسبا لثقبه فاذا كان عميقا اكثر من اتساع الفوهة بدا ناقصا »(٧٥) .

---

(١) حتي : الدكتور فيليب وجماعته : تاريخ العرب مطول ( الطبعة الثالثة ) ( دار الكشاف بيروت ١٩٦١ ) جـ ٢ ص ٣٩١ .

(٢) ديورانت : ول : قصة الحضارة ترجمة محمد بدران ( مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٨ ) جـ ١٧ ص ١٣ .

(٣) هونكة : زيغريد : شمس العرب تسطع على الغرب أو أثر الحضارة العربية في اوربة ، ترجمة : فاروق بيضون وكمال دسوقي ( الطبعة الاولى بيروت ١٩٦٤ ) ص ٣٩٣ .

(٤) كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط سلسلة الالف كتاب رقم ١١٤ ، ترجمة عمر الاسكندري ( القاهرة دار الطباعة الحديثة ١٩٥٧ ) ص ٤٥ .

(٥) الدكتورة نجلاء عز الدين : العالم العربي ترجمة محمد عوض ابراهيم وجماعته ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٦٤ .

(٦) هـ . ج . ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ( مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٥٠ ) المجلد الثالث ص ٦٦٦ .

(٧) ي . هل : الحضارة العربية سلسلة الالف كتاب رقم ٨٨ ترجمة الدكتور ابراهيم احمد العدوي ( الانجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٦ ) ص ٩٢ ـ ٩٤ .

(٨) البغدادي : الخطيب : تاريخ بغداد ( طبعة احمد فريد رفاعي ، دار المأمون )

(٩) جوستاف جرونيباوم : حضارة الاسلام سلسلة الالف كتاب رقم ٢ ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ( دار مصر للطباعة ١٩٥٦ ) ص ٤٦ ـ ٤٨ .

(١٠) لوبون : الدكتور غوستاف : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ( الطبعة الثالثة بدار احياء الكتب في القاهرة ١٩٥٦ ) ص ٥١١ ـ ٥١٢ .

(١١) حتي : فيليب وجماعته : تاريخ العرب مطول جـ ٢ ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ .

(١٢) متز آدم : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريدة ( مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤١ ) جـ ٢ ص ٢٩٥ .
(١٣) م. س. ديماند : الفنون الاسلامية ، ترجمة احمد محمد عيسى ( الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ١٩٥٨ ) ص ٩٠ و ١١٥ و ١٣١ و ١٣٩ و ١٦٤ و ٢٣٠ و ٢٤٩ .
(١٤) زيدان : جرجي : تاريخ التمدن الاسلامي ( الطبعة الرابعة بمطبعة الهلال بالقاهرة ١٩٢٢ ) جـ ٣ ص ١٩٣ .
(١٥) بدوي : الدكتور عبدالرحمن : دور العرب في تكوين الفكر الاوربي ( الطبعة الاولى بيروت ١٩٦٥ ) ص ٤٧ ــ ٥٤ .
(١٦) الجراري : عبدالله بن العباس : تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوربا ( الطبعة الاولى ، دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦١ ) .
(١٧) اريك دي جروليه : تاريخ الكتاب سلسلة الالف كتاب رقم ٧٥ ( مطبعة نهضة مصر بالقاهرة ) ص ١٥ ــ ٢٦ .
(١٨) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ( مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٨ ) جـ ١٧ ص ٩ .
(١٩) القسي : جمع قوس .
(٢٠) ابن النديم : الفهرست ( مطبعة الاستقامة بالقاهرة ) ص ٢٧ ــ ٣٨ .
(٢١) هـ . ج . ولز : معالم تاريخ الانسانية ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ( مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٠ ) المجلد الثالث ص ٧٩٢ .
(٢٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران مجلد ١٣ ص ١٦٩ .
(٢٣) ديورانت قصة الحضارة جـ ١٣ ص ١٧٠ .
(٢٤) بدوي : عبدالرحمن ، دور العرب في تكوين الفكر العربي ( ط ١ بيروت ١٩٦٥ ) ص ٤٨ .
(٢٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبدالهادي ابو ريدة ( القاهرة ١٩٤١ ) جـ ٢ ص ٣٠٩ .
(٢٦) فيليب حتي وجماعته : تاريخ العرب مطول ط ٣ ، بيروت ١٩٦١ ، جـ ٢ ص ٤٢٥ وآدم متز ٣٠٨ .
(٢٧) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٠٩ .
(٢٨) عبدالرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوربي ص ٤٨ .
(٢٩) نفس المصدر .
(٣٠) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٠٨ .
(٣١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ( الطبعة الثالثة دار احياء الكتب بالقاهرة ١٩٥٦ ) ص ٤٨١ ــ ٤٨٢ .
(٣٢) ديورانت : قصة الحضارة جـ ١٧ ص ٩ .
(٣٣) نفس المصدر جـ ١٧ ص ١٣ .
(٣٤) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٤٨٢ .
(٣٥) الدكتور فيليب حتي : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٤٢٥ ــ ٤٢٦ .
(٣٦) ويلز : معالم تاريخ الانسانية مجلد ٣ ص ٧٩٣ .
(٣٧) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ( الطبعة الثانية بمطبعة الهلال بمصر ١٩١٤ ) جـ ١ ص ٢٤٣ .
(٣٨) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٠٨ .
(٣٩) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٤٨٣ .
(٤٠) بدوي : دور العرب ص ٤٨ ــ ٤٩ .

(٤١) لوبون : حضارة العرب ص ٤٨٣ ٠

(٤٢) هـ٠ ج٠ ويلز : معالم تاريخ الانسانية ، المجلد الثالث ص ٧٩٣ ٠

(٤٣) حتي : تاريخ العرب مطول : الطبعة الثانية بيروت ١٩٥٣ الجزء الثالث ص ٦٧٠ ٠

(٤٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٦٧٠ ٠

(٤٥) ابن الأبار : الحلة السيراء : ص ١٣٧ ٠

(٤٦) حتي : تاريخ العرب ج ٣ ص ٦٧١ ٠

(٤٧) الجراري : تقدم العرب في العلوم والصناعات ص ٢١٧ ٠

(٤٨) بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوربي ص ٤٩ ٠

(٤٩) جون هرمان راندال : تكوين العقل الحديث ، ترجمة الدكتور جورج طعمة ( نشرته دار الثقافة ببيروت وطبعته بمطبعة المعارف بمصر ١٩٥٥ ) ج ١ ص ٣١٤ ٠

(٥٠) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ( القاهرة مطبعة الهلال ١٩١٤ الطبعة الثانية ) ج ١ ص ١٧٩ ٠

(٥١) لوبون : غوستاف : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ( الطبعة الثالثة ، القاهرة دار احياء الكتب ١٩٥٦ ) ص ٤٧٨ ٠

(٥٢) الجراري : عبدالله بن العباس : تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوربا ( طبعة أولى القاهرة ١٩٦١ ) ص ٢٠٢ ٠

(٥٣) هونكه : زيغريد : شمس العرب تسطع على الغرب او اثر الحضارة العربية في اوربا ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ( طبعة اولى بيروت ١٩٦٤ ) ص ٤٩ ــ ٥٠

(٥٤) لوبون : حضارة العرب ص ٤٧٨ ٠

(٥٥) وجدي : محمد فريد : دائرة معارف القرن الرابع عشر هـ ــ العشرين م المجلد الثاني مادة ( بارود ) ٠

(٥٦) زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٥٠ ــ ٥١ ٠

(٥٧) نفس المصدر ص ٥١ ٠

(٥٨) حيدر بامات : دور المسلمين في بناء المدنية الغربية ص ٤٩ ٠

(٥٩) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ( مطبعة الهلال ، القاهرة ١٩١٤ ) جـ ١ ص ١٨٠ ٠

(٦٠) عبدالله الجراري : تقدم العرب في العلوم والصناعات ص ١٩٠ ٠

(٦١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي جـ ١ ص ١٨٠ ٠

(٦٢) الجراري : تقدم العرب في العلوم والصناعات ص ١٨٩ ٠

(٦٣) نفس المصدر ص ١٩٠ وانظر زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٥١ ٠

(٦٤) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٤٧٨ ــ ٤٧٩ ٠

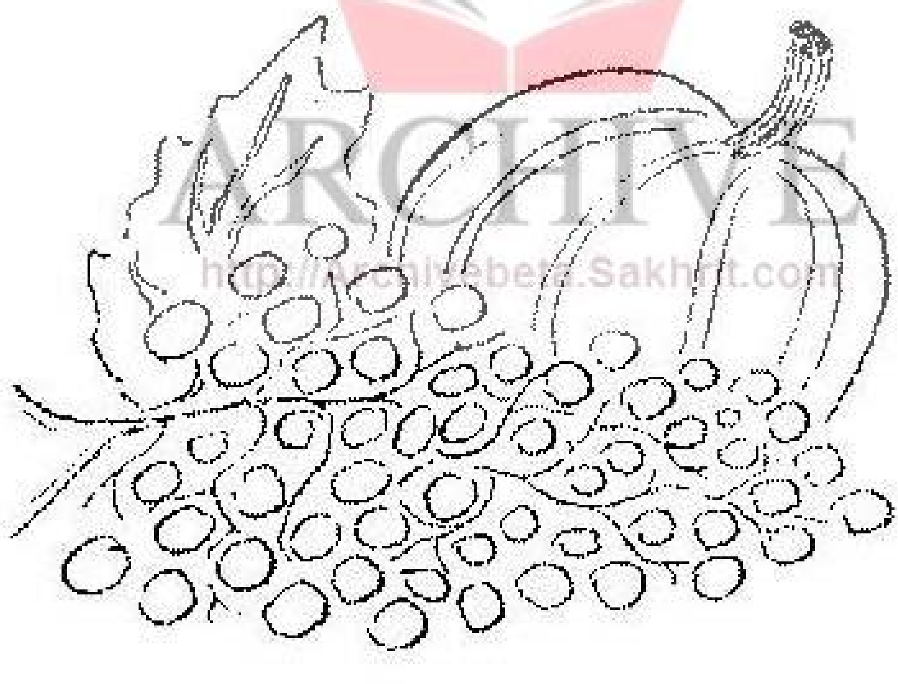
(٦٥) جون وليام فورتيسكيو وتشارلز ج٠ فولكس : السلاح والحرب في العصور الوسطى ، بحث في كتاب تاريخ العالم الذي نشر بالانكليزية المستر جون أ٠ هامرتون واشرفت على ترجمته ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة قسم الترجمة والالف كتاب ( مكتبة النهضة بالقاهرة ) المجلد الخامس ص ٣٤٨ ٠

(٦٦) ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ( دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩ ) المجلد السابع القسم الاول ص ٣٨٨ ــ ٣٨٩ ٠

(٦٧) ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ( لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٨ ) الجزء السابع عشر ص ١٨٦ ٠

(٦٨) نفس المصدر ص ١٨٦ ٠

(٦٩) جون هامرتون : تاريخ العالم المجلد الخامس ص ٣٤٨ .
(٧٠) زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٥٠ .
(٧١) عبدالله الجراري : تقدم العرب في العلوم والصناعات ص ١٩٠ .
(٧٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٤٨٠ .
(٧٣) نفس المصدر .
(٧٤) ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ج ١٧ ص ١٨٦ .
(٧٥) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ٤٨١ .



# رسائل في اللغة

## حققها وعلق عليها الدكتور ابراهيم السامرائي

نقد بقلم

الدكتور رمضان عبد التواب

يقوم تحقيق التراث ونشره في العصر الحاضر على أسس علمية متعارف عليها ، وقد كنا قبل ربع قرن مضى نقتنع بأن يقوم أحد الكتبية بقراءة مخطوطة ما وطبعها بأغلاطها والتحريفات الموجودة بها دون فهم لها مع تذييل صفحاتها أحيانا ببعض التعليقات التافهة التي ينقلها نقلا من الحواشي والشروح ، كما كنا نقتنع أيضا بأن يقوم ذلك الكتبي باعادة طبع كتاب من الكتب الصفراء على ورق أبيض مصقول دون تحقيق ٠ أما اليوم ، وقد تغيرت أساليب التحقيق والنشر ، ونزلنا في ميدان سباق مع المستشرقين الذين تعلمنا منهم الكثير في هذا الفن ، فان عملا كهذا يثير سخريتنا ، ولا يطمئن له الباحث الحديث ٠

وكتاب « رسائل في اللغة » الذي نشره الدكتور ابراهيم السامرائي يضم أربعة كتب هامة في نصوص اللغة ، أولها كتاب « خلق الانسان » لابي اسحاق الزجاج المتوفى سنة ٣١٠هـ وثانيها كتاب « القول في ألفاظ الشمول والعموم والفصل بينها » لابي علي المرزوقي المتوفى سنة ٤٢١هـ وثالثها كتاب « ما يذكر وما يؤنث من الانسان واللباس » لابي موسى الحامض المتوفى سنة ٣٠٥هـ ورابعها مقتطفات من كتاب « المسائل والاجوبة » لابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١هـ ٠

واذا كان تحقيق النصوص يحتاج عموما الى بذل العناية في اقامة النص واصلاح خلله وتخريج شواهده وضبط أعلامه ، فان هذه العناية تشتد اذا كان النص الذي نقوم بتحقيقه نصا لغويا ، فاننا مطالبون في هذه الحالة بالتدقيق والوقوف أمام كل كلمة ومراجعة أكثر من مصدر للتحقق من صحتها ، وتقويم ما أصابها من تحريف أو تصحيف ٠

ولكن الامر كان على العكس من ذلك في تحقيق كتاب « رسائل في اللغة » اذ لم يبذل فيه الدكتور السامرائي جهدا يذكر ، بل تعجل في اخراجه ونشره - ولسنا بذلك نحط من قيمة هذه النشرة أو نطعن في قدرة الدكتور السامرائي ومكانته العلمية ، ولكننا نرى أنه تعجل ، ولو تريث ووقف عند

كل نص يحاول فهمه ويعرضه على المصادر المختلفة لجاء عمله متقنا خاليا من التصحيف والتحريف .

وفيما يلي نماذج من المآخذ التي نأخذها على تحقيق كل كتاب من الكتب الاربعة التي نشرها الدكتور السامرائي في مجموعته « رسائل في اللغة » . فنلاحظ على الكتاب الاول وهو « خلق الانسان » للزجاج ما يلي :

أولا ــ في ترجمة الزجاج لم ير الدكتور السامرائي كتاب بروكلمان « تاريخ الادب العربي » GAL I 110; SI 170 ولذلك فاته ذكر كتبه المخطوطة التي ذكرها بروكلمان وهي : كتاب « سر النحو » في دار الكتب بالقاهرة و « الابانة عن معاني بسم الله الرحمن الرحيم » في مكتبة جوتا و « معاني القرآن » في مكتبة نور عثمانية بتركيا وغيرها و « حروف المعاني » في مكتبة لالي باستانبول و « الشجرة » في القيروان .

كما أنه اعتمد في الاحصائية التي عملها لكتب خلق الانسان على كتاب « المعجم العربي » للدكتور حسين نصار ( صفحة ١٢٩ وما بعدها ) دون أن يشير الى ذلك ، فنقل عبارته بنصها مع بعض الاختصار أحيانا ، وأخطأ ــ تبعا لذلك ــ فيما أخطأ فيه الدكتور حسين نصار ، مثل ١/٣٠ = ٩/٦ : « وأبو زيد الكلابي » وصوابه « وأبو زياد الكلابي » .

ثانيا ــ لم يهتم الدكتور السامرائي بالترجمة للاعلام الواردة في النص فصحف وحرف في كثير من هذه الاعلام مثل ٣/٨ : « أخبرنا الشيخ أبو طاهر أحمد بن عبدالله بن سوار المقرئ » وصوابه كما في مخطوطة دار الكتب ٢٣٤ مجاميع : « أبو طاهر أحمد بن علي بن عبيدالله بن سوار المقرىء » . وانظر ترجمته في طبقات القراء لابن الجزري ١/٨٦ رقم ٣٩٠ .

ثالثا : يظهر أن الدكتور السامرائي لم يهتم كثيرا باثبات الفروق بين نسخ خلق الانسان ، أو لعله لم ير من هذه النسخ الا أوراقها الثلاث التي لم ينشر غيرها في الكتاب كله ، والا فكيف يفسر خطؤه في ذكر الرقم وعدد أوراق نسخة دار الكتب المصرية ، اذ ذكر أنها « تحت رقم ٢٣٤ ... وعدد أوراقها ١٥ ورقة » والصواب : « رقم ٢٣٤ مجاميع ... وعدد أوراقها ١٣ ورقة » .

رابعا ــ سقط من النص كلمات وعبـــارات كاملة بسبب ما يسمى « بانتقال النظر في القراءة » وهو أن تقفز عين الناسخ من كلمة الى أخرى مثلها تماما في نفس السطر أو السطور التي بعده . ومن أمثلة ذلك :

٥/٢٢ : « واذا ألقى فيها ( أي العين ) انسان ما يقذيها ويؤذيها قيل : قذى فلان عين فلان تقـــذية » والصواب ــ كما في مخطوطة دار الكتب : « ... قيل : قذى فلان عين فلان ، واذا أخرج منها القــذى قيل قـــذى فلان ... » .

٩/٢٤ : « وفي الأنف الخنس ، وهو تأخره الى الرأس » والصواب ــ كما في مخطوطة دار الكتب : « وفي الأنف الذلف ، وهو قصره وصغره ،

يقال امرأة ذلفاء • وفي الانف الخنس ••• » •

٩/٢٥ : « يقال : جدع الله أنفه ، وعبد أكشم وأجدع » والصواب : « ••• جدع الله أنفه ، وكشم الله أنفه ، وعبد أكشم وأجدع » — كما في مخطوطة دار الكتب •

٨/٣٦ : « والتحزيز الذي يكون فيها أول ما تنبت بتحديد » والصواب كما في مخطوطة دار الكتب « والتحزيز الذي يكون في أطراف الاسنان من الشباب الذي يكون فيها أول ما تنبت بتحديد » •

٤/٣٢ : « وفي العنق الصليفان ، وهما ناحيتاه عن يمين وشمال • وفي العنق الودجان » والصواب : « •• عن يمين وشمال • واللديدان ، وهما صفحتا العنق • والسالفتان صفحتا العنق أيضا عن يمين وشمال • وفي العنق الودجان » — كما في مخطوطة دار الكتب •

٩/٣٧ : « والأنامل أطراف الاصابع الاولى من مفاصل كل الاصابع ، يقال لها : أطرة ، وجمعها أطر » والصواب : « ••• يقال لها الانامل من اليدين والرجلين جميعا • والوترة التي حول الظفر يقال لها : أطرة ••• »

١/٤٦ : « والعظمان اللــــذان فوق العــــانة » والصواب — كما في المخطوطة : « والعظمان الشاخصان مما يلي الصلب يقال لهما : الغرابان • وفي الورك الخربة وهي خرق في عرض الورك • والعظمان اللـــذان فوق العـــانة » •

خامسا : هناك عبارات وكلمات اخرى سقطت لا بسبب انتقال النظر ، بل بسبب التهاون والاهمال في مقابلة النص والعناية بتصحيحه وضبطه • وقد استدركنا ذلك بعد أن قابلنا النص على مخطوطة دار الكتب ، مثل :

١٤/٨ : « وأنا أسمع ذلك في شهر رمضان » صوابه : « وأنا أسمع • وذلك في شهر رمضان » •

١٧/٨ : « أبو محمدعلي بن عبد بن العباس » صوابه : « أبو محمدعلي ابن عبدالله بن العباس » •

٩/١٣ : « ومن الشعر الزمر رقة الشعر وقلته » : « ومن الشعر الزمر وهو رقة الشعر وقلته » •

٦/١٩ : « يقال أبلج وامرأة بلجاء » صوابه : « يقال : رجل أبلج وامرأة بلجاء » •

٧/٢١ : « قال الأصمعي القبل أشد من الحول والكمه » والصواب : « ••• أشد من الحول • قال : الحول أن يكون في احدى العينين انقلاب ، والقبل أن تقبل احداهما على الاخرى • وفي العين العمه والكمه •• » •

٨/٢٥ : « الفم جامع لجملة الشفتين والاسنان » صوابه : « الفم اسم جامع ••• » •

٢/٣٣ : « وفي العنق الجيد وهو طوله الوقص وهوداء » • صوابه « ••• وهو طوله • والوقص وهوداء » •

٥/٢٧ : « وهي الابهام ثم الوسطى ثم البنصر وهي الصغرى » صوابه: «وهي الابهام ثم السبابة ثم الوسطى ثم البنصر ثم الخنصر ، وهي الصغرى».

٣/٤٠ : « وتسمى الخاصرة وهي طفطفة الجنب » صوابه : « وتسمى الخاصرة الشاكلة وهي طفطفة الجنب » .

١/٤٥ : « والقهبلس وحرف الحشفة » صوابه « القهبلس والكمهدة وحرف الحشفة » .

١٥/٤٩ : « ما خرج عن الجسد من الخنصر » صوابه : « ما خرج عن الجسد من حد الخنصر » .

سادسا : هنـــاك بعض التحريفات التي شوهت النص ، وأضرت به كثيرا ، مثل :

٤/١٤ : « والقزع واحـدة قزعة » والصواب : « والقزع واحـده قزعة » بالهاء .

١/١٦ : « ويقال أخذ بسبلته فجزه » والصواب : « ويقال : أخـذ بسبلته فجره » بالراء .

٦/١٦ : « وخيطها الشيب » والصواب « وخيطها الشيب » .

٤/١٩ : « وكانا سابقين » والصواب : « وكانا سابغين » .

٢/٢٤ : « وما كان عن الانف » والصواب : « وما كان من الانف » .

١١/٢٦ : « وفي اللســان الشنب وهو بردهما » والصواب : « وفي الاسنان الشنب وهو بردها » .

٢/٢٨ « وفيها الروايل والواحد راوول » والصواب: « وفيها الرواويل والواحد راوول » .

٥/٢٨ : « وفي الاضراس الدرد » والصواب : « وفي الاضراس الدردر »

٤/٣٣ : « والبتع شدق العنق » والصواب : « والبتع شد العنق » .

١٠/٣٩ : « والشراسيف مناط الضلوع » والصواب : « والشراسيف مقاط الضلوع » .

٧/٤٢ : « تسمى السوداء » والصواب : « تسمى السويداء » .

٢/٤٣ : « وهي أم العظام » والصواب : « وهي أم الطعام » .

٦/٤٣ : « الحوايا وهي اسم الجميع ما تحوى الأمعاء أي استدارة » والصواب : « الحوايا وهي اسم لجميع ما تحوى من الامعاء ، أي استدار »

٧/٤٥ : « والأداف » والصواب : « والأداف » .

١٥/٤٥ : « وهو الذي يجد اللامس حسه » والصواب : « وهو الذي يجد اللامس مسه » .

١٥/٤٨ : « والســـاق مؤنثة يقـــال هما الســـاق » والصواب : « ... يقال : هي الساق » .

أما كتاب « القول في ألفاظ الشمول والعموم » للمرزوقي ، فنـــلاحظ عليه ما يلي :

أولا ـ في ترجمة المرزوقي أهمل الدكتور السامرائي الرجوع الى كتاب بروكلمان « تاريخ الادب العربي » GALSI 502 واعتمد في هذه الترجمة ـ فيما يبدو ـ على المقدمة التي صنعها الاستاذ عبدالسلام هرون لشرح ديوان الحماسة وحدها ، ولذلك نجده يذكر ـ على غير عادته ـ المخطوط من كتب المرزوقي والمطبوع ، وأرقام المخطوطات وأماكنها ، وهو ما فعله الاستاذ عبدالسلام هرون بترتيبه وعبارته • واذا كان الاستاذ عبدالسلام قد نسي كتابا للمرزوقي هو « غريب القرآن » الذي ذكر بروكلمان أن منه نسخة بالمدينة المنورة ، فلا نعجب بعد هذا اذا لم نعثر لاسم هذا الكتاب عند الدكتور السامرائي على أثر •

ثانيا ـ اعتمد الدكتور السامرائي في نشر هذا الكتاب على نسخة المتحف العراقي ١٣٩٥ لغة وحدها مع أنه يعرف أن في دار الكتب المصرية قطعة من هذا الكتاب برقم ٤١٤٠ أدب الا أنه أهمل الرجوع اليها وقال : « وأكبر الظن أن قطعة دار الكتب المصرية لا تحوي الا شيئا يسيرا من نص الكتاب ، وأن النساخ زادوا فيها القصائد الطويلة » • وقد استقى هذه المعلومات من فهارس دار الكتب • وهو وان كان على حق فيما قاله الا أن أمانة التحقيق كانت تستدعي أن يرى هذا الجزء البسيط أيضا ، لعله أن يقوم به ما اعوج من نص نسخة المتحف العراقي ، وما أكثر هذا العوج في صفحتين اثنتين ! ومن أمثلته :

٨/٧٤ : « ومنها ما يفيد الشمول في التذكير على وجه ويفيده في التعريف على وجه » والصواب : « ومنها ما يفيد الشمول في التنكير •• » كما في قطعة دار الكتب •

١٥/٧٤ : « اذا وقع لغير صلة » صوابه : « اذا وقع بغير صلة » كما في قطعة دار الكتب •

١٦/٧٤ : « ومنه ما يفارق ذلك الموضع وينتقل الى غيره ويقترن فيه ما يخصصه ويزيل الابهام عنه ولا يفيد الشمول والعموم » وصوابه ـ كما في قطعة دار الكتب : « •• ويقترن به فيه ما يخصصه ويزيل الابهام عنه ، فلا يفيد الشمول والعموم » •

١٨/٧٤ : « وقد يقع مع اقتران المخصص الكثرة والشمول » صوابه : « وقد يقع مع اقتران المخصص به مفيدا للكثرة والشمول » كما في قطعة دار الكتب •

٨/٨٥ : « هذا ما لدى عنيد » صوابه : « هذا ما لدى عتيد » (سورة ق ٢٣/٥٠ ) •

١٢/٨٥ « ويعبدون من دون الله ما لا يملك رزقا من السموات والارض شيئا » وصواب الآية : « ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا ( سورة النحل ٧٣/١٦ ) •

ثالثا ـ لم يحاول الدكتور السامرائي أن يقابل النصوص بمصادرها

المنقولة منها ، وترتب على ذلك خلط النصوص المنقولة بما ليس منها من عبارات المرزوقي ، مثل ٩٣/١٤ ( وقال سيبويه : « وهذا لفظه الجمع بالالف والتاء والواو والنون لتثليث أدنى العدد الى تعشيره ‥ ) هكذا ‥! ولو راجع الدكتور السامرائي كتاب سيبويه ٢ : ١٤١/٢٢ لعرف أن عبارة : « وهذا لفظه » ليست من كلام سيبويه ، وانما هي من كلام المرزوقي نفسه ، يريد من ورائها أنه ينقل العبارة من كتاب سيبويه بنصها ٠

وفي رسالة أبي موسى الحامض « فيما يذكر وما يؤنث من الانسان واللباس » نلاحظ ما يلي :

أولا ــ اعتمد الدكتور السامرائي على مخطوطتين متأخرتين جدا بخط الشيخ طاهر السماوي سنة ١٣٣٢هـ وترك مخطوطة الاسكوريال ١٧٠٥ وهي بخط الجواليقي العالم المشهور المتوفى سنة ٥٣٩هـ ٠ وهناك ثلاث مخطوطات أخرى لم يعرفها ولم يشر اليها ، وهي مخطوطة بايزيد باستانبول ٣١٧٨ وعاطف افندي باستانبول ٢٠٠٣ ودار الكتب المصرية ٢ مجاميع ش ٠

ثانية ــ ترجم لابي موسى الحامض ترجمة هزيلة في سطور ، ولم ير من مصادر ترجمته : الفهرست لابن النديم ، والانساب للسمعاني ، واللباب لابن الاثير ، ومسالك الابصار للعمري ، والمنتظم لابن الجوزي ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وبغية الوعاة للسيوطي ، وتلخيص انباه الرواه لابن مكتوم ، وطبقات النحويين لابن شهبة ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ٠

ثالثا ــ لم يترجم للاعلام الواردة بالنص ، ولذلك أبقى على التحريف الموجود بالمخطوطتين ، مثل ١٠٥/٤ : « أبو الحسن المبارك بن عبدالجبار بن أحمد الصيرفي » وصحتها « أبو الحسين ‥ » وانظر ترجمته في تاريخ ابن الاثير ١٠/١٥٤ ومثل ١٠٥/٩ : « عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن سعد بن ابراهيم بن سعد بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن عوف الزهري » وصوابه : « عبدالرحمن بن محمد بن عبيدالله بن سعد بن ابراهيم بن عبدالرحمن ابن عوف الزهري » وانظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٠/٢٨٩ ٠

رابعا ــ لم ينسب الدكتور السامرائي الأبيات التي لم ينسبها الحامض الى أصحابها ، مع شهرتها وورودها في كثير من المصادر المعروفة ، وذلك مثل ١٠٥/١٥ : « وقال الشاعر : والعين بالاثمد الحاري مكحول » فلم يعرف الدكتور المحقق أن هذا عجز بيت من شواهد كتاب سيبويه ١/٢٤٠ لطفيل الغنوي ، وتمامه :

اذ هي أحوى من الربعي حاجبه ... والعين بالاثمد الحاري مكحول

وهو في ديوان طفيل ق ٣/٥ ص٤٩ وشرح الشواهد للشنتمري ١/٢٤٠ والمذكر والمؤنث للفراء ١٢/١٧ والمخصص ٨٠/١٦ وعجزه في المخصص ٨٠/١٦ ، ٨١/١٦ ــ وكذلك مثل ١٠٦/٢ : « قال الشاعر :

أتتني لسان بني عامر فجلت أحاديثها عن نكر »

لم يعرف المحقق ان هذا البيت مطلع مفضلية مشهورة للمرقش الأكبر في المفضليات ق ٥٢/١ ص ٢٣٥ وهو في جمهرة الامثال ١٣٦/١ وامثال الضبي ٥٩ والاغاني ٣٤/٦ والمذكر والمؤنث للفراء ٩/١٣ والمخصص ١٢/١٧ . وكذلك مثل ٩/١٠٦ : « وانشد : ما حملت عاتقي سيفي ... » هكذا كتب الدكتور السامرائي هذا الشعر ولم يعرف انه من بيتين هما :

لا صلح بيني فاعلموه ولا بينكم ما حملت عاتقي
سيفي وما كنا بنجد وما قرقر قمر الواد بالشاهق

والبيتان لابى عامر جد العباس بن مرداس في اللسان (قمر) ١١٥/٥ (عتق) ٢٣٨/١٠ وله أو لأنس بن العباس بن مرداس في شرح شواهد المغنى ٢٠٥/١٠ وينسبان لأبى الربيس التغلبي في اللسان (ودى) ٣٨٤/١٥ وبدون نسبه في المخصص ١٣/١٧ واصلاح المنطق ٣٦٢ والمقاييس ٢٢٢/٤ والصحاح (قمر) ٧٩٩/٢ واللسان (يدي) ٤٢٠/١٥ والمذكر والمؤنث للفراء ٣/١٥ والأول غير منسوب كذلك في المخصص ١٥٩/١ والمحكم ١٠١/١ .

خامسا : سقط من النص كلمات وعبارات بسبب « انتقال النظر في القراءة » ولست أدرى ان كان ذلك قد حدث في المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما الدكتور السامرائي ، أم أن انتقال النظر قد حدث منه هو عند نسخ الرسالة لتحقيقها . وكان من الواجب أن يتنبه الدكتور الى أن النص غير مستقيم في بعض الأحيان ، فيراجع أصوله ، أو يطلب مخطوطات الكتاب الباقية ، أو ينتبه الى اضطراب العبارة ، وهذا أضعف الايمان ! فمن أمثلة انتقال النظر هذه ١٤/١٠٥ : « الرأس ذكر والهامة أنثى ، وربما ذكرت ، وفيها علل في تذكيرها . وقال الشاعر : والعين بالاثمد الحارى مكحول » اذ ليس في هذا الشاهد ذكر للرأس أو الهامة . وصواب العبارة ـ كما في مخطوطة الجواليقي : « الرأس ذكر ، والهامة أنثى ، والدماغ ذكر ، والأذن انثى ، والعين انثى ، وربما ذكرت ، وفيها علل في تذكيرها . قال الشاعر : والعين بالاثمد الحارى مكحول » . وهكذا نرى بعد تصحيح العبارة أن البيت شاهد على تذكير العين التي ورد ذكرها في النص .

٥/١٠٦ : « القمحدوة ( في النص : القحدوة وهو تحريف ) أنثى وذكر » وصواب العبارة ـ كما في مخطوطة الجواليقي : « القمحدوة أنثى ، والعنق انثى وذكر » .

٢/١٠٧ : « الضلع أنثى . الكرش أنثى » وصوابه كما في مخطوطة الجواليقي : « الضلع أنثى . الرئة أنثى . الكرش أنثى » .

٥/١٠٧ : « الأخمص ذكر . العرقوب ذكر » وصوابه ـ كما في مخطوطة الجواليقي : « الأخمص ذكر . الكعب ذكر . العرقوب ذكر » .

سادسا : وقع في النص فيما عدا ذلك بعض التصحيفات التي لم يتنبه لها الدكتور السامرائي ، وهي :

١٠٥/ ٢٠ : « والوضبة أنثى » صوابها : « والوجنة أنثى » .

١٠٦/ ٦ : « يقال ساعد عبل اذا كان ممتلئا » صوابه : « يقال : ساعد غيل اذا كان ممتلئا » اذا أن مخطوطة الجواليقي فيها بخط واضح « غيل » ، هذا الى أن المعاجم العربية تصف الساعد الممتلىء بالغيل ، أما العبل فهو الذراع الضخم ، ففي الصحاح (غيل) ٥/ ١٧٨٧ : « والغيل أيضا الساعد الريان الممتلىء » وفي مادة (عبل) ٥/ ١٧٥٦ : « رجل عبل الذراعين أي ضخمهما » .

١٠٧/ ٤ : « وهـو ما بين القلب والدبر » صوابه : « وهـو ما بين القبل والدبر » .

١٠٨/ ١ : « عن أبي عبيدة » صوابه : « عن أبي عبيد » كما في نسخة الجواليقي . والنص موجود في كتاب « الغريب المصنف » لأبي عبيد القاسم بن سلام (٣٦٠/ ١٢ من تحقيقنا) . وهـذا دليل قاطع على صحة نص مخطوطة الجواليقي هنا أيضا .

سابعا : ترك الدكتور السامرائي من نص الرسالة جزءا في خاتمتها بحجة أنه ليس مما يمت الى التذكير والتأنيث بصلة ، مع أنها عبارة عن فوائد لغوية مهمة كتبها الحامض ، بدليل وجودها في كل النسخ المخطوطة وعلى رأسها نسخة الجواليقي ، كما أنها مروية في كل النسخ عن الحامض . وكان الواجب اثباتها أداء للامانة في التحقيق .

وفي كتـاب « المسائل والاجوبة » للبطليوسي ، نلاحظ الملاحظـات التالية :

أولا ــ لم ينشر الدكتور السامرائي الا قدرا ضئيلا من هذا الكتاب القيم « يتناول ــ كما يقول الدكتور السامرائي ــ ما ينيف على مائة مسألة ، ومادة الكتاب تتضمن مسائل في النحو واللغة والأدب والتفسير والاصول » . ولسنا ندري ، لماذا حرمنا الناشر من النص الكامل لهذا الكتاب العظيم ؟ وما الفائدة في أن ينشر منه جزءا بسيطا ؟ ألكي يزداد به حجم « رسائل في اللغة » فحسب ؟

ثانيا : اعتمد الدكتور في نشرته على مخطوطة حسن حسني الصمادحي من علماء تونس ــ وحدها ، وهي حديثة الخط نسخت عام ١٢٩٩هـ بخط محمد الطيب بن ابراهيم الرياحي التونسي . ومع أن لهذا الكتاب نسختين أخريين ، واحدة في الاسكوريال برقم ١٥١٨ والاخرى في جامع القرويين برقم ١٢٤٠ فقد أهملهما الدكتور السامرائي تماما ، بحجة أنه يختار مسائل يسيرة ، وأن النسخة التونسية واضحة ، فيقول ١١٢/ ١٨ : « ولما كنت قد اخترت من هـذا الكتاب الضخم مسائل يسيرة ، ولمـا كانت نسختي التونسية جيدة واضحة ، فلم أر بي حاجة كبيرة للتوفر على احدى النسختين

الاخرين » ! وسيرى الدكتور من ملاحظاتنا هنا أن حاجته الى هاتين النسختين كانت ضرورة واجبة ، لو أنه توقف أمام النص محاولا فهمه ، ولم يخدعه حسن خط النسخة التونسية !

ثالثا : وعلى الرغم من أنه في ترجمته للبطليوسي يزعم أنه رأى كتاب بروكلمان (١١٢/١٨) ، فانه لم يعرف أن بعض الكتب التي ذكرها للبطليوسي لا يزال مخطوطا مثل كتاب المثلث ، وشرح سقط الزند للمعري ، والحروف الخمسة ، والحلل في شرح أبيات الجمل . كما أنه لم يعرف للبطليوسي كتابا آخر مخطوطا هو « الاسم والمسمى » .

وكل ذلك ذكره بروكلمان في كتابه « تاريخ الادب العربي »
(GALS1 477, 482, 785)

رابعا : وبلغ من تسرع الدكتور السامرائي وعدم تدقيقه في البحث أن يدعي في تعليقه (١٥٢ هامش ١) على أبيات ذكر البطليوسي أن أبا تمام انشدها في الحماسة لرجل من فقعس ، أنه « لم ترد الابيات في حماسة أبي تمام الى أي من الفقعسيين » ! والأبيات هي ( بعد اصلاح تحريفها ) :

| | |
|---|---|
| وذوى ضباب مظهرين عداوة | قرحي القلوب معاودي الافناد |
| ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم | وهم اذا ذكر الصديق أعادي |
| كيما أعدهم لابعد منهم | ولقد يجاء الى ذوي الاحقاد |

وهي موجودة في حماسة أبي تمام رقم ٥٧ ج ٢٢٩/١ من شرح المرزوقي ـ لا كما يدعي الدكتور من أنها غير موجودة .

وفي نفس الصفحة من كتاب « المسائل والأجوبة » ١١/١٥٢ يوجد النص التالي : « وقال ربيعة بن مقرغ في نحو من هذا الشعر ، أنشده أبو تمام :

| | |
|---|---|
| وكم من حامل لى ضب ضغن | بعيد قلبه حلو اللسان |
| ولكني وصلت الحبل منه | مواصلة بحبل أبي بيان |

وبدلا من أن يبحث الدكتور في حماسة أبي تمام عن هذا الشعر ـ وهو هناك « لربيعة بن مقروم » في الحماسية رقم ٤٠٧ ج ١٣٥/٣ من شرح المرزوقي ـ علق في الهامش على ربيعة بن مفرغ (المحرفة ) بقوله : « الصحيح هو : يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ . أنظر الخزانة ٢١٢/٢ ارشاد الاريب ٢٩٧/٧ الشعر والشعراء ٢١٩ » فأكثر الدكتور من ذكر مصادر ترجمة « ابن مفرغ » ولم يدر أنه تحريف « ابن مقروم » !

خامسا : ومقابلة النصوص بمصادرها مما يستهين به الدكتور السامرائي تماما ، فيقع لذلك في سلسلة طويلة من الاخطاء والتحريفات ، فمثلا ١٤/١٥٦ في نص نقله البطليوسي عن ابن قتيبة في « أدب الكاتب » : « واذا اجتمعت الضأن والمعز وكثرتا ، قيل لهما ثلاثلة » ولو رجع الدكتور

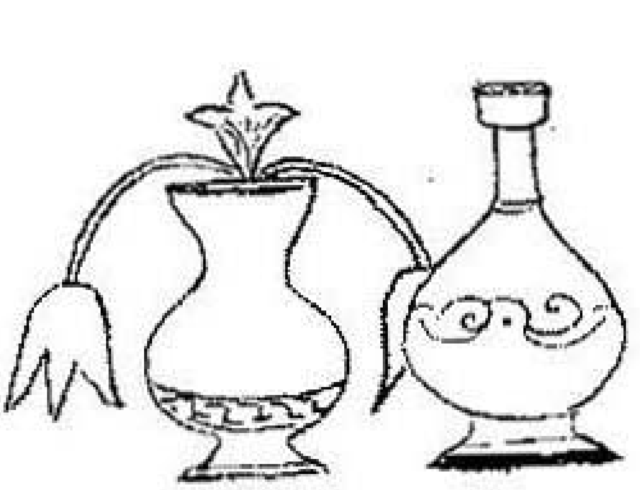
الى أدب الكاتب ١٥/٦٥ لعرف أن الصواب : « ثلة » لا « ثلاثلة » • وانظر المعاجم « ثلل » •
وفي نفس الصفحة من كتاب المسائل والأجوبة ١٥/١٥٦ : « وذكر من تكلم في الامثال أن العرب تقول في أمثالها : لا أفعل في ذلك معزى الفزر حتى تجتمع معزى الفزر » • ولو رجع الدكتور السامرائي الى كتب الامثال كمجمع الامثال للميداني ١٠٨/٢ وجمهورة الامثال للعسكري ٣٦٠/١ وأمثال الضبي ٩/٢٢ وفصل المقال لابي عبيد البكري ١١٩ ؛ ٤٠١ لعرف أن هذا المثل يقال بطريقتين ، وأن صواب العبارة : « لا أفعل ذلك معزى الفزر أو حتى تجتمع معزى الفزر » • وقد ترتب على اهماله لكتب الامثال هنا وقوعه في الاخطاء التالية :
١٨/١٥٦ : « فقال له هبيرة » صوابه : « فقال لابنه هبيرة » • وانظر مع كتب الامثال كلام البطليوسي بعد ذلك ٩/١٥٧ •
١٩/١٥٦ : « والله لا أرعاها من حسل » صوابه : « والله لا أرعاها سن حسل » •
٢٠/١٥٦ : « والله لا أسرحها العرة للفتى هبيرة » صوابه : « والله لا أسرحها ألوة الفتى هبيرة » •
٣/١٥٧ : « فاتهمها الناس » صوابه : « فانتهبها الناس » •
٣/١٥٧ : « وذكر أبو عبيدة عن ابن الكلبي » صوابه : « وذكر أبو عبيد عن ابن الكلبي » أنظر فصل المقال ١١٩ •
٥/١٥٧ : « قد انقلب المعزى ••• » صوابه : « قد انهب المعزى » •
٦/١٥٧ = ٢/١٦٨ « شبيب بن البرماء » صوابه : « شبيب بن البرصاء » •
ومن أمثلة اهمال مقابلة النصوص بمصادرها ، وما ينتج عن ذلك من الابقاء على تحريف المخطوطة ما ورد في ١٢/١٣٩ من قوله : « والثاني أن سيبويه اذا تكلم في الشواذ في كتابه فمن عادته في كثير منها قوله « ورب شيء هكذا » يريد أنه قليل نادر كقوله في باب « ما وقد » في بيت الفرزدق ••• وهذا لا يكاد يعرف كما « لات حين ( بدون ضبط ) مناص » و « رب شيء » هكذا • وهو كقول بعضهم : هذه ملحقة جديدة في القلة » • وصواب هذا النص بعد مقابلتنا اياه بكتاب سيبويه ٢٩/١ هكذا : « ••• في باب « ما وتقديم خبرها » في بيت الفرزدق ••• وهذا لا يكاد يعرف ، كما أن « لات حين ( بضم النون ) مناص » لا يكاد يعرف • ورب شيء هكذا • وهو كقول بعضهم : هذه ملحفة ( بالفاء ) ••• » •
سادسا : في النص فيما عدا ذلك الكثير من التصحيفات والتحريفات التي سببها التهاون وعدم الدقة في التحقيق ؛ مثل :
٥/١٣١ : « فلو كنت ظبيا » صوابه : « فلو كنت ضبيا » أي من قبيلة ضبة •

١٠/١٣٨ : « ابن حنيى » صوابه : « ابن جنى » .
٢/١٣٩ : « المصنف » صوابه : « المنصف » .
١١/١٤٠ : « لا أن » صوابه : « لأن » .
١٧/١٤٠ : « يا غافـل » صوابه : « يا عاقـل » . وأنظر كذلك ١٥/١٥٣ ففيه الصواب .
١٩/١٤٠ : « عن قول شعيب » صوابه : « عن قوم شعيب » .
٣/١٤٣ : « وربما خان الأمين » صوابه : « وربما خان الأمين » .
٤/١٤٣ : « هنا قد يكون » صوابه : « هذا قد يكون » .
١١/١٤٤ : « وانما أراد هاج بين حبه وحبها من الحرب » صوابه : « وانما أراد ما هاج بين حيه وحيها من الحرب » .
١٢/١٥٠ : « لا يكون لا بما كثر » صوابه : « لا يكون الا بما كثر » .
١٩/١٥٢ : « بشاجية » صوابه : « بساجية » والمقطوعة في الامالى ٦٠/٢ .
١٨/١٥٣ : « كل بطل قتل زيد » صوابه : « كم بطل قتل زيد » .

وبعد . فليس التحقيق أن تذيل الصفحات بتراجم المشهورين من الشعراء من أمثال قيس بن زهير وأعشى باهلة وحاتم الطائي وصخر أخي الخنساء وعدي بن زيد والأغلب العجلي وأبي كبير الهذلي والعجاج ، ونترك نص المخطوطة محرفا مشوها فنزيد بذلك نسخ المخطوطات نسخة جديدة !

« القاهرة »





# روضة الأرواح

زهير غازي زاهد

آن ان يطفح العبير رواحي    وتناجي الرؤى الشذية واحي
ويرف الهوى على أفقي النشوان من فكرتي ووهج طماحي
وتطوف الدنى على نظراتي    تشرب السحر من أباريق راحي
وتعب النجوم من كوخي الظامىء حلو المنى ولطف السماح
تتهادى خطى الزمان على زحمة وجدي وبارقات التياحي
ويبوح الفؤاد ما عطر الدهر شذاه بنغمتي وصداحي
همسة من بريق لمحتي السكرى بترتيلتي ونجوى صباحي
يتراءى الوجود منفتح الآفاق يصبو لروضتي وجناحي
أنا في روضة ترف عليها    خطرات الافكار والارواح

* * *

روضتي روضتي سماء تعالت    موكبا ملؤه المنى والطيوف
معبدي ركنها المعطر فالقلب غرام على رؤاها عكوف
ترتوي من عبيرها السمح روحي فهي شوق على مداها يطوف
غنوتي في رواقها فالغيوم السود لطف والصاعقات حفيف
هي زهو الحياة والخاطر العذب وظل من النعيم وريف
وطيوف المنى تموج بنفسي    حين تبدو لناظري الرفوف
فهي دنيا تطل عنها الاماني الخضر تزهو وتستسر الكشوف
فتلاوين أفقها بسمات الفجر رفت على سناها الحروف
وأماني الوجود في ضفتيها    خاطر متعب وقلب شغوف

* * *

روضتي روضتي سكونك آفـاقي ومغنى رؤاك سلوى منايـا

وحفيف الاوراق فيـك ابتهـالات خشـوع وهمهمات برايـا

يا لها جلسة على فرشك الريان بالنور بالشذا من رضايـا

يا لهـا جلسة وظـامىء أقلامي ينـاجي محـابري ورؤايـا

وبقايا دفاتري همسـات ظامئـات اذ ظل منهـا بقايـا

أفق تمـرح المنى بحفـافيه وتهفـو لمرتقـاه صبايا

مسرح الخـاطر المرفرف ينداح التياعا فيرتوي من ظمايـا

لا تحس الوجود فيه سوى خفقة حب قد وسوستها الحنايـا

لا حقود الانام ينبض عـرق لك منها ولا نشـيج الشكايـا





# حقيقة التصغير في شعر المتنبي

يوسف حسين بكار

لقد كثرت الدراسات حول المتنبي قديما وحديثا ولم تكد تغفل ناحية من نواحي فنه أو شخصيته الا ان هذا الموضوع والتصغير اعني لم ينل حظا كبيرا من اهتمام الدارسين قدامى ومحدثين سوى وقفات قصيرة عند الموضوع واشارات اليه من بعيد ، وقد لا يكون غريبا ان يتناول المرء موضوعا كهذا عند شاعر كالمتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس حتى انقسم الكتاب والادباء بسببه الى خصوم ومؤيدين مما حمل الجرجاني على تأليف كتابه « الوساطة » بين الرجل وخصومه ، وليس كثيرا على المتنبي اهتمام النقاد والباحثين ولكنني اقول – وكما قدمت – ان هذا الموضوع بالذات من فن المتنبي لم يعالج بشكل مرض ، فما موقف كل من القدامى والمحدثين اذن ؟! .



**موقف القدامى :**

لو امعنا النظر في كتاب « الوساطة » نجد ان الجرجاني لا يعرض لهذا الموضوع الا في بيت المتنبي المشهور :

أحاد ام سداس في أحاد ( لييلتنا ) المنوطة بالتناد

اما الثعالبي في « يتيمة الدهر » فبالرغم من عرضه الشامل لمحاسن المتنبي ومساوئه في شعره من شتى وجوهه الا ان التصغير لم يرد له ذكر في « اليتيمة » . والذي يبدو ان أول من تنبه الى هذه المسألة من القدماء بشكل اثار الاهتمام الاديب الحلبي علي بن منصور المعروف « بابن القارح » في رسالته لابي العلاء المعري التي كانت سببا في ظهور رسالة الغفران ، فقد اشار ابن القارح في رسالته الى بيت المتنبي :

أذم الى هذا الزمان « أهيله » فاعلمهم فدم واحزمهم وغد

وقال بان المتنبي قد صغرهم تصغير تحقير غير تكبير وتقليل غير تكثير الا انه لا ينكر على المتنبي استعمال التصغير لانه كما يقول « سائغ في مجاز الشعر وقائله غير ممنوع من النظم والنثر » ولكنه عاب على المتنبي وضسع

هذا التصغير في غير موضعه لان زمانا ساعده على لقاء سيف الدولة لا يستحق ان يطلق على أهله الذم كما ان ابا الطيب يشكو عاقلا ناطقا الى غير عاقل ولا ناطق . وقد كان على المتنبي الا يقع في مثل هذا[1] . ولكن ابا العلاء رد عليه فقال « كان الرجل ــ المتنبي ــ مولعا بالتصغير لا يقنع من ذلك بخلسة المغير ... »[2] واورد في رسالته أمثلة على التصغير في شعر المتنبي غير الذي ذكره ابن القارح ليدلل على رأيه الا انه لم يستوفها جميعا ولا تثريب عليه لانه لم يقصد الى الحصر وانما أراد الاستشهاد والتدليل فقط . ويفسر أبو العلاء وجود التصغير في ديوان المتنبي ويرده الى عادة صارت عنده كالطبع ، ويستشف من كلامه انه عده عيبا لانه يقول « ولا ملامة عليه ، انما هي عادة صارت كالطبع فما حسن بها مألوف الربع ولكنها تغتفر مع المحاسن والشام قد يظهر على المراسن ... »[3] . ثم يعود أبو العلاء للاجابة عن سؤال ابن القارح حول كلمة « اهيل » المصغرة فيقول ان المتنبي انما قال هذا البيت في قصيدة مدح بها علي بن محمد بن سيار بانطاكية قبل ان يمدح سيف الدولة ومهما يكن فان الشعراء مطلق لهم ذلك وما هم الا كما وصفهم القرآن في كل واد يهيمون .

## موقف المحدثين :

ذلكم هو موقف القدماء ، فما موقف المحدثين ؟ الاستاذ عباس العقاد ــ رحمه الله ــ أول من كتب في الموضوع متأثرا أو مدفوعا ــ كما يظهر ــ بما قرأه في رسالة ابن القارح ورد المعري عليه فكان ان اختار « ولع المتنبي بالتصغير » عنوانا لمقال نشره في المجلات أولا ثم اثبته فيما بعد في كتابه الموسوم بـ « مطالعات في الكتب والحياة » ، ومذهب العقاد في مناقشة ولع المتنبي بالتصغير مذهب غريب حقا حيث انه يرجعه الى عادة في الطبع والخلق معا ويذهب في تفسيره ودواعي استعمال المتنبي له مذاهب نفسية لا تعدو شعور المتنبي بالعظمة التي استدل عليها العقاد من شعره ومرجع هذه العظمة عند العقاد شيئان : الاول كثرة المبالغة والتهويل والتضخيم في شعر المتنبي ، والثاني ولع المتنبي بالتصغير[4] ، وراح العقاد يستدل على كلامه هذا بأمثلة من شعر المتنبي تدل على شعوره بالعظمة والترفع كقوله في تهنئة كافور :

انما التهنئات للاكفاء ولمن يدني من البعداء

وكقوله :

وفؤادي من الملوك وان كا ن لساني ؟ من الشعراء

ولكن العقاد في الاستشهاد على الشطر الثاني من ادعائه يكتفي بايراد ما ورد في شعر المتنبي من تصغير يفيد التحقير فقط وقد نسي أو تناسى ان في شعر

الرجل تصغيرا غير الذي اورد وفي غير التحقير كالتعظيم والتحبب والشفقة والاستلطاف وغيرها فاين قول المتنبي :

اذا عـذلوا فيهـا اجبت بأنة (حبيبتنا) قلبا فؤادا هيا جمل

واين قوله :

ظللت بين ( أصيحابي ) اكفكفه وظل يسفح بين العذر والعذل

وقوله :

أيا ( ما أحيسنها ) مقلة ولولا الملاحـة لم أعجـب

وقوله :

فأرهقت العـذارى مردفات واوطئت (الأصيبية) الصغار

كل هذه الاقوال وغيرها قد غض عنها العقاد الطرف فلا تجد لها عنده ذكرا وهي لا تدل على التحقير من قريب أو من بعيد ، وقد أشار المتنبي نفسه الى ان استعمال ( لبيله ) مصغرة في شعره قد قصد بها التعظيم ، فكان على الاستاذ اذن الا يغفل عما ورد عند المتنبي من تصغير لا يراد به التحقير وان يتنبه الى المعاني الاخرى التي يخرج اليها التصغير ، ومن الحق ان نشير الى ان الدكتور المرحوم محمد مندور قد تعرض لصنيع العقاد هذا وعده من قبيل المغالطة كما أخذ عليه أيضا وقوفه عند تصغير التحقير فقط ، يقول مندور « والتصغير يعد من أدوات الهجاء الفنية ونحن لا نرى في استخدامه في هذا الغرض أي دليل على الكبر والا لكان الهجـاء نفسه أدل على تلك الصفة .. »(٥) ، وهذه حجة قوية والتفاتة بديعة يضاف اليها ان العقاد بنى رأيه أو مغالطته ــ على حد تعبير مندور ــ على شيء ثابت في أخلاق المتنبي لا يحتاج الى استنتاج نفسي ، ومما يراه مندور أيضا ان كان على العقاد « ان يفصل بين ما يجب ان نعتبره مجرد اداة فنية وبين ما يمكن ان تكون له دلالة نفسية ولو انه فعل ذلك لكان اقرب الى الصواب منه عندما يأخذ حقيقة نفسية معروفة عند المتنبي ثم يحاول ان يفسر بها التصغير ، فيأتي بمغالطة خطيرة يصعب ادراكها لاستنادها الى صفات خلقية ثابتة عند الشاعر والمغالطة بعد كامنة في ايجاد علاقة بين الامرين وهو لا يكتفي بالمغالطة بل يضيف الى ذلك المصادرة على المطلوب فيزعم ان كل تصغيرات المتنبي يقصد بها التحقير »(٦) .

وليس بفائتي ان أقول ان الدكتور شوقي ضيف قد فطن الى مظهر استعمال التصغير عند المتنبي وحاول ربطه بأساليب الصوفية حيث يكثر هذا النوع في شعرهم وبخاصة عند ابن الفارض في ( تائيته ) حيث يقول مثـلا :

يا أهيل الود اني تنكرو     ني كهلا بعد عرفاني فتي

ولكن الذي نستغربه هو كيف ان الدكتور اجاز ان يتأثر المتنبي بابن الفارض وهو سابق له وحسبنا ان الدكتور نفسه قد انتبه الى هذا فقال « هذه مقدمة لا تسوغ نتيجتها اذ المعقول ان يكون الفارض تأثر اسلوب المتنبي لانه متأخر عنه »(٧) • وعليه فان الدكتور شوقي يرى ان ما ذهب اليه العقاد اقرب مما يذهب اليه هو ولكن هذا لم يمنعه في ان يقول فيما ذهب اليه العقاد قولا مقاربا لقول مندور •

**النتيجة :**

مما تقدم يلاحظ ان هذا الموضوع لم يستوف وقد ركز اكثر الذين تناولوه على جوانب معينة ولكنني هنا استوفيت كل مواطن التصغير في ديوان المتنبي ( شرح العكبري ) لابين أن كان للتصغير عنده أكثر من معنى وان كان التحقير أكثرها واليك هذه المواطن مرتبة بحسب كثرتها :

أولا :

التحقير ، وقد ورد فيما يلي :

قال أبو الطيب :

اذم الى هذا الزمان « أهيله »     فأعلمهم فدم واحزمهم وغد(٨)

وقال :

من لي بفهم ( أهيل ) عصر يدعى     ان يحسب الهندي فيهم باقل(٩)

وقال :

أفي كل يوم تحت ضبني (شويعر)     ضعيف يقاويني قصير يطاول(١٠)

وقال في ذم كافور :

اولى اللئام ( كويفير ) بمعذرة     في كل لؤم وبعض العذر تفنيد(١١)

كما قال في ذمه أيضا :

ونام ( الخويدم ) عن ليلنا     وقد نام قبل عمى لا كرى(١٢)

وقال في هجائه أيضا :

أخذت بمدحه فرأيت لهوا     مقالي ( للأحيمق ) يا حليم(١٣)

وقال في هجاء قوم توعدوه :

( وليد ) أبي الطيب ما لكم     فطنتم الى الدعوى وما لكم عقل(١٤)

وقال :

يستعظمون ( أبيـاتا ) نأمت بهـا    لا تحسدن على ان نيأم الاسد[١٥]

وقال :

وكـان ابنـا عـدو كـاثراه    لـه ياي حروف ( أنيسيان )[١٦]

فقد اجاد المتنبي في هذا التشبيه فهو يخاطب عضدالدولة قائلا له بان عدوك الذي له ولدان يكاثر بهما ما هما الا كيائي ( أنيسيان ) الزائدتين ٠

وقال في هجاء اسحق بن ابراهيم الاعور :

اترى القيادة في سواك تكسبا    يا ابن (الاعير) وهي فيك تكرم[١٧]

وآخر مواطن هذا النوع قول ابي الطيب :

ارادت كـلاب ان تقـوم بدولـة    لمن تركت رعي (الشويهات) والابل[١٨]

فهو لم يكتف بتحقيرهم عندما وصفهم برعاة الماشية ولكنه زاد في التحقير بقوله رعى الشويهات ٠

ثانيا :

التعظيم :

في ديوان المتنبي أمثلة على تصغير التعظيم وردت في ثلاثة مواضع فقط ، وهذا النوع من التصغير عندي أكبر دلالة على التعظيم نفسه لان معناه أقوى ولانه على صغره عظيم الفائدة كبير الاثر قوي المعنى ٠ قال أبو الطيب :

أحاد ام سداس في احاد    ( لييلتنا ) المنوطة بالتنـاد

وقد صارت لهذا البيت شهرة عظيمة واثيرت حوله مناقشات كثيرة ، يرى ( العكبرى ) احد شراح ديوان المتنبي ـ الذي اعتمدناه ـ ان قوله ( لييلتنا ) بالتصغير انما هو تصغير تعظيم وتكبير واخذ يستشهد على هذا بأمثلة منها :

(١) قول الرسول الكريم لعائشة : « يا حميراء » ٠

(٢) قول لبيد العامري :

وكل اناس سوف تدخل بينهم    ( دويهية ) تصفر منها الانامل

(٣) قول الآخر :

فويق جبيل شامخ الرأس لم يكن    لتبلغـه حتى تكـل وتعمـلا

وفي ( وساطة ) الجرجاني كلام طويل حول بيت المتنبي المتقدم يهمنا منه ان المتنبي نفسه قال ان التصغير ( ليلة ) على ( لييلة ) تصغير تعظيم واستشهد ببيت لبيد السابق[١٩] ٠

وفي معنى التعظيم أيضا قال أبو الطيب :

فظلت بين ( أصيحابي ) اكفكفه وظل يسفح بين العذر والعذل(٢٠)

وقال :

فتى الف جزء رأيه في زمانه اقل (جزيء) بعضه الرأي اجمع(٢١)

فأي مدح وتعظيم اكثر من هذا المدح ، فالممدوح عند المتنبي له من الرأي الف جزء واقل جزئي منها بعضه الذي في ايدي الناس كلهم ٠

ثالثا :

التحبب والاستلطاف :

وفي شعر المتنبي ما يندرج تحت هذا الباب وهو في خمسة مواضع :

قال أبو الطيب :

أيا ( ما احيسنها ) مقلة ولولا الملاحة لم اعجب(٢٢)

فقد صغر صنيعة التعجب ( ما احسن ) والمناسبة ان الشاعر قد استحسن عين باز فقال ( ما احيسنها ) وهذا التصغير ينم عن المبالغة في الاستحسان(٢٣) ٠

وقال :

أ ٠٠ ذا الغصن ام ذا الدعص ام انت فتنة

و (ذيا) الذي قبلته البرق ام ثغر(٢٤)

فقوله ( ذيا ) تصغير اسم الاشارة ( ذا ) وهو تصغير شاذ كما في كتب الصرف ٠ يقول العكبرى ان هذا التصغير تصغير محبة وشفقة ، اما أبو الفتح ابن جني فيقول ان الشاعر اراد بالتصغير هنا صغر اسنانها ، وقال الواحدي ( احد شراح الديوان ) لان ثغرها محبوب عنده قريب من قلبه ٠

وقال :

اذا عذلوا فيها اجبت بأنة (حبيبتا) قلبا فؤادا هيا جمل(٢٥)

فقد صغر الحبيبه للتقرب من قلبه ، ومثال هذا قول الشاعر :

يا ابن امي ويا ( حبيب ) نفسي انت خلفتني لدهر شديد

ومن هذا النوع أيضا قوله :

فأرهقت العذارى مردفات واوطئت ( الاصيبية ) الصغار(٢٦)

فقد صغر ( صبية ) على ( أصيبيه ) زيادة في الشفقة والعطف والترحم ٠

وآخر أمثلة هذا النوع قوله :

لا يحرم البعد اهـل البعـد نائله     وغير عاجزة عنه ( الاطيفال )(٢٧)

وفي هذا البيت مدح كثير اذ يصف بر ممدوحه انه يعم القريب والبعيد والكبير والصغير فهو عام لا خاص .

وهناك نوع آخر من معاني التصغير عند المتنبي وهو مايسميه الصرفيون ( تصغير ما يتوهم بعده ) ، وقد ورد عند شاعرنا في موضع واحد فقط ، قال :

وكنـت قبيـل المـوت استعظـم النـوى
فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى(٢٨)

فمعنى ( قبيل الموت ) زمان متقدم على الموت صغير المقدار وهذا التصغير لما كان من مسافة ( الشاطبية ) هو تقليل لزمانه المتصغر ويجب ان ان المدة الزمنية ليست كثيرة ويقال مثل هذا في تصغير الجهات السمت أيضا .

وبعد .. فهذه هي حقيقة التصغير في شعر المتنبي وتلكم هي انواعه ومعانيه كما عرضتها وبحسبي انني تتبعتها في ديوانه ، ولكل وجهة هو موليها .

---

(١) رسالة ابن القارح ، ص ٢٨ ( ضمن رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطيء ط٣ ، ١٩٦٣ ) .
(٢) رسالة الغفران ، للمعري ، ص٤١٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص٤١٥ .
(٤) راجع : مطالعات في الكتب والحياة ـ العقاد ١٢٤ـ١٢٩ .
(٥) النقد المنهجي عند العرب ـ محمد مندور ، ص٣٠٠
(٦) المرجع السابق نفسه ، ص٣٠٠ .
(٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، ص٣٢٦ .
(٨) ديوان المتنبي (شرح العكبري) ٣٧٤/١ .
(٩) الديوان ٢٦٠/٣ باقل رجل يوصف بالعي من العرب يضرب به المثل .
(١٠) الديوان ١١٧/٣ .
(١١) الديوان ٤٦/٢ .
(١٢) الديوان ٤٦/١ .
(١٣) الديوان ١٥٢/٤ .
(١٤) الديوان ٢٦٢/٣ .
(١٥) الديوان ٣٧٢/١ ، وتأم الاسد زآر اشارة الى انه كالاسد في شجاعته .
(١٦) الديوان ٢٦١/٤ والبيت من قصيدته المشهورة في مدح عضدالدولة :

مغاني الشعب طيبا في المغاني     بمنزلة الربيع من الزمان

(١٧) الديوان ١٣٠/٤ .
(١٨) الديوان ٢٩٥/٣ .
(١٩) الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ الجرجاني ، ص ٤٧٠ .

(٢٠) الديوان ٣/٧٥ ·

(٢١) الديوان ٢/٢٤٢ والبيت من قصيدة مدح بها علي بن أحمد الخراساني مطلعها :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا　　فلم ادر أي الظاعنين اشيع

(٢٢) الديوان ١/١٤٧ ·

(٢٣) يلاحظ هنا ان المتنبي قد خرج على شروط التصغير المعروفة من حيث انه لا يجوز تصغير الفعل أو شبهه ·

(٢٤) الديوان ٢/١٢٢ ·

(٢٥) الديوان ٣/١٨٢ و ( جمل ) اسم من اسماء العرب كخليل وهند وسلمى وغيرها ·

(٢٦) الديوان ٢/١٠٦ وقوله ( أصيبية ) تصغير شاذ والقياس ( صبية ) وهكذا نجد المتنبي قد استعمل كثيرا من شواذ التصغير في شعره ·

(٢٧) الديوان ٣/٢٨٣ ·

(٢٨) الديوان ٤/١٠٦ ·

## أهم المراجع :


(١) ديوان المتنبي ( شرح العكبري ) ضبط مصطفى السقا وجماعته · الطبعة الثانية ١٩٥٦ ·

(٢) رسالة الغفران ، للمعري · تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء · طبعة دار المعارف · الطبعة الثالثة ١٩٦٣ ·

(٣) رسالة ابن القارح ( منشورة ضمن رسالة الغفران السابقة ) ·

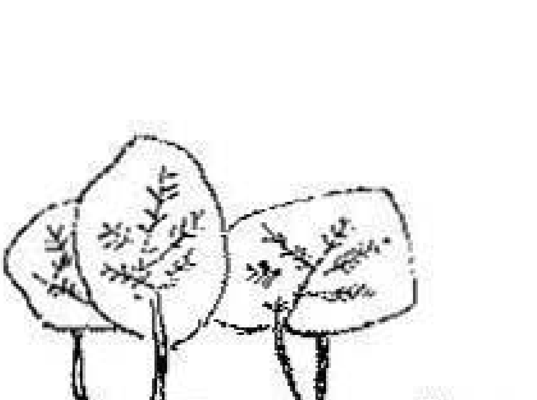
(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه · للجرجاني · تحقيق محمد ابو الفضل وزميله · طبعة الحلبي الاولى ١٩٤٥ ·

(٥) النقد المنهجي عند العرب · الدكتور محمد مندور · مطبعة نهضة مصر ١٩٤٨ ·

(٦) مطالعات في الكتب والحياة · عباس العقاد · المطبعة التجارية ١٩٢٤ ·

(٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي · شوقي ضيف · الطبعة الرابعة ١٩٦٠ ·



# الخط على العملة الاتابكية

محمد باقر الحسيني

لاشك في أن الفن الاسلامي هو أعظم الفنون قاطبة الذي استخدم الخط كعنصر زخرفي في الآثار الفنية وغيرها(١) ولا نجد خطا اكثر توفيقا في تشكيل المجموعات الزخرفية من الخط العربي ، فحروفه أصلح من غيرها لهذا الغرض بما فيها من استقامة وانبساط وتقويس ، والخطوط العمودية والافقية في هذه الحروف يسهل وصلها بالرسوم الزخرفية الاخرى وصلا يتجلى فيه الجمال والاتزان والابداع(٢) ، ومن حسن الحظ ان الفنان المسلم قد عوض ما فقده في الاتجاه الى ميدان تصوير الكائنات الحية بالاهتمام الى الزخارف الكتابية ، فكان الخط العربي ميدانا رائعا أبرز فيه الفنان براعته في مختلف التحف الاسلامية سواء في العمائر او الفنون الفرعية الاخرى حتى أصبح لكل أقليم من أقاليم العالم الاسلامي أسلوبه في الخط والزخرفة بحيث يمكن ان تنسب التحف الاسلامية الى العصر أو الاقليم في ضوء دراسة العناصر الكتابية وبقدر ما للكتابة العربية من شأن عظيم في اعتبارها اساسا لتاريخ العمائر والتحف التي تضم هذه الكتابات الا انها في ميدان النقود تعتبر وثائق رسمية الى جانب كونها عناصر زخرفية .

لقد كانت الخطوط العربية في فجر الاسلام محدودة ، ولعلها تنحصر في الخطوط اللينة او المدورة او المرسلة التي تستعمل في أعمـال التدوين العادية والمكاتبات ، والخط الكوفي ذو الزوايا الذي استعمل في كتابة المصاحف وكتابات النقود وصنع السكة(٣) والاختام ، كما استعمل في العمائر وشواهد القبور وسائر الكتابات التذكارية(٤) وهكذا لعب الخط الكوفي دورا هاما لا سبيل الى انكاره في العصور الاسلامية الاولى ، حتى حل محله نوع اخر من الكتابات النسخية التي ظهرت منذ القرن الثاني عشر الميلادي تقريبا(٥) ولكن الملاحظ في التحف الاسلامية منذ فجر الاسلام أنها كانت كتابات بسيطة حتى القرن الرابع الهجري ( ١٠ م ) لا توريق فيها ولا تعقيد ولا ترابط بين الحروف ، ثم بدأ الفنان المسلم بعد ذلك يبتكر كثيرا من الزخرفة النباتية التي تتصل ببداية الحروف ونهايتها ، وكذلك أرضها حتى شاع استعمال الخط النسخي ، واذا حاولنا خلال هذا البحث أن تدرس الكتابات على العملة الاتابكية نجد أنفسنا أمام موسوعة كبيرة او متحف بذاته يعرض نماذج متعددة من الكتابات الكوفية والنسخية .

تعتبر الكتابات المنقوشة على العملة الاتابكية من الموضوعات المهمة في دراسة انواعها خصوصا وأنها ازدهرت في القرنين الخامس والسادس الهجريين ( ١١ ــ ١٢م ) وأصبحت لها قواعدها الخاصة ، ولست أريد في هذا البحث أن اشرح تاريخ هذه الكتابات ونشأتها حتى وصلت الى اشكالها الحالية ، وانما أريد أن أعرض الكتابات الواردة على هذه العملات الخاصة بموضوع البحث ( العملة الاتابكية ) محاولا بنفس الوقت الدخول فيه من بابه حتى أكون قد وفقت في دراسته خطوة خطوة ، كما أني رأيت من المفيد جدا أن اقارن هذه الكتابات المنقوشة على العملة الاتابكية مع الكتابات على الحجر والخشب والمعادن في جدول خاص حتى يمكن أن يتبين التشابه والاختلاف بين الخطوط المعاصرة على مواد متعددة وهل اختلفت بالنسبة لطبيعة المادة التي نقشت عليها أم تشابهت لانها أخذت المظهر الفني السائد في عصر واحد ، واتماما للفائدة لدراسة مقارنة الكتابات على العملات الاتابكية والتي سبقتها من العملات العباسية ، أتممت الجدول المرفق[٦] عن تطور الحروف العربية الذي نشره الدكتور عبدالرحمن فهمي في كتابه صنج السكة[٧] فيما بعد القرن الثالث الهجري حتى الربع الاول من القرن السادس[٨] وهي بداية الفترة التي قمت بدراستها ، وعلى ضوء هذه الجداول التطورية التي قمت بدراستها من واقع السكة الاسلامية يتضح تماما خصائص الكتابات في نقود الدولة الاتابكية .

لقد توصلت بعد هذه الدراسة للكتابات المنقوشة على العملات الاتابكية المختلفة من ( الذهب والفضة والنحاس ) الى افتراض ان الفنان أو النقاش على وجه التحديد الذي نقش هذه الكتابات على قوالب السكة النحاسية في العصر الاتابكي قليل الخبرة في اللغة العربية وبقواعدها وكتابة خطها ، وربما لانه لا يجيدها أو حتى غريب عنها ، فنرى مثلا علاوة على رداءة الخط ان الحروف تتصل مع بعضها البعض في معظم الكلمات ( وهذا غير موجود بالنسبة للعملات النحاسية العباسية ) الى درجة يصعب على الدارس قراءتها ، بالاضافة الى ذلك عدم تناسب الحروف بعضها مع

بعض مثل بدرالدين ١)  وزمين بنت ٢)  وخداوند

٣)  ، اما الاخطاء النحوية فهذه صفة ملازمة في معظم الكتابات الاتابكية سواء في :

أ ــ باضافة حروف زائدة الى الكلمة مثل ( بالمموصل ) أي بالموصل

٤) 

ب ــ او نقص حروف في الكلمة مثل ( المومن ) اي المؤمنين ، و ( عثما )

( المومى ) و ( تمما ) ٠ (٥) المومـ...ما

كما نلاحظ في النصوص المنقوشة على العملة الاتابكية كلمات لا يمكن قراءتها بسهولة الا اذا قرأت جملة مثل أمير المؤمنين ) [illegible]

واحدى وخمسماية ) [illegible] وخمسماية ) [illegible] والدرهسم

(٩) الدر ) ، أو نرى حذف كلمة أو اكثر من النصوص المنقوشة على العملة

مثل رسول الله من الجملة ( لا اله الا الله محمد ) وحذف ثمانين من سنة الضرب ( واحد وخمسماية ) ، او نقرأ اسم ملك كتب خطا عزالدين مسعود جاء خطأ ( عزالدين موديد ) وسنة الضرب ستماية جاءت ( خمسماية ) والعدد تسعة جاء خطأ ( تسعين ) ٠

واذا تركنا النقاش الى غيره من موظفي دار السك الاتابكي لجال في خاطرنا نقطة أخرى ، وهي كيف سمح مشرفو دار السك ( أو الضرب ) بأعتماد النماذج الاولى لهذه المجموعات في السكة الاتابكية ٠٠ ؟

من البديهي أن أنتاج الاف القطع من نوع واحد يحتاج أول الامر الى اعداد القوالب الخاصة به وأجراء تجربة مبدئية على كتابات هذه القوالب ، ولن نرمي هؤلاء المشرفين بالغفلة عما ورد في هذه القوالب التي ضربت بها المسكوكات بقدر ما نفرض أن هيئة الموظفين في هذه الدار لم يكونوا عربا أو على الاقل يتقنون العربية ، وربما كانت العملات العباسية بانواعها التي ضربت في أقاليم أخرى غير أتابكية معاصرة لفترة الدولة الأتابكية[٩] أو قبلها[١٠] أو بعدها[١١] ربما كانت هذه المسكوكات وما عليها من نقوش عربية متقنة دليلا قويا يقوم ليؤكد ما نعرضه بشأن السكة الاتابكية ، فمسكوكات العباسيين ضربت بقوالب نقش كتاباتها نقاش خبير في اللغـة العربية وان كانت هذه المسكوكات أو تلك فانها تحت اشراف الخلافة أو وزرائها أو قضاتها أو أشهر كتابها[١٢] ٠

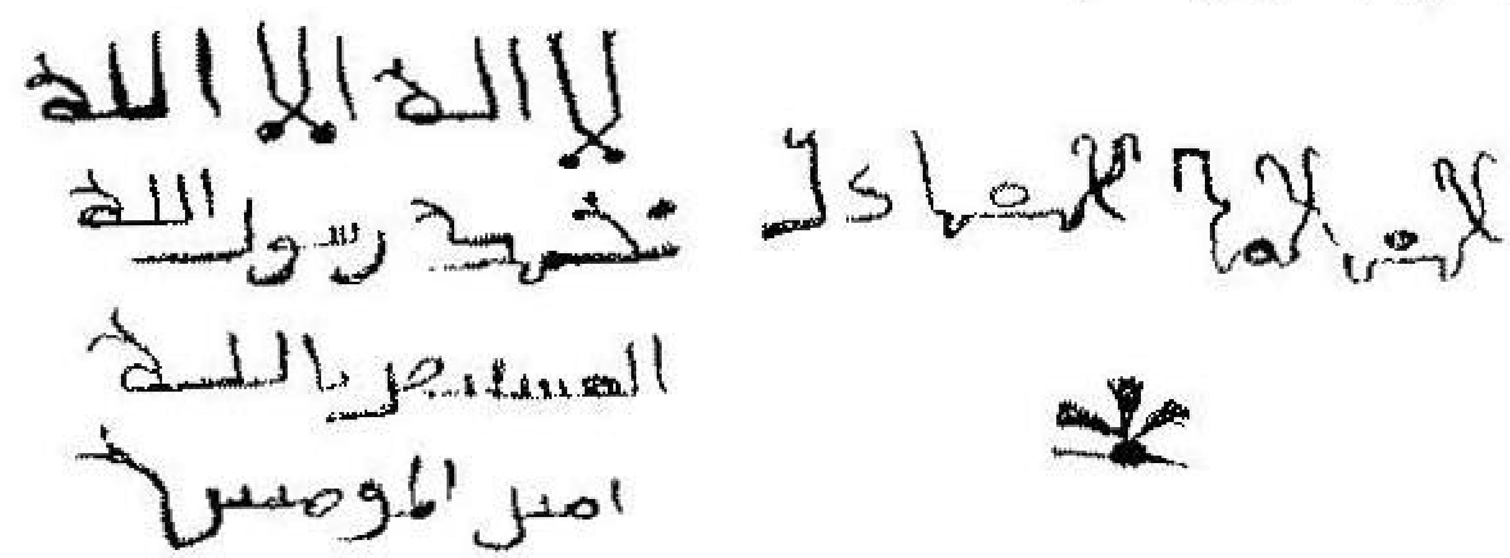
ولكن ثمة ملاحظة أخرى بالنقود الاتابكية وهي أن عملاتهم من المعادن النفيسة ( خاصة الذهب ) قد نقشت كتاباتها بدقة ملموسة ( الآماندر ) بل لا تعدو الحقيقة اذا قررنا انها تتشابه ونقود العباسيين التي ضربت في مدينة السلام والتي سبقت أو عاصرت نقود الاتابكية ، ولكن ثمة سؤال يفرض نفسه علينا ألا وهو ٠٠٠ ما هي اسباب هذا التشابه ؟ هل كانت نقود الدولة الاتابكية الذهب تضـــرب لحسابهم وباسمائهم في العاصمة العباسية ٠٠ ام كان الخليفة العباسي فيضوء حقه في ضرب السكة الذهب باسمه يتمسك بتطبيق هذا الحق على الاتابكيين أنفسهم فيرسل الى حكامهم قوالب الدنانير التي يضربون بها نقودهم ؟

أن مسألة اعتراف أتابكة الموصل والجزيرة وسنجار والشام وأربل بالابقاء على العلاقات الروحية مع الخليفة العباسي مسألة مؤكدة تاريخيا(١٣) فليس بعيدا أن ترتبط هذه الرغبة في ضرب الدنانير الاتابكية باسماء الملوك الاتابكيين واسماء الخلفاء العباسيين والقابهم في عاصمة العباسيين أنفسهم، ومسألة ضرب اقليم لنقوده في بلد آخر مسألة مقطوع بها في القديم والحديث وقد أشار الاستاذ ( يونجفلاش )(١٤) الى أن ضرائب أفريقية والاندلس وغيرها من الاقاليم كانت تضرب في واسط ( العراق ) في العصر الاموي حتى سنة ١٣٦ هـ ( ٧٤٣م ) على الاقل ، كما ان مصر نفسها حتى سنة ١٩٥٢م اى قبيل ثورتها كانت سكتها تضرب في بريبوريا ( جنوب أفريقيا ) وبرمنكهام ( أنجلترة ) وباريس ( فرنسا ) وبومبى ( الهند ) رغم أن هذه النقود كان يسجل عليها ضرب في مصر(١٥) .

اما نوعية الخط المنقوش على العملات الاتابكية فهو الخط الكوفي(١٦) بانواع مختلفة منه(١٧) .

**النوع الاول** : الخط الكوفي ذو النهايات المتطورة ويمتاز بأن قمة حروفه تحلى بخط قصير مثل الواو في كلمة رسول أو بخطين كما في كلمة المستنجد (( المستنجد )) أو ثلاثة خطوط كما في كلمة المستضيء (( المستضيء )) أو بمثلث مثل اللام في كلمة العادل أو بدائرة مثل الراء (( ر )) في ناصر .

**النوع الثاني** : الخط الكوفي المورق(١٨) الـذي لعب دورا كبيرا وملموسا في العملات الاتابكية بانواعها ( الدنانير والدراهم والفلوس ) وغالبا ما نرى هذا التوريق في نهاية الكلمة او السطر أو السطور المنقوشة في مركز الوجه أو الظهر بحيث تكون في مجموعها زخرفة جميلة كما هو واضح في الجمل التالية .



ولم يقتصر التوريق في نهاية الكلمة وانما ظهر في وسطها كما في كلمة محمد من السطر الثاني المار الذكر أو أولها كما في حرف الراء من كلمة رسول من نفس السطر ٠

**النوع الثالث** : الخط الكوفي المزهر أو المزدهر(١٩) ٠ لا يقل هـذا النوع من الخط اهمية واستعمالا على العملات الاتابكية من الخط الكوفي المورق والهندسي المتطور المار الذكر ٠ ولكن يمتاز بان الازدهار فيه لم يكن لدرجة يشمل حيزا كبيرا من الفراغ الموجود بين الحروف ، وانما كان بسيطا الى درجة يمكن بانه في بداية ازدهاره ، اللهم الا في بعض العملات النادرة التي ظهرت في عهد اتابكية الشام زمن الملك الصـالح ٥٦٩ ــ ٥٧٧ هـ واتابكية الموصل زمن مسعود الاول ٥٧٦ ــ ٥٨٩ هـ حيث تشعبت الفروع مكونة ثلاثة اوراق مع بعضها البعض كما في حرف الميم مـن كلمـة الملك مثلا ٠

**النوع الرابع** : الخط الكوفي المظفور(٢٠) ٠ لقد أقتصر ظهور هذا النوع من الخط على عملات عمادالدين زنكي ( اتابك سنجار ) التي ضربت في النصف الثاني من حكمه ٥٦٦ ــ ٥٩٤ هـ ويمتاز هذا الخط بان التظفير فيه جاء بسيطا وليس معقدا لبعض الحروف القائمة في الكلمة مثل العالـم العادل

وفي ختام هذا البحث أقول ان هـذه الانواع من الخطوط لم تكن الوحيدة التي سجلت بها نصوص وعبارات النقود الاتابكية ، **بل كثيرا ما** تصرف الفنان في الخروج عن قاعدة الكوفي المزهر والمورق والمجدول وغيره الى التلين بحيث ظهر طراز من الكتابة أقرب ما يكون الى الكتابات النسخية التي شاع ظهورها في العالم الاسلامي وخاصة في مصر والشام في القرن الثاني عشر الميلادي ، ولم يكن يقصد الفنان في تسجيل الحروف الليـنة مظهرا زخرفيا للنقد فحسب بل أن النصوص الرسمية التي تسجل اسم الحاكم والقابه وتاريخ ضرب العملة ومكان ضربها كانت بهذا النوع من الخط ٠

(١) لم يكن المسلمون أول من استعمل الخط كزخرفة ، فقـد سبقهم الى ذلك أهل الشرق الاقصى ، كما عرفه الغربيون في العصور الوسطى ، ولكن ليس ثمت فن استخدم الخط في الزخرفة بقدر ما استخدمه الفن الاسلامي ( زكي محمدحسن ــ فنون الاسلام ــ ص٢٣٤ ) ٠

(٢) زكي محمدحسن ــ فنون الاسلام ــ ص٢٣٤

(٣) عبدالرحمن فهمي ــ صنج السكة ــ لوح رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) زكي محمدحسن ــ فنون الاسلام ــ شكل رقم ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٧٥

(٥) يذكر الاستاذ ديماند في كتابه ــ الفنون الاسلامية ــ ص٧٧ ما نصه ( ومنذ القرن الحادي عشر قل استخدام الخط الكوفي في كتابة القرآن وحل محله تدريجيا خط النسخ ، ومع ذلك فقد استمر الخط الكوفي مستعملا حتى زمن متأخر في كتابة عناوين السور ، وبلغ خط

النسخ غاية نموه في النصف الاول من القرن الثاني عشر أي قرب نهاية الدولة الفاطمية .
(٦) انظر جدول تطور الحروف المرفق .






(٧) عبدالرحمن فهمي – صنج السكه – انظر جدول تطور الحروف المرفق بالكتاب .
(٨) لقد أورد الاستاذ (J. Walker) في كتابه
(Cat. of the Arab-Sassanian-Land 1941)
الجدول الوارد في ص C/IV . لتطور الكتابات والحروف الواردة على السكة الاموية والعباسية ، نراه في القسم الخاص في السكة العباسية قد اورد التطور دون تحديد فترة تاريخية له مما قد يتوهم معه الباحث أن هذه هي خصائص الحروف العربية على السكة العباسية لكل الفترات التاريخية ، ولكن الواقع وبمراجعتي للسكة الاسلامية في العصر العباسي اتضح انها لا تتعدى القرن الثالث الهجري (٩م) وهذا ما أكده الدكتور عبدالرحمن فهمي في كتابه صنج السكة .
(٩) Lane-Poole, Cat. of Oriental Coins in the British Museum Vol. IV P 80-130.
(١٠) عبدالرحمن فهمي – فجر السكة العربية ص٢٩١ وما بعدها اللوحة ١–١٠٠

(١١) Lane-Poole. OP. cit Vol. IV P. 136-216. Pl. 6-8.

(١٢) عبدالعزيز الدوري ــ تاريخ العراق الاقتصادي ص٢٢٥ ٠

(١٣) الشيخ محمد الخضيري بك ــ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ــ ص٤٩٥ ٠

(١٤) Jungflish : B.I.E.T. P. III.

ما ذكره الاستاذ يونجفلاش استنادا الى تلك المجموعة في السكة التي عثر عليها في واسط ، وعليها كثير من أسماء مدن الضرب المختلفة ٠

(١٥) الدكتور عبدالرحمن فهمي ــ النقود العربية ــ ص١٣٣ ٠

(١٦) الخط الكوفي ( نسبة الى الكوفة ) ٠ لقد عني الكوفيون عناية خاصة بتجويد هذا الخط والابداع به في رسم حروفه حتى غلبت عليه اليبوسة والصلابة والميل الى التضليع أو التربيع مما أكسبه طابعا هندسيا ، وهو يعد من أهم مظــاهره وبالرغم من خضـوعه للاصول الهندسية فان له نصيب وافر من الجمال وذلك بما فيه من الترطيب الذي خفف من شدة جفافه ، ويظهر هذا الترطيب بدرجات متفاوتة في عرافات (كاسات) الراء والنون والياء والواو مثلا ، وتدوير الصاد والراء والظاء وهامة العين ورأس العين والواو وتدوير الهاء والميم ( زكي محمدحسن ــ فنون الاسلام ــ ص٢٣٦ ، سهيلة الجبوري ــ الخط العربي وتطوره في العصور العباسية ص٣٩ ) ٠

(١٧) أنواع الخط الكوفي ا ــ الكوفي البدائي البسيط ب ــ الكوفي ذو النهايات المتطورة حـ ــ الكوفي المورق د ــ الكوفي المزهر هـ ــ الكوفي المظفور و ــ الكوفي المحدد بزخارف ارضية ز ــ الكوفي المعماري حـ ــ الكوفي المربع ٠

(١٨) يمتاز الخط الكوفي المورق بأن تكون نهايات حروفه او وسطها او أولها على شكل أوراق نباتية لانصاف مراوح نخيلية او أوراق ذات فصين ، أو ثلاثة فصوص ، ونلاحظ أن هذه العناصر النباتية تتصل بالحروف مباشرة دون أن يكون بينها افرع أو خطوط متموجة ، بل انها لاتعدو أن تكون رأس الحرف مقسمة أو نهايته ، وقد يحدث بالحروف المنتهية في الكلمة أو بالحروف الوسطية المفردة ( زكي محمدحسن ــ فنون الاسلام ــ ص٢٣٨ شكل ١٦١ ــ ١٦٢ ) ٠

(١٩) يمتاز الخط الكوفي المزهر بأن حروفه تزخرف رؤوسها او نهايتها بزخارف نباتية كالمراوح النخلية أو الاوراق ، بالاضافة الى افرع نباتية وأزهار تخرج من نهايات الحروف أو من الحروف الوسطية أيضا ، وقد تكبر الأفرع الزخرفية الخارجية من الحروف بحيث تملأ جميع الفراغات الموجودة بينها ، وهذا النوع من الخط يمثل مرحلة دقيقة من مراحل تطور الخط الكوفي وذلك لما يمتاز به من جمال وروعــــة ( زكي محمدحسن ــ الفنون الاسلامية ــ ص٢٣٨ شكل ١٦٣ ) ٠

(٢٠) الكوفي المظفور أو المجدول وفيه تظفر القوائم التي كانت عمودية فتصبح كالظفائر ذات الأفرع المتداخلة ، وتوجد ثنيات وعقد كبيرة وصغيرة بالاضافة الى انواع أخرى كثـيرة من العناصر المجدولة ، ولا يقتصر التظفير على قوائم الكلمة بل كثيرا ما يظفر معها قوائم عدة كلمات ، كما تتكرر الظفائر أحيانا على شريط بحيث تكون شريطا زخرفيا ، ويعتقد انه عرف هذا النوع من الخط في القرن التاسع الميلادي ، وان كان لم يعثر على أمثلة قديمة منه ، ولم يهتد العلماء الى أصله ٠

# البحر والذكرى

محمد إسماعيل الأسعد

نحن لا نذكر كم بدر طوينا ،
كم شراع مزق الريح بأيدينا الكئيبة
نحن ماضينا غناء ضاع في لج السفار
وانتظار تحفر الذكرى صليبه
فوق آفاق البحار ؛
فاحملي يا ريح عنا
غنوة البحر طويلا ،
واخبري يا ريح عنا
كيف نغشى المستحيلا ..

●

قد دفنا الامس لم نترك على الشط حبيبة
تغزل الثوب ، وتغفو في ادكارات كئيبة
قد دفناه وسافرنا مع الريح الغريبة
وابتدأنا من فراغ تجهل الذكرى دروبه
صوتنا من رجفة البحر نقاء وخصوبة
في هوانا موجة تملأ أغوار الخيال
تحمل الاشواق زادا من ليالينا الطوال ..

●

يا هوانا ، يا غناء البحر في الليل السجين
مر في أعراقنا شوق الى ركب السنين
ود لو عشنا على الذكرى كعيش الاخرين
لو نعد العمر في أسفارنا ،

في ضفـــاف ينســج الامال فيهـا المتعبون
ود لو ننسى بأنا غرباء
زادنا ذكرى طويناها ، وأنساها الرجاء ٠٠

●

غربة الدهر على أجفاننا المبتهلات
وهدير البحر في ليل التمني
مزقا خطو الزمان المطمئن
في الصدور الخاويات ؛
فاتركينا يا رياح
ننسج العمر هباء من فراغ الذكريات ٠٠

●

مرة ٠٠ يا بحر لو ترفع أيدينا الغريقة
صخرة الاعوام من بدء الخليقة
مرة ٠٠ لو نقطع الليل غناء دون ذكرى
دون أشباح يعريها السكون ،
مرة ٠٠ لو تمسك البحر عباء من تلقيه السنون ،
مرة ٠٠ ما أبعد الاشواق والذكرى الغريقة ،
في ليالي البحرين ٠٠ !

# كتب الشهر

## نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب

### لمحمد بن عبدوس الجهشياري

جمعها من مصادر مخطوطة ومطبوعة
وعلق عليها : **ميخائيل عواد**
١١٦ صفحة من القطع الكبير
منشورات دار الكتاب اللبناني - بيروت

تناول كتاب ( الوزراء والكتاب ) لابي عبدالله محمد ابن عبدوس الكوفي المعروف بالجهشياري المتوفى ببغداد سنة ٣٣١ للهجـــرة ( ٩٤٢-٩٤٣م ) الكلام على أوائل الكتابة وأيام ملوك الفرس والدواوين والكتاب في أيام الخلفاء الراشدين وفي أيام خلفاء بني امية ثم جاء على أخبار وزراء بني العباس حتى نهاية المئة الثالثة للهجرة • »

« والنسخة الفريدة التي طبع عليها كتاب ( الوزراء والكتاب ) ناقصة نقصا بينا ، فهي تقف فجأة عند وزارة الفضل بن سهل ، في أوائل أخبار المأمون الخليفة العباسي السابع • »

ويقول الاستاذ الناشر (النصوص الصريحة التي وقفنا عليها في جملة كتب قديمة نقلها هؤلاء الكتبة عن نسخ كاملة من كتاب (الوزراء والكتاب) وقد أثبتناها في بحثنا هذا • ففيها كلها من أخبار المأمون ومن قام بعده من الخلفاء حتى أيام المعتضد بالله • أفليست هذه النصوص خير شاهد يشهد ان الجهشياري كان أكمل كتابه ولم يقف فجأة في نهاية أخبار الفضل بن سهل أول وزراء المأمون • )

وقد قسم الناشر الكتاب الى قسمين أسمى الاول ( مقدمة وفوائـــد تاريخية ) وتناول في الثاني ( النصوص الضائعة من الكتاب ) وألحقه بسبعة فهارس •

## الوطن العــربي

**دراسة مركزة لتطوراته السياسية الحديثة**

**للدكتور حسن العطار**
٣٣٦ صفحة من القطع الكبير
مطبعة أسعد ـ بغداد

يتناول الدكتور الكاتب في مؤلفه هذا ، الذي ساعدت جامعة بغداد على نشره ، من الوطن العربي بالدرس العراق والجمهورية العربية المتحدة وسوريا ولبنان والاردن والمملكة العربية السعودية والكويت واليمن وليبيا والسودان والمغرب العربي ( تونس والمغرب والجزائر ) والمحميات البريطانية في شبه الجزيرة العربية ( البحرين والساحل المهادن وامارة قطر وعمان والجنوب العربي المحتل ) ٠

وقد أسهب في دراسة فلسطين وقضيتها ٠

وقد جاء في التمهيد للكتاب قول المؤلف :

( صدرت وتصدر باستمرار مئات الكتب والبحوث حول التطورات السياسية الحديثة في الأقطار العربية ٠ ولكن القسم الاكبر منها يتعلق اما بأحد هذه الأقطار أو بعدد منها دون الاخرى أو يخص مشكلة معينة أمثال قضية فلسطين أو مسألة الجنوب العربي أو شؤون الخليج أو مشكلة نهر الاردن أو الثورة الجزائرية أو امور الوحدة العربية ٠

ولقد شعرت ، وأنا أتتبع وأبحث في هذا الموضوع ، بقلة المؤلفات التي تحتوي على دراسة سياسية تشمل كل أجزاء الوطن العربي ٠ ولاجل هذا فكرت بالمساهمة في هذا المجال باصدار كتاب يجمع بين صفحاته خلاصة شاملة لأهم الاحداث السياسية لبلاد العرب في نهضتها الحديثة التي ابتدأت بصورة عامة في أوائل هذا القرن ٠ )

## من وحي السـفر

**ناجي جواد**
١٢٠ صفحة من القطع المتوسط
مطبوعات اينانا

مجموعة من المشاهدات والانطباعات سجلها الكاتب عبر سفراته المتعددة الى الاقطار المختلفة وصفها تحت عناوين ( رسالة من استانبول ،

من فينا ، معرض بروكسل ، في بيت غوته ، الاكروبوليس ، في بيت الفنان كارل ميلز ، مادوروودام أو مدينة الاقزام ، كفر شيحا ، تاسك الشخروب )

وكتب لها تصديرا بعنوان ( السفر ) مما جاء فيها :

( ٠٠٠ ومما يضاعف الرغبة في السفر ، تلك المفاجآت والمصادفات التي تصاحب المسافر ، وما ينتابه من ضروب الانفعالات والمشاعر ، لما يلقى ويرى ، وما يستشعر من شوق وحنين للوطن • وفيه البيت والأهل والخلان • ومن ثم ما تستوعبه الذاكرة من خواطر وأفكار وانطباعات ، حلوة دوما ، وشابة أبدا سيستعيدها العائد كثيرا ولمرات عديدة في أيامه •

وفي رأيي وآراء الكثيرين ممن مارسوا التنقل والترحال ٠٠٠ ان الانسان اذا ما انطلق من صدفته ، وتطلع الى العالم الواسع عن كثب ، وأحب بني الانسان عن قرب لاطلع على أغنى المعارف مما لم يطالعه في أمهات الكتب والمظان • )

ويقول ( وبقدر ما يكون السفر قوي التأثير في تحرير العقول وتهذيب الطبائع والاخلاق وترويض النفوس والقلوب على الألفة والمحبة ، يكون ، كذلك ، تأثيره قويا في اذابة الاختلافات والتباينات مهما كان نوعها ودوافعها ٠٠٠ أو على الأقل ، في حصرها ضمن أضيق نطاق ممكن •

وبعد ، ٠٠٠ فالمسافر ، ينشر في سماء قلبه أعلام المحبة لابناء الانسانية ، ولمختلف اجناس المجموعة البشرية دون تميز وتفريق •



## السيف والسفينة

مجموعة قصص قصيرة
تأليف : عبدالرحمن مجيد الربيعي
١١٢ صفحة من القطع المتوسط
مطبعة الجاحظ ـ بغداد

تضم مجموعة السيف والسفينة احدى عشرة قصة قصيرة هي على التوالى ( الصوت العقيم ، ظلال اللحظات ، العين ، موت الجفاف ، حفرة حيث لا أقمسار ، السيف والسفينة ، صفعة من المقعد الخلفي ، الازمة والسراب ، الوفاء وتراب الكهف ، حكاية عواد باشا ، الطلب ) ولقد قدم لها الكاتب بمقدمة مما جاء فيها :

( كنت زائدا ، أحني رأسي أمام هزائمي ، ولا أصافح الايدي ولا الوجوه الاخرى ٠٠

كنت أشتهي أن أقتلع شـــعر رأسي وأعمل مهرجا له أظافر طويلة وعيون خالية ٠٠ أسطو على أعماقي وأوغل في تشويهها عندما أضع على رأسي صخرة منحوتة على شـكل قرد فزع ٠٠٠ وكـم حاولت أن أعلن براءتي من عبدالرحمن الذي يغتالني باستمرار ٠٠ هذا الطموح المجنون الذي يعربد في الحانات ويتحدث عن فشله العاطفي المرير وعن الشروق والقوافل ٠٠الخ)

ويقول :

( ٠٠٠ ولعل هذه القصص هي نتاج مرحلة المساومة ليأتي الانعتاق من تفاهة الانسان الفرد وضحالة قضيته أمام آلاف العيون ٠٠

اليوم بت أريد أن أكون بوقا تمر بي الاصوات لا أن أكون نافخا أملك لحني وحدي الذي قد يجد فيه الآخرون نشازا يمزق اذانهم ٠٠٠ )

## تاريخ المشعشعين وتراجم أعمالهم

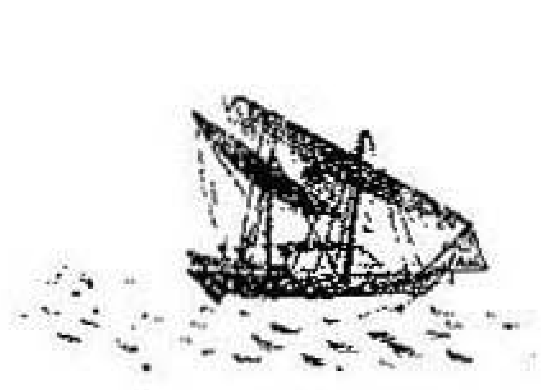
**للسيد جاسم حسن شبر**

٣٥٣ صفحة من القطع الكبير

مطبعة الاداب ـ النجف الاشرف



وهو بحث يتضمن تاريخ الدولة المشعشعية في عربستان والعراق منذ بدايتها حتى نهاية حكمها ، وما لهم من الحوادث الهامة التي أهملهـــا التاريخ ، وكشف بعض الحقائق التاريخية التي تمس حياتهم الفكريـــة والسياسية والبحث مذيل بفهارس للاعلام والامكنة والبقاع والمدن والانهر والشعوب والقبائل والاسر والبيوت ٠



# النتاج الجديد

**١ ـ عبدالله بن الزبير**
تأليف : **الدكتور علي حسني الخربوطلي**
سلسلة أعلام العرب
٢٨٨ صفحة

**بقلم : عبدالجبار داود البصري**

يضم الكتاب عشرة أبواب ومقدمة تصدى مؤلفه لدراسة نموذج كبير من نماذج البطولة والرجولة في تاريخ العروبة والاسلام هو عبدالله بن الزبير الملقب « بالعائذ بالبيت » .

كان عبدالله عظيما في نسبه ، عظيما في شخصيته ، عظيما في مركزه، عظيما في أثره وذكراه .

فهو بن حواري رسول الله وأحد العشرة المبشرة ، الزبير بن العوام ، وابن أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين . تزوج الرسول الكريم (ص) عمته « خديجة » وخالته « عائشة » .

كان عبدالله بن الزبير في طفولته موضع اعجاب وتقدير ، وكان في صباه موضع اعجاب وتقدير وكان في شبابه ورجولته مبرزاً يشار له بالبنان .

ترأس وتزعم قريشا بعد وفاة الامام علي بن أبي طالب .. وكان هو والحسين (ع) قطبي المعارضة الثورية ضد حكم بني أمية وما استحدثوه من مفاهيم وأساليب في السياسة والمجتمع والعقيدة وقد نجح في مسعاه نجاحا كبيرا وبويع بالخلافة ودانت له بالطاعة اكثر الاقطار الاسلامية وتخطى كل العقبات وقصر عن اللحاق به عدد من أمراء الامويين الى أن جاء عبدالملك بن مروان فانتصر عليه بفضل مهارة الحجاج الثقفي في الحرب وجرأته في رمي الكعبة وحربه أبناء الصحابة .

والدور الذي مثله عبدالله بن الزبير على مسرح التأريخ العربي الاسلامي دور كبير وهام وقد ترك أثرا في جميع مرافق الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية .. والتأريخ الذي اعتدنا قراءته في المدارس يظهر ابن الزبير وكأنه أقل شأنا من عبدالملك وأنه ليس الا متمردا قضي عليه .. ولكن قاريء كتاب الخربوطلي يخرج بنتيجة هامة هي أن ابعاد

شخصية عبدالله ابن الزبير أروع وأعظم من ابعاد شخصية عبدالملك وان استتباب الامن بعد القضاء على خلافة ابن الزبير واستقرار الحكم الأموي لم يكن أمره كذلك في حينه ٠٠ اذ أحدث مقتله مرارة ولوعة أسى وأسفا حتى ان اعداءه رثوا له ٠٠ مر عبدالله بن عمر بن الخطاب على جثمان ابن الزبير المصلوب فقال : « السلام عليك يا أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ولقد كنت صواما قواما وصولا للرحم ، أما والله أن قوما انت شرهم لنعم القوم » ٠

ولد عبدالله بن الزبير في المدينة في ٢ شعبان بعد عشرين شهرا من الهجرة فكان أول طفل ولد في المدينة في الاسلام ٠٠ وكان مصرعه ١٤ جمادي الاولى سنة ٧٣هـ ٠

فصول الكتاب تجري على النسق الآتي :

١ ـ فجر حياة بن الزبير
٢ ـ دفاعه عن عثمان
٣ ـ دوره في حرب الجمل
٤ ـ موقفه من قيام الدولة الاموية
٥ ـ ثورته في خلافة يزيد بن معاوية
٦ ـ خلافته
٧ ـ الصراع بين خليفة الحجاز وخلفاء الشام
٨ ـ موقف الاحزاب الاسلامية من خلافة عبدالله
٩ ـ نهايته
١٠ ـ أثر حركة بن الزبير في تأريخ الدولة الأموية

والذى ألاحظه في هذا الكتاب ٠٠ أن بعض الامور الهامة مر عليها المؤلف مرورا سريعا لانه كان معنيا بشخصية الرجل بالدرجة الاولى ٠٠ فلم يمنحها اهتماما كبيرا مع كونها من أهم أحداث تأريخنا وأعمقها أثرا في تكوين نفسية المواطن العربي المسلم الى يومنا هذا الذى نعيش فيه ٠٠

من هذه الاحداث مثلا موقعة الجمل وموقعة الحرة ٠٠ انهما من المواقف الحاسمة والكبيرة جدا ٠٠ ولا زلنا نعيش أحداثهما كأنهما وقعتا البارحة ٠٠ كما ألاحظ ٠٠ أن المؤلف أكثر من الاشارات الى فصاحة عبدالله بن الزبير وبلاغته وشاعريته وجانبه الفكري ٠٠ من هذه الاشارات :

« اشتهر بن الزبير بالبلاغة والفصاحة فكان خطيبا مفوهاً يصل الى قلوب سامعيه فيقنعهم ويكسب تأييدهم ويخاطب عقولهم وعواطفهم ٠ كما كان شاعرا مجيدا فكان يصوغ كثيرا من كتبه ورسائله شعرا رصينا » ص ١٨ ٠

وفي هذا القول صواب وحق ٠٠ فمن خطب عبدالله ما قاله حين بلغه

نعي أخيه مصعب : « الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء • ألا وأنه لم يذلل الله من كان الحق معه وان كان نذرا ، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وحزبه وان كان معه الأنام طرا ألا وأنه قد أتانا من العراق خبر احزننا وأفرحنا • أتانا قتل مصعب رحمة الله عليه • فاما الذي أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة ، واما الذي أحزننا فان لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ثم يرعوي من بعدها ذو الرأي الى جميل الصبر وكريم العزاء • ولئن أصبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبلهوما أنا من عثمان بخلو مصيبة وما مصعب الا عبد من عبيد الله وعون من أعواني ألا وأن أهل العراق أهل الغدر والنفاق سلموه وباعوه باقل الثمن فان يقتل فانا والله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص والله ما قتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا الاسلام • وما نموت الا مقصاً بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ، ألا انما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه فان تقبل لا آخذها أخذ الأشر البطر ؛ وان تدبر لا أبك عليها بكاء الحرن المهين •

فمثل هذه الخطبة تغري القارئ بالاستزادة من أدب عبدالله ولكن المؤلف لا يروي الظمأ •• فهو لم يعقد باباً لدراسة أدبه وتحليله وايراد نماذج وفيرة من شعره ونثره الا شذرات وردت شواهد هنا وهناك •• وهي شذرات مجزأة •

وألاحظ في الكتاب أنه عنى عناية خاصة باظهار الدافع السيكلوجي في تحريك التاريخ العربي الاسلامي •• فهو وراء انتخاب الامراء والقادة ، وهو المبرر لسقوط هذا الخليفة أو تنصيب ذاك ، وهو سبب هذه المعركة أو تلك ••

مثال هذا :

أوفد يزيد النعمان الى ابن الزبير ليفاوضه في البيعة له والانقياد لخلافته فخلا النعمان بابن الزبير فتوجه ابن الزبير اليه بالسؤال : أنشدك الله ، أنا افضل عندك أم يزيد ؟ فقال : بل أنت • فقال ابن الزبير : فوالدي خير أم والده ؟ فأجاب النعمان : والدك • فقال : فأمي خير أم أمه ؟ قال : بل أمك ؟ فقال ابن الزبير : فخالته خير أم خالتي ؟ قال : بل خالتك • قال فعمتي خير أم عمته ؟ قال : بل عمتك ، أبوك الزبير وأمك أسماء ابنة أبي بكر وخالتك عائشة وعمتك خديجةبنت خويلد • فسأل ابن الزبير : أفتشير علي بمبايعة يزيد ؟• قال النعمان : أما اذا استشرتني فلا أرى ذلك ولست بعائد اليك بعد هذا أبدا • ص ١٣١

فمن هذا المثال تتضح أهمية العوامل السيكلوجية في نظرية الحكم وفلسفته •• ومن المثال الآتي تتضح أهميتها في حل المشاكل الاجتماعية والسياسية

« وخشي مروان من منافسة خالد بن يزيد بن معاويه ، ورأى التخلص منه ، فتزوج من أمه فاختة ابنة أبي هاشم بن عتبة « ليسقط من أعين الناس » ثم تآمر مروان معها فخنقاه حتى مات ص ١٤٢

وجه التساؤل في هذه الملاحظة هو : ألا يصح تفسير لتاريخنا غير التفسير السيكولوجي ٠٠ ألا يمكن تطبيق نظرية توينبي في التحدي والاستجابة ؟٠٠ ألا يمكن تطبيق نظرية التفسير المادي ٠٠؟

وملاحظة أخرى ٠٠ ان المؤلف لم يتطرق الى حياة ابن الزبير بعد موته ٠٠ وهي من الموضوعات الهامة عند المؤرخ المعاصر ٠٠ ولا سيما في الدراسات المقارنة ٠٠ حيث تتعقب نشوء الظاهرة وترصد حركتها وتطورها وامتدادها ثم ضمورها وانتهاءها ٠

وأخيرا نثبت فيما يلي بعض ما نراه خطأ في العربية ٠٠ يجب ان لا يقع فيه باحث كبير مثل الدكتور الخربوطلي ٠٠ بالرغم من كونه مؤرخا لا أديبا ٠٠ لان سلامة اللغة ليست وقفا على الاديب ٠٠ كما أن المؤرخ غير معذور اذا اخطأ ٠٠ وان المؤرخ العربي القديم كان أديبا وعالم لغة كذلك ٠

ص٩٤ أن يكون الولاة الامويين في بلاد الحجاز ممن تميزوا بالتساهل والتسامح ٠ والصواب (الامويون) ٠

ص ٩٦ سوى أخاه عمرو بن الزبير ٠ والصواب سوى أخيه عمرو بن الزبير ٠

ص ٩٩ حتى هب المسلمين طالبين ٠ والصواب هب المسلمون ٠

ص ١٠٠ شهدنا بالامس عمرو بن سعيد ٠ والصواب شهدنا بالامس عمرا بن سعيد ٠

ص ١٠١ ابن عمرو بن سعيد اراد ٠ والصواب ان عمرا بن سعيد اراد ٠

ص ١٠٤ وان لم ينطوي تحت لوائه والصواب وان لم ينطو

ص ١٠٥ فيعود أهل المدينة ويكونوا لسانا ناطقا معبرا عن رغبات يزيد ويناهضوا دعوة ابن الزبير ٠ والصواب يكونون ويناهضون ٠

ص ١٢٣ خرج هؤلاء الامويين ٠ والصواب خرج هؤلاء الامويون ٠

ص ١٢٨ وكان ذو شخصية قوية وحزم وعزم ٠ والصواب وكان ذا شخصية قوية ٠

ص ١٤٧ وعلم التوابين بقدوم ابن زياد ٠ والصواب وعلم التوابون ٠

ص ١٥٧ ولكن هذا هو محمد أخي الحسين يبايع ليزيد والصواب أخو الحسين ٠

ص ١٥٩ بانهم سيكرهوه على القتال ٠ والصواب سيكرهونه ٠

ص ٢٣٨ لا نجد سوى شاعرا واحدا ٠ والصواب شاعر واحد ٠

# آراء وتعقيبات

## حول قصة

## حين يستولي الخوف

### للدكتور حسين كبه

**طلال حجازي**

ينقسم النقاد الى فريقين فمنهم من يؤيد وجود فلسفة معينة يعي عليها الكاتب ، بينما يرى الفريق الآخر ان القصة أو المسرحية التي تخضع لفلسفة معينة سابقة في ذهن الكاتب معرضة للانخفاض . هذان الرأيان لا يؤثران على مهمة النقد ، لان وظيفة الناقد الرئيسية هي كشف تلك الفلسفة التي نفترض وجودها ولا يهمنا كثيرا كون الكاتب يعبر عن فلسفته عن وعي أو عن غير وعي ، ولكن الذي يعني الناقد في الدرجة الاولى هو الكشف عن ماهية تلك الفلسفة . هذه العملية والتي اسميها « تبسيط العمل الفني » هي التي ساعدتنا على تفهم غوامض وروائع الادب العالمي كاوديب سوفوكليس ، وكوميديا دانتي وفاوست جوته ، وهملت وشكسبير ، وخراب اليوت ، ويوليسيس جويس ، ولهذا علينا ان نتساءل قبل كل شيء : ماذا يريد الكاتب أن يقول للناس من خلال قصته « حين يستولي الخوف » .

لعل من أصعب الاشياء في كتابة القصة هي بدايتها ، فمن القصاصين من يعرض في البداية اطارا لقصة ثم يطور هذا الاطار تدريجيا حتى يكتمل في النهاية ليصبح جزءا من القصة كما في قصة جوزيف كونراد المشهورة « لورد جيم » او قصة « جوزيف اندروز » لفيلدنج او قصة « غاتسبي العظيم » لفتزجرالد . ومن القصاصين من يدهش القاريء فيبدأ قصة دون تمهيد ويورد اسماء الاعلام في السطر الاول وكأننا على سابق معرفة بهم كما في معظم قصص كامو وكافكا وهمنغواي ، وهاتان الطريقتان لا تنطبقان فقط على الرواية الطويلة ، بل نجد أيضا ان كتاب القصة القصيرة يختارون احدى هاتين الطريقتين ، وها هي كاترين مانسفيلد تستعمل الطريقة الاولى في مجموعتها القصصية « حفلة الحديقة » كما يستعملها جيمس جويس في مجموعته القصصية الشهيرة « أهالي دبلن » ، بينما

يستعمل ارنست همنغواي الطريقة الثانية في قصص مجموعته « رجال بلا نساء » . الا ان الكاتب هنا قد استعمل طريقة هي أشد تأثيرا في القاريء وجذبا له وهي طريقة استعملها جي دي موباصان وسومرست موم في بعض قصصهما كما استعملها جيمس جويس في احدى قصصه المشهورة واسمها « الميت » ، وهي طريقة المزج بين الطريقتين المذكورتين .

لقد رسم لنا الكاتب هنا اطارا منظما في بداية القصة ، والذى يتمثل في حادثة قلع سعدي لقشرة الجرح ، ولكن الكاتب لم يطور هذا الاطار بل فاجأنا ببداية جديدة لقصة تبدأ بهذه الجملة : « انها لسجادة عظيمـــة ، وسعتها ساحة البهو من بابه حتى السلم الذى في آخره ... »

ولكن هل تنفصل هذه البداية الجديدة كليا عن بدايته الاولى ؟ لو كان الامر كذلك لحق لنا القول بأن القصة مفككة لا ترابط بينها . ان هناك ترابطا قويا بين هاتين البدايتين قد لا يشعر به القاريء لاول وهلة فمـــا البداية الاولى والثانية الا حلقتين متصلتين من سلسلة طويلة هي سلسلة الحيـــاة .

تبدأ القصة ببداية حادة تتناسب مع عنوانها الذي يعد القاريء باشياء كثيرة ، وهذه البداية تعكس للقاريء رغبة سعدي في التمرد على نفسه وعلى العالم الخارجي ، فنظرته الى الاشياء تتخذ طابعا هجوميا فهو يحك البثور « حتى لو آلمه حكها » « ويضع الملح على الجرح » ورغم هذا فهو ينظر الى عمله بلذة عجيبة ، أقرب ما تكون الى « الصادية » .

لقد عاش سعدي في البداية تجربة خاصة ونجح في هذه التجربـــة وشعر بلذة عظيمة ، فأغراه نجاحه هذا الى المضي قدما ليتفحص السجادة السحرية ليعرف أسرار ألوانها الثلاثة : الاسود والاحمر والاصفر ( الموت والمجازفة والامل ) .

يريد أن يعرف عنها كل شيء كما يريد أن يعيش التجربة بنفســه ليبحث عن ماهية الحياة ويصل الحقيقة الثابتة ... يريد ان يعرف اسرار الكون وخاصة ذلك اللون الاسود الذى يخفي وراءه المصير المظلم المجهـــول ان اكتشاف هذا المصير يقترن بالمجازفة والمخاطر ، ولكن سعدي يخـــوض التجربة كما خاضها في المرة الاولى ، يسيطر عليه شعوران متناقضان همـــا الخوف والرغبة . لقد انتصرت في الماضي رغبته في قلع القشرة على خوفه من الالم ، ولكن هل تنتصر رغبته في كشف اسرار الحياة على الخوف مـــن الموت ؟

لنسمع كيف يبدأ سعدي مغامرته مع الحياة : يصمم سعدي منـــذ البداية ان يعبر السجادة فيقول : « لو قدر لي أن أحيا سليمـــا لشعرت بأني قد ولدت من جديد » ، ولكن مخاوفه تنسج خيوطا غريبة من التردد حول هذه الرغبة العارمة فنسمعه يتساءل : « ترى هل يجرأ الانسان ان

يجتاز هذه المسافة عن طريق اللون الاصفر وحده بحيث يتحاشى تلكؤ اللونين الخطرين ؟ » هذا السؤال بالذات هو الذي ينقلنا من تجربة سعدي الخاصة الى تجربة عامة بطلها الانسان ، وبمعنى آخر هنا تبدأ رمزية القصة .

يتسرب الشعور بالخطر تدريجيا الى سعدي فيمتقع وجهه وتحملق عيناه في الفضاء وتبدو عليه امارات الفزع والارتباك ، غير ان بصيص اللون الاصفر الضيق المدى يضيق الخناق عليه ويدفعه دفعا لان يستمر رغم المخاطر ، ولكن الامور لا تسير كما ارادها سعدي فيبدأ باصدار التأوهات والحسرات فيقول : « ليتها لم توجد الحيات » ، ثم يبدو عليه الشحوب والانهيار تارة والتردد والتريث تارة أخرى ويفكر بالرجوع ولكن « انى له ذلك » ، فقد اطبقت عليه التجربة القاسية . وتظل القصة هكذا في صعودها نحو العذاب والمعاناة الشديدة الى ان يصرخ بأصوات حادة ويغمى عليه ...

هنا فقط يخرج سعدي من قوقعته الضيقة ويرجع الى عالم الحقيقة والواقع ليدرك ان العالم ليس بساطا مفروشا بالازاهير ولكنه سجادة سحرية فيها « الحيات السامة والجمر الاحمر المتقد » .

لقد كان سعدي يعيش ضمن حدود اناه (Ego) معتقدا انه قادر ان يعرف الكثير ، ولكنه يصطدم بالواقع الذي يخرجه تدريجيا من دائرته الضيقة . ان حادثة عبور السجادة هي كمختبر مسنن مرعب ذو عدستين احداهما تسلط الاضواء على الانسان وتكشف نقاط ضعفه وجهوده اللامجدية في الكشف عن الحقيقة المطلقة ، بينما تتسلط العدسة الاخرى على الحياة نفسها وتكشف لنا الوانها البراقة وموتها الزؤام .

ولكن هل فشل سعدي الانسان في محاولته هذه ؟ الجواب على هذا السؤال هو نعم ولا ، فسعدي قد سقط في النهاية وهو يصرخ باصوات حادة لشدة ما استولى عليه من الخوف ، ثم اغمي عليه . ولكن نجاح سعدي يكمن في سقوطه هذا ، فالانسان قد يفشل ولكن لا باس من المحاولة فكما يقول همنغواي : « ان معركتنا مع الحياة خاسرة ولكن لا بأس من المحاولة لان الحياة لا تعني شيئا دون كفاح » .

ولعل القصة خير جواب لقول هـ.ج ويلز في كتابه الفعل في منتهى الحدود فهو يقول : « كنا نتبع ضلالاتنا وكنا نؤمن بان أية حركة هي أفضل من اللاحركة ، بينما العكس هو الحقيقة ، اللاحركة والجمود هما جوابنا السؤال الغامض : « ماذا يفعل الانسان لو رأى الاشياء على حقيقتها ؟ والجواب هو أن الحركة أفضل من اللاحركة حتى ولو رأينا الاشياء على حقيقتها . هذا جانب واحد من القصة فالقصة تحمل اكثر من هذه الكلمات وهنا تكمن روعتها ، فروعة القصة تكمن في جوانبها المتعددة ووجوهها

المختلفة ،وقدرتها على اتخاذ اكثر من صورة واحدة وكما قال احسان عباس في كتابه فن القصة : « القصة مرآة متعددة السطوح وكل قـاريء يلقي بناظريه على السطح الذي يعكس صورته » ، او لعلها كالبنـاء الضخم ذي الكوى العديدة ولـكل قاريء ان يطل من الكوة التي يختارها .

لا شك ان التكرار يفقد الكلمات كثيرا من معناها ، لذلك سأتوقف قبل أن تفقد كلماتي معناها ، لانه لم يعد لدي شيء جديد اقوله .

« الاردن »

# بعض معالم الادب البلجيكي

**علي الحلي**

لم يكن هناك قبل عـام ١٨٨٠ أدب بلجيكي بالمعنى الاستقلالي الصحيح ، بل كان صورة مطابقة للادب الفرنسي ، غير انه يمكن القـول اجمالا ، ان هناك كتابا مبدعين ، تمكنوا من مجاراة الثقافة الفرنسيـة ، والتمشي مع تياراتها المختلفة .

ونستطيع على سبيل المثال أن نذكر منهم ( فان هاسـل ١٨٠٥ ـ ١٨٧٤ ) الذي أبدع في بعض الروائع التي تذكرنا بفكتور هوغو ولامارتين وهناك الى جانبه .. ( برميز ١٨٣٢ ـ ١٨٨٣ ) والصحفي غيوم فرسبين والخطيب الديني المشهور كارتوفيل .

وفي عام ١٨٨٠ ، استطاعت جماعة « الشباب البلجيكي » ان تثب بجرأة ، لتخلق ثورة حقيقية في الادب ، ووطدت العزم على ان يكون مجال الادب البلجيكي ، بين البلجيكيين انفسهم ، ليتسم به على وجه التحديد ، ومن ثم ليتحرر من المحاكـاة الاجنبيـة والتقليـد الغريب ، والصورة الفرنسية المطابقة ، وليجد الادباء البلجيك في تربة وطنهم ، وفي تاريخهم منابع الحياة ، ومناجم الخلق ، لتثبيت هوية الفن الوطني .

ان معانـاة البلجيكيين مـن آثار المذهب الطبيعي ، والرومانسية الفرنسية في المبالغة بعواطفهم المسفوحة ، لتركيز أدبهم وتوطيده أدى الى اثارة نوع معين من رد الفعل ... فاندفعوا بشجاعة الى انماء الحركـة الادبية الجديدة ، وتطعيمها بانفعالاتهم الخاصة ومن ثم كانت النتائـج طيبة في ايجاد الفن الابتكاري ، المنسلخ عن الآثار والرواسب القديمة الى الى حد كبير .

ومنذ ذلك الحين ، وجدنا شعراء كثيرين ، يتميزون بالطابع الاصيل

امثال ايفان كلنج والبرت جيرو وفيرنان سيفيرين ودون برونو ديزيري وفيكتور كينون والشاعر الكبير جورج رودنباخ ( ١٨٥٥–١٨٩٨ ) ، ولابد ان نقف قليلا عند هذا الشاعر الاخير ٠

ولد رودنباخ في مدينة تورنيه Tournai التي تقع غرب بلجيكا ، وعلى بعد ٢٧ كيلومترا عن الحدود الفرنسية ، وقد درس في جامعات باريس بفرنسا ، كما درس القانون فيجامعة غنت Ghent في بلجيكا ٠٠ وفتح مكتبا للمحاماة في مدينة بروكسل ، الا انه لم يستطع ممارسة عمله لانصرافه الكلي الى الادب والشعر والفن بصورة عامة، وفي عام ١٨٨٧هاجر الى باريس ، حيث قضى آخر ايام حياته ٠

وقد تمكن جورج رودنباخ فيما كتبه من مؤلفات أمثال ( العطلة ) و ( بريج ٠٠٠ الميته )(١) و ( مملكة الصموت ) ان يكشف لنا بكلمات معبرة عن الافتتان الجنوني الذي يحيط بمدينة « بريج » الفلموتية(٢) ٠ وسنحاول في مقال آخر ترجمة بعض روائعه الى العربية ٠

وكان اميل فيرارن Verhaeren ( ١٨٥٥–١٩١٦ ) أكبر شاعر في هذه المدرسة ، بل كان الشاعر البلجيكي الوطني الحقيقي الذي ينبغي أن يوضع الى جانب الرمزية الفرنسية ، والمدرسة الرومانسية بوجه عام ٠

ان فيرارن شبيه الى درجة كبيرة بفكتور هوغو المتهيج ٠ وقد مارس كتابة الشعر الحر بطريقته الرمزية الخاصة ٠

ومن الناحية الاخرى ، فان هناك شعراء بلجيكيين جاروا ما سبقهم من الشعراء الكبار ، أسلافهم ، ولكن على الطريقة الواقعية مثل كميل لوفيير (١٨٤٤ – ١٩١٣) ، بيد انه كان أكثر رومانسية من اميل زولا ٠٠٠

هذا الى جانب آخرين امثال هنري كارتون دي ويتر ، وهنري دافيكنون ، وشارل بليزنيير ، والكادرينال مرسيير ، وهذا الاخير ، له شهرة كبيرة في آفاق العالم ، حيث جدد الدراسات الفلسفية ، وأحيا الضمير البلجيكي ٠

ومنذ عام ١٩١٤ ، أي في طلائع الحرب العالمية الاولى ازدادت فعاليات ونشاطات الادب البلجيكي بصورة ملموسة ٠

وكأمر طبيعي ، فان لانتفاض الشعور الوطني بشكل عام آثار في تحرك وانفتاح الادب الاقليمي ، الادب الذي كان محصورا في المقاطعات المحدودة ٠٠٠ كما تطور مفهوم النقد والمقالة الفنية بشكل سريع ٠

وظهر فيما بعد نقاد وكتاب امثال توماس براون ، وشارل برنارد وأدمون جولي ، وموريس ويلموت ، وليوبولد لوقو ، ومارسيل دي كورت٠ اما كميل ميلوي ، فقد كتب قصائد جديرة بكل تقدير ٠

اننا الى جانب كل ما ذكرنا ، يجب الا ننسى الدور الهام البارز الذي قامت به الجامعة الكاثوليكية في مدينة لوفان Louvain ، والفعاليات

المختلفة ، حيث كان للنشرات والمجلات الصادرة عنها أثر حيوي في تجديد الدراسات الدينية وتنشيطها بمستواها العلمي .

« بروكسل »

---

(١) تقع مدينة بروج Bruges في شمال بلجيكا ، وهي في الوقت نفسه عاصمة مقاطعة الفلندر الغربية حاليا ، ومن المعلوم ان في بلجيكا تسع مقاطعات .

وتسمى بروج بفنيسيا الشمال لجمالها وتعدد القنوات فيها . وقد شيدت في العصور الوسطى ، وهي مشهورة بثرائها ومتاحفها التي تمثل اتجاهات رسامي المدرسة الفلمونية ، وكانت من قبل ميناء معروفا قبل ان تنحسر مياه البحر عنها .

(المترجم)

(٢) يسكن بلجيكا عنصران رئيسان ، أحدهما يدعى «الولون» الذين يتطقون اللغة الفرنسية ، ويشغلون المناطق الجنوبية بصورة عامة ، اما الفلمون أو الفلندرز ، فهم سكان المناطق الشمالية والبحرية ، وينطقون اللغة الهولندية ولا تزال حتى الآن مشاكل عديدة ، سياسية واجتماعية وطبقية بين الولون والفلمون سواء في تركيب الحكومة أو الجهاز الاداري وحتى في أوساط الرأي العام وعلى الرغم من سيطرة اللغة الفرنسية في بجليكا ، الا ان اللغتين رسميتان معا بحسب القانون ، وعلى الرغم من ان الفلمون يشكلون الاغلبية من السكان .

ولا يفوتنا ان نذكر ، ان هناك اقلية ضئيلة تنطق الالمانية ، وتسكن بالقرب من مدينة « لييج Liege » على الحدود البلجيكية الالمانية من الشرق .

(المترجم)

# اضواء على السياسة العالمية

**ذكرى ثورة الموصل الباسلة**

مرت في اليوم الثامن من آذار ذكرى ثورة الموصل وهي الذكرى السابعة للثورة التي اعلنها المرحوم عبدالوهاب الشواف في الموصل في عام ١٩٥٩ ولم تكن ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ قد بلغت سنة واحدة من عمرها اذ تبين للناس مدى الانحراف الذي رافق تلك الثورة منذ الاشهر الاولى حيث سارت الامور في غير طريقها المرسوم او انها سارت في طريق رسمه اعداء الثورة والانتهازيون من فوضويين وشعوبيين فاقصيت العناصر المؤمنة بالثورة واخرج الوزراء الذين لم يوافقوا على السير في ركاب عبدالكريم قاسم وطغمته وغرق البلد في بحر من الظلمات وساد الناس شعور بالخوف وعدم الاستقرار واصبح السحل شعاراً يردد والحبل وسيلة الارهاب والقتل والتهديد ، لم يكن ذلك ليستعمل ضد العملاء والخونة وانما استعمل ضد القوميين الوحدويين وضد انصار العروبة والقومية والاسلام • وكانت ذروة ما وصلت اليه الحال من السوء ان تجمع ما يدعون انفسهم بانصار السلام في الموصل بشكل مؤتمر للتحدي والاستفزاز ، وما كان من آمر موقع الموصل اذ ذاك البطل الشهيد عبدالوهاب الشواف الا أن اعلن ثورته على حكم عبدالكريم قاسم واتخذ الاجراءات اللازمة لثورته فاذاع بيانه الاول الذي شجب فيه اعمال الفوضى وشريعة الغاب وبين الهدف من ثورته العربية التي كان همها اعادة الامور الى ما ارادت تحقيقه ثورة الرابع عشر من تموز •

ومن ثم انهى امر تلك الثورة بمقتل الشواف وقصف الطائرات لموقعه وانتهى أمر ثورته من حيث الشكل خلال ايام قلائل ، الا ان اثر تلك الثورة وما اعقبها من الاحداث يدل على انها كانت نقطة تحول هامة في تاريخ حكم عبدالكريم قاسم ، فقد اعقبت الثورة سلسلة من الاجراءات لتصفية العناصر التي لم يرق لها الانحراف القاسمي وتبعها كذلك محاكمات الضباط ثم احكام الاعدام التي صدرت بحقهم ثم تنفيذ تلك الاحكام في ظروف لم يشهد تاريخ العراق لها مثيلا من حيث الفوضى والاجرام ، ادى ذلك في نهايته ان تتكتل القوى القومية لمقاومة ذلك الحكم المنحرف وادى ذلك أيضا الى المحاولة التي قام بها بعضهم لاغتيال عبدالكريم قاسم ، ولعل ثورة الشواف هذه كانت من الامور التي مهدت لثورة الرابع عشر من رمضان والتي اطاحت بعبد الكريم قاسم وحكمه الاسود •

ولذلك فان الناس في كل مكان في الجمهورية يحسبون بان ذكرى ثورة الموصل الباسلة هي ذكرى تكسير قيود الظلم والوقوف في وجه الانحراف والتضليل ، ومن هنا كذلك نرى السيد الرئيس عبدالسلام محمد عارف يرعى احتفال الموصل بثورتها وينيب عنه السيد رئيس الوزراء في الاحتفال الذي اقيم بهذه المناسبة وقد تحدث السيد رئيس الوزراء ونقل الى المحتفلين تحيات الرئيس المشير الركن عبدالسلام محمد عارف اليهم وتقديره لتضحياتهم وفضلهم وقد اسهب السيد رئيس الوزراء بمآثر ابطال المدينة وشهدائها ودورهم في بناء صرح القومية العربية ورفع شأن الاسلام والمسلمين واستشهد بقول الشاعر ·

يجود بالنفس ان ضن الجـواد بهـا
**والجود بالنفس اقصى غايـة الجود**

وتطرق السيد رئيس الوزراء في حديثه عن مشاريع الحكومة والشمال وما يجب ان يتحقق لها من الاستقرار فاشار الى وجوب القضاء على الاضطراب والعصيان والتمرد الذي تثيره الفئة الضالة في هذا الجزء الكريم من الوطن ووعد ابناء الموصل بالكثير من الخير المترتب على المشاريع التي تنوي الحكومة تحقيقها وهي ضمن خطتها الاقتصادية ·



## بيان مشترك بين العراق وايران

صدر في بغداد وطهران بيان مشترك تم الاتفاق عليه بين الحكومتين العراقية والايرانية هذا نصه :ـ

بنتيجة المباحثات التي تمت بين ممثلي الحكومتين الايرانية والعراقية في جو من الصداقة وحسن الجوار فسيجتمع في القريب وفدان من البلدين للمفاوضة وحل جميع خلافاتهما بموجب جدول اعمال يجري اعداده لهذا الاجتماع · وفي هذا الاثناء يضاعف الطرفان مجهودهما في التعاون لخلق جو دولي يساعد على نجاح المفاوضات · وقد تم الاتفاق كذلك على أرسال ممثلي البلدين في لجنة التحقيق المشتركة الى الحدود التي شاهدت مؤخرا بعض الحوادث وذلك للتحقيق وتقديم تقرير بذلك الى حكومتيهما · وسيقوم وزير خارجية ايران بزيارة بغداد في الوقت المناسب لكلا الطرفين » ·

يدل البيان المتقدم على بوادر التقاء وتسوية للمشكلات التي اثيرت مؤخرا بين البلدين الجارين ونحن هنا في العراق نأمل دائما ان تتحسن علاقاتنا مع الاقطار المجاورة ونعمل دائما على ان تسود العلاقات روح الاخوة والمحبة التي تربط بين شعوب المنطقة وهذا هو ديدن الشعب العربي في كل بلد عربي فنحن دائما نعمل في نطاقنا العربي لتأمين أهدافنا العربية المشتركة التي نسعى الى تحقيقها ونحن دائما وابدا نعمل على ما ينمي علاقات الجوار مع الاقطار المجاورة ·

## مؤتمر رؤساء حكومات الدول العربية

انعقد في القاهرة خلال شهر آذار مؤتمر رؤساء الحكومات العربية في دورته الثالثة ، وقد مثل العراق فيه السيد رئيس الوزراء وعدد من الوزراء وكبار المسؤولين مدنيين وعسكريين ، وقد بحثت في الاجتماع جملة قضايا تهم الرأي العام العربي منها ميثاق التضامن العربي وتنفيذه نصا وروحا • والموضوع الثاني كان بالنسبة للتطورات الاخيرة في العلاقات بين المانيا الغربية واسرائيل وقد اتخذ المجلس قرارا بمقتضى قرار مجلس رؤساء الحكومات الثاني • اما الموضوع الثالث فقد كان بالنسبة لتزويد الولايات المتحدة لاسرائيل بالسلاح وقد اعلن المجلس قلقه البالغ واعتبر ذلك دعما للعدوان واجحافا صارخا بحق شعب فلسطين العربي وعلى ذلك فيبدو ان اجتماعات المجلس كانت مختصرة الى حد كبير وكانت الدائرة التي بحثت فيها المشاكل ضيقة ايضا ولعل السبب كما يرى المراقبون ان وفد السعودية كان يرأسه وكيل وزارة الخارجية وهو ليس بوزير وليس برئيس وزراء فبحث مشاكل اليمن بينه وبين رئيس وفد اليمن غير وارد بالنظر لمركزه المذكور كما ان العلاقة بين الوضع القائم في سوريا ولبنان قد تصدعت في الفترة الاخيرة الى حد كبير وكذلك ما يقال عن لبنان يقال عن علاقة الحكم القائم في سوريا بالعراق ، ومن هنا لم يتهيأ الجو المناسب لانجاح اجتماع المؤتمر بالشكل الذي كان منتظرا ، ومن هنا كذلك كانت تصريحات رؤساء الحكومات كلها اشارت الى ان الاجتماعات كانت مفيدة وفي صالح الوضع العربي دون ذكر للتفاصيل ودون تفاؤل كبير لما تمخضت عنها •

ولعل أهم بادرة اشارت الى ذلك ما ذكره الرئيس جمال عبدالناصر عن تلك الاجتماعات ووصفه لها بأنها لم تبحث في المشاكل الحقيقية بل ابتعدت عنها تجنبا لما قد تتطور اليه الاجتماعات من اختلافات برزت في بعض العواصم العربية وموقف البعض الاخر من الدعوات المشبوهة الى حلف اسلامي او ما الى ذلك من الامور ، نرجو مخلصين ان تبتعد عنها الاسرة العربية وان ينصرف الجميع الى ما فيه خير هذه الامة •